عبدالناصر وحقوق الانسان

قصة عبد الناصر والشيوعيين

الجزء الأول

بقلم :

د. عبد العظيم رمضان



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٨

الإخراج الفنى والتنفيذ:

صبرى عبد الواحد

الغلاف للفنان:

جمال قطب

تقديم

يضم هذا الكتاب الدراسة التى نشرت تباعاً فى جريدة «الوفد» فى الفترة من ١٩ أغسطس ١٩٩٦ إلى ٢٩ يونيه ١٩٩٨، واشتملت على ٩٥ مقالاً، تحت عنوان رئيسى هو: ثورة يوليو وحقوق الإنسان».

وقد آثرت أن يصدر الكتاب فى الشكل الذى قرأه القراء، أى فى شكل المقالات التى شدت القراء على مدى ٩٥ أسبوعا، أى قرابة عامين كاملين. وهى مدة قياسية لا أظن أنه تفوقها مدة أطول لأية دراسة تاريخية من هذا النوع فى تاريخ الصحافة، كما أنها أطول من المدة التى نشرت فيها دراستى عن حرب يونية ١٩٦٧ والتى نشرت فى مجلة أكتوبر تباعاً تحت عنوان: «تحطيم الآلهة»، وتجاوزت حلقاتها سبعين حلقة، استغرقت أكثر من سبعين أسبوعاً.

وعندما بدأت فى كتابة هذه الدراسة كان تصورى أنها سوف لا تتجاوز عدداً قليلاً من الحلقات، فقد كان هدفى الأول هو ضرب نماذج من امتهان الرئيس عبدالناصر لحرية الرأى واعتدائه على حقوق الإنسان، وكنت أهدف بذلك الرد على المحاولة الفجة التى قام بها الناصريون فى ذلك الحين لإثبات اعتداء الرئيس السادات على حقوق الإنسان عن طريق الاحتفال بمن أسموهم سجناء الرأى الذين اعتقلهم السادات فى ٣ ـ ٥ سبتمبر ١٩٨١.

فقد أثارتنى هذه المحاولة التى أغفلت سجناء الرأى فى عهد عبدالناصر ولم تذكر غير سجناء السادات! مع ما هو معروف من أن سجناء عبدالناصر ألقى بهم فى معتقلات تعذيب لا تفترق كثيراً عن معتقلات هتلر فى «بوخنفالد» «وداخاو» و«أوشفيتز» وغيرها، فى حين لقى سجناء السادات من المعاملة الإنسانية ما لا يقارن، وما جعل الكثيرين منهم يعترفون به فى كتاباتهم!

ومع إدانتى الشديدة لأى اعتقال لصاحب رأى سواء كان فى عهد عبدالناصر أو فى عهد السادات، وسواء لقى معاملة وحشية أو معاملة إنسانية، فإن تجاهل الناصريين لمعتقلات التعذيب فى عهد عبدالناصر كان ظلماً للتاريخ وتزييفاً له، ونفاقاً لا يتحمله ضمير مؤرخ.

ومن هنا قررت أن أكتب تاريخ معتقلات التعذيب فى عهد عبدالناصر، وأن ألقى الضوء على هذه الصفحة الخفية التى لا تعرفها أغلبية الشعب المصرى والشعوب العربية، من واقع الوثائق الأصلية ومن واقع اعترافات الشيوعيين الذين لا يفترض فيهم مبالغة أو تزييف، إذ تنتفى عنهم شبهة التلفيق والتزييف وتشويه عبدالناصر وعصره، وهم اليوم أكبر المدافعين عنه وعن عصره، بل أكبر حلفاء الناصريين، ولم يكفوا - حتى فى أثناء وقوع التعذيب عليهم - عن تأييد نظام عبدالناصر تحت وهم أنه نظام تقدمى، مع أن أى تحليل علمى وأيديولوجى سليم لا يتردد فى التأكيد على أنه نظاماً عسكرياً فاشياً خالصاً.

وقد كان غرضى فى البداية - كما ذكرت - هو مجرد ضرب نماذج، ولكنى سرعان ما رأيت أنه مادام أننى قد فتحت ملف التعذيب فى عهد عبدالناصر، فعلى أن أمضى فيه إلى النهاية، حتى تكتمل الصورة، وحتى لا يتصور أحد أن النماذج التى أوردتها هى نماذج طارئة وليست سياسة مقررة اتبعها عبدالناصر واتسم بها عهده من البداية.

فوق ذلك فإن الاكتفاء بضرب نماذج، فيه اجهاض للملف كله، ولن يتيسر فتحه مرة أخرى، كما أنه ظلم لتاريخ مصر، وظلم لتلك الصفحة التى يجهلها شعبنا وجميع الشعوب العربية التى خدعتها اشتراكية عبدالناصر دون أن تعلم أنها اشتراكية نازية لاتفترق كثيراً عن اشتراكية النظام النازى، فهذه الشعوب لا تذكر من عهد عبدالناصر سوى شعاره الشهير: «ارفع رأسك يا أخى فقد مضى عهد الاستعباد»، ولا تذكر أبداً أن عبدالناصر كان يدوس بقدمه كل رأس يرتفع بالمعارضة لسياسته ويزج به فى المعتقلات والسجون!

وقد كان علىّ حين قررت أن أقدم دراسة متكاملة عن معتقلات التعذيب فى عهد عبدالناصر أن استكمل ما لدى من وثائق كتبها المفكرون الشيوعيون فى شكل كتب أو أوراق مطبوعة أو غير مطبوعة. وقد استغرق ذلك منى وقتاً وجهداً، وعاوننى فيه كثير من الأصدقاء اليساريين الذين أدركوا أهمية استكمال هذه الصفحة من تاريخ مصر التى لم يجرؤ على كتابتها أحد من المؤرخين إلى اليوم، وأدركوا أكثر من ذلك أننى لا أستهدف من وراء هذه الدراسة سوى تسجيل الحقيقة التاريخية عن عصر عصف بمصر عصفاً شديداً، وغير تربتها الاجتماعية وأفكارها واتجاهاتها السياسية، ومضى بخيره وشره.

وعلى هذا النحو أخذت هذه الدراسة تتضخم أسبوعاً بعد أسبوع، وتتخذ الشكل الذى اتخذته، وهو شكل كان متعذراً لو أننى قصدت من البداية تقديمها فى شكل دراسة متكاملة! فقد اختلط فى هذا الشكل التأمل والتحليل والمراجعة والتصحيح والحوار.

وعلى سبيل المثال فقد نشرت وثيقة بخط اليد تحت عنوان: «ماذا حدث فى أوردى أبوزعبل بدءاً من ٧ نوفمبر ١٩٥٩ إلى أواخر يونية ١٩٦٠ بقلم محمود شندى». وقد زارنى فى أعقابها المفكر اليسارى

المعروف سعد زهران، وأخبرني بأنه كاتب هذه الوثيقة وليس محمود شندى، وأبدى دهشته من وصولها إلى يدى. وقد قمت بتصحيح ذلك أثناء نشر الدراسة، وهو ما كان متعذراً لو كانت الدراسة قد صدرت قبل ذلك.

كذلك فلم أكن أعلم بمذكرات الأستاذ محمود السعدنى التى نشرها تحت عنوان: «الطريق إلى زمش»، حتى تقابلت معه صدفة فى حفل منح الدكتور حسين كامل بهاء الدين الدكتوراه الفخرية من جامعة اسكتلندية، وبعث بها إلىّ لأكشف أهميتها التاريخية القصوى، لأن محمود السعدنى إلى اليوم مازال ناصرياً على الرغم مما تعرض له من تعذيب فى عهد عبدالناصر، دون أن يكون شيوعياً! وتنتفى - بذلك - عنه شبهة التزييف والتشويه.

لذلك أردت بنشرى هذه الدراسة فى شكل المقالات التى صدرت بها، أن يخوض القارئ معها نفس التجربة التى خاضها قارئ صحيفة الوفد كل يوم اثنين على مدى ٩٥ أسبوعاً، متابعاً لأحداث هذه الدراسة.

ومن الطبيعى أننى عندما قمت بإعداد هذه الدراسة للنشر ككتاب، قمت بإدخال ما يلزم من التعديلات التى تناسب دراسة علمية من هذا النوع، من ناحية ضبط العبارات والمعانى، وإضافة ما تحتاج إليه من إضافات. كما غيرت عناوين بعض المقالات التى صدرت بها فى الأصل. وعند تعرضى لأسماء معتقلات التعذيب فى ألمانيا النازية قمت بضبط نطق هذه الأسماء، وأضفت إليها أسماءها باللغة الانجليزية، نظراً لأن تعريب هذه الأسماء الأفرنجية دون إرفاقها بحروفها اللاتينية يكون دائماً على حساب النطق الصحيح.

كذلك فإن نشر هذه الدراسة فى صورة المقالات الأسبوعية التى صدرت بها أصلا كان لابد أن يحمل معه ما يصحب عادة المقالات الأسبوعية من تلخيص سريع لما سبق ذكره لمساعدة القارئ على المتابعة

ولتذكيره بما قد يكون قد نسيه. وقد طرأ لى حذف هذا التلخيص من مقدمة كل مقال، ولكنى بعد أن أعدت قراءته تبينت فائدته فى التذكير والتأكيد، ذلك أن القارئ لا يقرأ الكتاب فى يوم واحد، وإنما يقرؤه على أيام قد تكون متباعدة، وهو بالتالى فى حاجة إلى التذكير بما سبق له قراءته.

وقد يرى البعض ممن يقرءون هذه الدراسة أنها اتخذت موقفاً معادياً لعبدالناصر ولحكمه، مما يتنافى مع الحياد التاريخى الواجب توافره فى المؤرخ الأكاديمى، وهؤلاء يتصورون الحياد التاريخى فى شكل حياد بين الحق والباطل، وينسون أن المؤرخ الحق إنما هو موقف، ومن هذا الموقف يستمد أهميته.

وموقف المؤرخ الصحيح - فى رأيى - يجب أن ينطلق من فكر تقدمى ورؤية تقدمية فى صف الجماهير الشعبية وضد ما تتعرض له من استبداد أو استعمار. فالتاريخ يكوّن الذاكرة القومية للشعوب، وهو الذى يكوّن الوعى القومى والوطنى، وهو ضمير الشعب، فإذا كتبه مؤرخ يفتقد إلى الرؤية التقدمية لتطور المجتمع البشرى، فإن التاريخ الذى يكتبه يفقد رسالته الحقيقية التى تقوم بها الدراسات التاريخية الحقة.

كذلك فإن الذين يتحدثون عن الحياد التاريخى بمعناه الرياضى ينسون أنه لا يمكن الفصل بين التاريخ والمؤرخ. فالمؤرخ هو الذى يفسر التاريخ، وهو الذى يبث فيه من روحه، وهو الذى يبعثه من رقاد، ويحوله من رفات إلى كائن حى يتحرك ويؤثر. وبدون المؤرخ تبقى الأحداث التاريخية فى قبرها فى حالة موات!

وفى هذا الضوء، ومن هذا المفهوم، كتبت هذه الدراسة.

د. عبدالعظيم رمضان

الهرم فى أول نوفمبر ١٩٩٨

تجربة الوفد الديمقراطية في الدفاع عن حقوق الإنسان

الوفد في ١٩/٨/١٩٩٦

ربما كان خير ما نحتفل به بذكرى ثورة يوليو ١٩٥٢، هو أن نقوم بدراسة جوانبها المختلفة دراسة تاريخية معمقة، حتى يمكن تقييمها التقييم الصحيح، وتحديد موقعها بين الثورات الوطنية المتعاقبة في تاريخ مصر ضد الاستبداد والاستعمار.

ولما كانت قضية حقوق الانسان هي القضية التي تحدد مكان كل دولة على ظهر الأرض اليوم، ويقاس بها مدى تحضرها وتمدنها، وهي المعيار الذي حدده المجتمع الدولي للتعامل مع هذه الدولة أوتلك، بل هي الشرط الأساسي الذي حددته الدول الليبرالية لتقديم معوناتها المادية والمعنوية للدول، فقد رأينا أن نتخذ هذا المحور الهام للدراسة، عله يفيد في تكوين صورة متكاملة عن هذه الثورة، وأيضا لموازنة الزفة السياسية التي تسوقها وسائل الاعلام المصرية بمناسبة ذكرى الثورة، والتي من شأنها أن تغمط حق الشعب في معرفة تاريخه معرفة موضوعية مجردة من الهوى والأهداف السياسية، وهو ما تعمد اليه الدول المتحضرة التي تحترم شعوبها

وتعرف أن من حقها أن تعرف التجارب السياسية التاريخية التى مرت بها معرفة أمينة. وهذا هو واجب المؤرخين الأول، فاذا كان من حق السياسيين الدفاع عن نظمهم السياسية بكل الوسائل المشروعة وغير المشروعة، فانه من حق المؤرخين الدفاع عن تاريخهم الوطنى بالوسيلة المشروعة الوحيدة، وهى الحقيقة التاريخية!

وأعتقد أن الناصريين وحواريى ثورة يوليو سوف يرحبون باهتمامنا بموضوع حقوق الانسان، خصوصا بعد أن أصبح هذا الموضوع شاغلهم السياسى الأول، وأصبحت تتكون منهم معظم جمعيات حقوق الانسان فى مصر! كما أصبحت اتصالاتهم بشبكة جمعيات حقوق الانسان فى العالم ظاهرة من ظواهر حياتنا السياسية والحزبية فى مصر، الأمر الذى نخشى أن يفهمه شعبنا على غير حقيقته!

فمن المهم لشعبنا فى حياته السياسية أن يعرف جيدا هوية الأصوات التى ترفع علم الحرية والديموقراطية وحقوق الانسان، وهل تنطلق من مبادىء أصيلة راسخة تسندها مواقف تاريخية ثابتة فى الدفاع عن حقوق الانسان، أو هى أصوات تتاجر بسلعة الحرية وحقوق الانسان الرائجة فى هذه الأيام؟ ذلك أن المعرفة الصحيحة لهوية هذه الأصوات هى التى تحدد موقف الصوت الانتخابى فى أية انتخابات قادمة!

وعلى سبيل المثال، فاذا وضعنا تجربة الوفد التاريخية فى الدفاع عن حقوق الانسان تحت الفحص التاريخى، فسوف نجد شواهد وأمثلة ونماذج تزدحم بها صفحات تاريخ مصر المعاصر، وسوف نعجز تماما اذا حاولنا العثور على موقف واحد للوفد اعتدى فيه على حقوق الانسان المصرى، بل إنه فى كل الأوقات التى كان خصوم الوفد من أحزاب الأقلية والقصر الملكى يستخدمون فى محاربة الوفد كل الأسلحة غير المشروعة من سباب فى الصحف وافتراء وتشهير وتآمر على الحياة الدستورية فى البلاد، كان

الوفد يستفتى دائما الدستور، قبل أن يتخذ أية خطوة فى محاسبة هؤلاء الخصوم، ولم يمنع أبدا صوتا عن مهاجمته حتى لو كانت هذه المهاجمة قائمة على تضليل وافتراءات وأكاذيب، ولم يصادر صحيفة مهما اشتطت فى تجريحه وسبه!

ففى سنة ١٩٢٨ عندما أحرز مصطفى النحاس الفوز فى معركة قانون الاجتماعات مع الانجليز، انتهز القصر الفرصة لتدبير مؤامرة سيف الدين الشهيرة من أجل إقالة حكومة الوفد. وكان الأمير سيف الد ين قد اعتدى على الملك فؤاد حينما كان لا يزال أميرا فى ٧ مايو ١٨٩٨ بأن أطلق عليه الرصاص فى الكلوب الخديوى، وقد حكم على الأمير بالسجن سبع سنوات، ثم خففت إلى خمس، ثم وضع الأمير فى مصحة فى انجلترا على أساس أنه مختل الشعور، وبقى فى هذه المصحة سبعة وعشرين عاما لم يتمتع فيها بشىء من أملاكه الواسعة وأطيانه الكثيرة، التى كان يعبث فيها الملك فؤاد. ثم هرب الأمير من المصحة فى عام ١٩٢٧ بعد مغامرات، وسعى فى استرداد حقوقه فى ادارة أملاكه ورفع الحجر عليه. ولما كانت خصومته الأساسية مع الملك فؤاد، فقد لجأ إلى مصطفى النحاس وويصا واصف وجعفر فخرى بك، لاتخاذ الاجراءات القضائية لرفع الحجر عنه وإعادة جميع أملاكه اليه. وكان مصطفى النحاس فى المعارضة فى ذلك الحين.

وقد كان اختيار محامين من رجال الوفد مقصودا فى حد ذاته لمواجهة الملك فؤاد، الأمر الذى أكسب القضية بعدا سياسيا. وقد فهم الملك فؤاد هذا البعد وأدرك خطورته على مصالحه، وعول على الانتقام ولذلك فعلى الرغم من أن النحاس كان قد تنازل عن توكيله فى القضية بعد أن تولى رياسة الوزارة فى ١٧ مارس ١٩٢٨ بعد استقالة ثروت باشا من رياسة وزارة الائتلاف، الا أنه لم يمض فى الحكم أكثر من ثلاثة أشهر حتى كان

القصر يدبر مؤامرة سيف الدين، لتشويه الاتفاق الذى كان قد تم مع مصطفى النحاس على تولى الدفاع فى قضية رفع الحجر عن الأمير سيف الدين.

ولذلك فعلى الرغم من أن تاريخ الاتفاق على الدفاع كان فى فبراير ١٩٢٧، ولم يكن النحاس قد تولى بعد رياسة الوفد، وعلى الرغم من أن النحاس كان قد تنازل عن توكيله فى القضية عند توليه رياسة الوزارة، فان صحف القصر صدرت، فى أثناء تولى النحاس رياسة الوزارة، وعلى صدرها وثيقة محرفة للاتفاق على الأتعاب الذى عقده النحاس وزميليه، ووجهت إلى النحاس وهو رئيس الوزارة أقذر ما شهدته الصحافة المصرية من سباب حتى ذلك الحين، وقذفته بأقذع الاهانات، حتى إن جريدة الأخبار، وهى جريدة الحزب الوطنى المتواطئ مع القصر، كتبت تقول: «ألا إنه لشرف النعال، وإنها لكرامة الأوحال، وإنها لأمانة المحتال، وإنها لصيانة دستور الدجال، ألا تخشى أن يتلطف معك صاحب الجلالة ويسألك أين استقالتك؟ فبماذا تجيب أيها النتن القذر؟».

ومع ذلك لم يصادر مصطفى النحاس وهو رئيس الوزراء الجريدة التى ساقت هذه القاذورات، وانما ترك للقانون أن يأخذ مجراه! وقد كان فى يوم ٧ فبراير ١٩٥٩ حين أصدر مجلس تأديب المحامين حكمه ببراءة النحاس وويصا واصف وجعفر فخرى مما حاول القصر إلصاقه بهم من تهم استغلال النفوذ السياسى وغيرها مما يمس شرف مهنتهم، وزاد فوصف عملهم بأنه «عمل محمود لا يفهم كيف يكون محل مؤاخذه».

وقد كان إصرار مصطفى النحاس على تحكيم الدستور والقانون وهو فى الحكم فى معاملة المعارضة التى كانت تتآمر على الحياة الدستورية مع القصر، مما يثير ثائرة الكثيرين من رجال الوفد، الذين كان بعضهم يتوق إلى أن يحمى النحاس الدستور بوسائل أكثر فاعلية من اللجوء إلى المحاكم ورفع القضايا!

ففى عام ١٩٣٧ ، عندما كان القصر يدبر المؤامرات لهدم الحياة الدستورية واقالة حكومة الوفد، وكان رجال الوفد يعرفون أن الإقالة آتية لاريب فيها، مع ما سوف يعقب هذه الإقالة من نضال طويل قد يستغرق سنوات طوال لاعادة الحياة الدستورية! كتب الصحفى الوفدى الشهير محمد التابعى مقالا افتتاحيا شهيرا يقطر مرارة لتمسك النحاس بالدستور، يقول فيه:

«يحزُّ فى نفوسنا - نحن الوفديين - أن زعيمنا حاكم ضعيف! وأنه وضع الدستور عن يمينه، والقانون عن يساره، وعمامة ابن حنبل فوق رأسه، ثم أقسم على المصحف ليحترمن أحكام الدستور والقانون ولو شنقوه ؟

«قيد مصطفى النحاس باشا نفسه بنفسه، واختار أن يكون حاكما ضعيفا، فى وقت كان يحل فيه شئ من الاستبداد. والعاجز من لا يستبد!

«مصطفى النحاس، الدكتاتور الطاغية - كما يصفه المعارضون - كل عيبه عندنا، نحن أنصاره، أنه لا طاغية ولا دكتاتور ولا يحزنون - كل عيبه أنه، وهو يستند إلى أغلبية قل أن يفوز بها زعيم من قبله، قد اختار أن يترك أقلية قل أن يوجد مثلها فى هزالها وضعفها، تتحكم فيه، وأن تشغله بصخبها وصياحها وضجيجها عن الاهتمام بشئون الدولة. وهو - لو شاء ليستطيع أن يبطش بها ويمسحها من اللوح ويذرو ترابها للريح!

«ولكنه - مصطفى النحاس الطاغية! - ليستغفر ويحوقل، ويهز عمامة ابن حنبل، ويمديده الى الدستور والقانون ليرى حكم الدستور والقانون!

«وما أفلح حاكم، ولن يفلح حاكم يختار لنفسه هذه الطريق الضيقة!

«ليت مصطفى النحاس أدنى شيئا من بطش صدقى، أو «عنطزة» محمد محمود! ليته كان طاغية بحق وحقيق، اذن لاسترحنا واستراح البلد، بل لاستراح الدستور والقانون، واستقرت الأمور وانتظم الحكم ومشت أسباب الاصلاح فى هذا البلد.

«صحفى منا كان يحك قصبة أنفه لحر دستورى لافى العير ولا فى النفير، فكانت تقوم وزارة الداخلية، تقوم على قدم واحدة ولا تقعد. وكانت إدارة الأمن العام تقوم على قدم واحدة ولا تقعد، حتى تتعطل الصحيفة، وتصادر أعدادها، ويزج بالصحفى فى السجن تحت اذن المحقق بضعة أيام!

«وصحفى يقول اليوم لمصطفى النحاس إنه يتجر بالوطنية ، وإنه يهدر كرامة البلد، وإنه يبيع الوطن للانجليز، وإنه يشترك مع زملائه الوزراء فى نهب أموال المصريين - فيستشير مصطفى النحاس الدستور والقانون، وتتحرك النيابة بعد بضعة أيام، ويصدر الحكم بعد عام، وتقدم عن الحكم معارضة أو استئناف، هذا والصحفى وزملاؤه جادين فى اللطم واللطش وحملة التجريح!

«أو يستشير مصطفى النحاس نبى الرحمة والصفح عيسى بن مريم، ومن ثم يدير بعدها خده الأيسر بعد خده الايمن!

«ما هكذا الحكم يا زعيم الأغلبية، يادكتاتور!

«أحكم كما يحكم الحاكمون الأقوياء! أحكم، أو لتترك الحكم للأقوياء القادرين!

«ما ذنب هذا البلد الذى بايعك على الزعامة، وماذنب هذا الشعب الذى التف حواليك؟ وما ذنب الدستور الذى أريقت فى سبيله دماء زكية؟

«اغضب مرة لهذا الدستور الذى يبيّت له، ويدُس له، وينادى علنا من فوق منابر الصحف بأنه لاخير فيه!

«اغضب مرة لهذه الزعامة التى تقذف كل يوم بالوحول، وانس حكم الدستور وحكم القانون، وافرح قلوبنا ولو ساعة واحدة، وكن طاغية، واستبد، وأشهدهم كيف يكون حكم الطغاة، والافاليل لهذه الأمة يوم تتم

سلسلة الدسائس، وتختتم الحلقات، يوم يضيع الدستور، وتتحكم الأقلية فى الأغلبية، وتعود أنت الى البلد تطلب منه استئناف الجهاد، فيقول لك هذا البلد المتعب المنهوك: عنى يا من أضعت بضعفك ثمرات الجهاد!

«ولكن مصطفى النحاس لن يرضى بديلا عن الدستور والقانون وعمامة ابن حنبل!

«والسلام عليكم يوم نمسى ويوم نصبح، فاذا مصطفى النحاس قد أضاع الدستور، من فرط حرصه على الدستور!».

وقد تحققت نبوءة محمد التابعى، فقد سقط الدستور على يد ثورة يوليو، وتحكمت أقلية من ضباط الجيش فى الأغلبية، وفرضت دكتاتوريتها، وارتكبت أشد الهزائم العسكرية نكرا فى تاريخ مصر العسكرى. ومع ذلك فما زال أنصارها يروجون لها، ويرفعون أعلامها، ويضللون الجماهير المصرية بأمجاد وهمية، ويقومون بعملية غسيل مخ للشعب المصرى حتى ينسى ما ذاقه وعاناه فى عهد عبد الناصر، ويخرجون له الأفلام التى تقلب الهزائم الى انتصارات، والأكثر من ذلك والأغرب، أنهم أصبحوا من دعاة الحرية والديمقراطية وحقوق الانسان، وأصبحوا أكثر المتشدقين بحقوق الانسان!

ومن هنا حق الشعب فى أن يعرف تاريخه بعيداً عن التضليل والتلفيق، ويعرف قصة ثورة يوليو مع حقوق الانسان، حتى يكون لنفسه ما يراه من رأى، وأهم من ذلك بكثير حتى لا يدع لهذه التجربة الأليمة أن تتكرر فى مصر مرة أخرى وهى تدخل القرن الواحد والعشرين.

مبدأ ثورة يوليو الأوحد هو الحكم والسلطة !

الوفد فى ١٩٩٦/٨/٢٦

قبل أن نتحدث عن موقف ثورة يوليو من حقوق الانسان، نود أن نذكّر أولا بأن الثورة عندما أعلنت وجهها للشعب المصرى، أعلنته من زاوية حقوق الانسان! وبمعنى آخر من زاوية احترام الدستور الذى يحمى حقوق الانسان، ولم تكشف عن وجهها الا بعد أن استقرت قبضتها حول عنق الشعب المصرى!

فقد قالت فى أمرها اليومى الأول: إن حركة الجيش «ترمى الى احترام الدستور، وإعادة الحياة الدستورية السليمة، وإطلاق الحريات العامة التى طال حبسها عن الشعب، حتى يستطيع التعبير عن رأيه والاشتراك بحكم نفسه بنفسه».

على أنه قبل مضى ثلاثة أيام فقط على هذا البيان، الذى من المفروض فيه أنه يعد التزاما من الثورة بالدستور والديموقراطية لا تستطيع النزول عنه، ولم يكد الملك فاروق يدير ظهره لمصر فى طريقه إلى المنفى،

إرادة الشعب، وأخذت تقود السفينة دون أن يكون لديها أية خبرة مسبقة بقيادة السفينة.

والمهم هو أن هذه العصابة لم يكن يجمعها فكر أيديولوجى موحد، وانما كان يجمعها شئ واحد هو البقاء فى السلطة. فقد كان فيها من اليسار يوسف صديق وخالد محيى الدين، وكان هناك من اليمين عبد المنعم أمين الذى كان يقف الى جانب الفكر الرأسمالى الخالص، وكان عبد المنعم أمين هو رئيس المحكمة العسكرية التى عقدت فى كفر الدوار لمحاكمة مصطفى خميس ومحمد البقرى، وأصدرت قرارها باعدامهما. كما كان من الضباط الاسلاميين حسين الشافعى وكمال الدين حسين اللذين كانا يريان الحكم بالقرآن، وبأن خلاص مصر فى الدين.. وهكذا!

ولعل التاريخ لم يشهد ثورة منقسمة أيديولوجيا على هذا النحو، فقد كانت الثورة الروسية فى أكتوبر ١٩١٧ ملتزمة بالفكر الاشتراكى، وكانت الثورة الفرنسية ملتزمة بالفكر البورجوازى، وكانت ثورة ١٩١٩ فى مصر ملتزمة بالفكر الديموقراطى الليبرالى، وقد طبقت هذا الفكر كما تطبقه انجلترا والدول الليبرالية فى الغرب.

أما ثورة يوليو فقد كان مبدؤها الأوحد هو الحكم والسلطة! وفى سبيل ذلك اصطدمت باليمين واليسار على حد سواء وبدرجة متساوية، واذا كانت قد اختلفت نتائج هذا الصدام فلأن اليمين الاسلامى كان يمينا انقلابيا، بمعنى أنه يملك ميليشياته وكوادره المدربة المسلحة وتنظيماته العلنية والسرية، أما اليسار فكان تيارا فكريا أكثر منه حركة ثورية تحرك الجماهير البروليتارية، كما أن البروليتاريا المصرية كانت على الدوام متأثرة بالدين وكانت ممتنعة فى غالبيتها العظمى على الفكر الشيوعى.

ومن هنا، ففى حين اتخذ صدام الثورة مع اليمين الاسلامى شكلا عنيفا وصدامات واعتقالات ومحاولات اغتيال لضباط الثورة، اختتمت بمحاولة

اغتيال عبد الناصر في ميدان المنشية بالاسكندرية يوم ٢٦ أكتوبر ١٩٥٤ - فان الصدام مع اليسار المصرى كان صداما صامتا تمثل فقط في اعتقال القيادات اليسارية بسهولة والزج بهم في المعتقلات والسجون.

وهذا ينقلنا إلى قضية حقوق الانسان التى أصبح يتشدق بها الناصريون. فلم يكن اليسار يمثل في أى وقت تهديدا للثورة كما هو الحال بالنسبة للاخوان المسلمين، ولم يعمد أبدا الى القيام بأية حركة انقلابية ضدالثورة كما فعل الاخوان المسلمون في عامى ١٩٥٤ و ١٩٦٥، وإنما كانت معارضة اليسار تتخذ شكل التعبير عن الرأى فقط لا غير - أى التعبير عن الرأى المجرد من السلاح والذى لا تسنده أية قوة شعبية أو عسكرية أو أى وسيلة من وسائل القوة التى تشكل خطرا على الثورة.

ومع ذلك فقد اعتبرت الثورة أن مجرد التعبير عن هذا الرأى يمثل خطرا عليها! وأخذت تتعامل مع اليسار بوحشية، ونكلت بقياداته تنكيلا! وفيما يبدو أن اليسار أصيب بعدها بالسادية - أى حب التعذيب - لأنه اليوم هو الذى يقف دفاعا عن الثورة بعد أن غفر لها ما تقدم من ذنبها وما تأخر، ونسى الكثيرون منهم السياط التى ما تزال محفورة علاماتها فوق ظهورهم، والتى حرمت الكثيرين منهم من الظهور بملابس الاستحمام على الشواطئ!

وقد كان من الممكن أن تظل هذه الصفحة البشعة سرية فى طى الكتمان، لولا شجاعة البعض الذى كتب ذكرياته عن سجون ومعتقلات عبد الناصر، وروى كيف كانت تمتهن حقوق الانسان المصرى بينما كانت أبواق الثورة تتحدث عن الديموقراطية الاجتماعية والديموقراطية السياسية!

ونظرا لأن هذه الكتب اليوم قد نفدت من المكتبات، ولم يعد لها وجود، فاننا سنقدم عرضا لها نهديه الى دعاة حقوق الانسان من الناصريين، ليعرفوا أى نفاق يمارسون، وأى خداع وتضليل للشعب يقومون به عندما

يظهرون أنفسهم فى مظهر دعاة الحرية، وينسون أن أيديهم كانت مخضبة بدماء الضحايا فى عهد عبد الناصر دون أن يجرءوا على إثارة قضية حقوق الانسان!

وفى الوقت نفسه، فان اختيارنا لكتب اليسار إنما هو لافحام من ينتسبون الى اليسار من الناصريين، ولنسمع آراءهم فى مدى احترام ثورة يوليو لحقوق الانسان، ولنقضى على الخرافة التى روج لها الناصريون طويلا، وهى أن ثورة يوليو كانت ثورة تقدمية ! ولنثبت أنها كانت فى حقيقتها مجرد ثورة ناصرية لا تنتمى لفكر، وانما تنتقى من كل فكر ما يخدم بقاءها فى الحكم!

بل إنه عندما أصدرت الثورة قرارات التأميم، لم يكن هدفها تطبيق أى فكر اشتراكى، وإنما كان هدفها الأوحد تصفية الرأسمالية المصرية تصفية اقتصادية وسياسية، وافساح الفرصة لزحف العسكريين على الادارات المدنية لوسائل الانتاج، لمساندة نظام الحكم على المستوى المدنى.

وبالفعل، فقد حل العسكريون محل الرأسماليين فى ادارة الشركات التجارية والصناعية والمالية، دون أن تسبقهم أية خبرة فى هذا المجال، الأمر الذى عرض وسائل الانتاج لاختلالات كبيرة فى الانتاج، وأدى الى اضرابات عمالية عندما وجدت الطبقة العمالية نفسها تنتقل من يد الطبقة الرأسمالية الى يد طبقة عسكرية، وتتحول المصانع من مراكز انتاج مدنى إلى ثكنات عسكرية!

وعلى سبيل المثال لا الحصر، ففى مرفق مثل مرفق النقل العام، تعاقب على ادارته منذ التأميم كل من اللواء حسن شاكر. وكان المرفق وقتها يتبع محافظ القاهرة اليوزباشى صلاح دسوقى، ولكن عبد الناصر اكتشف فيما بعد أنه عميل أمريكى للمخابرات المركزية الأمريكية، ففصله، ولكن أمريكا عينته فى منصب كبير فى الأمم المتحدة رغم عدم موافقة مصر!

وقد أعقب اللواء حسن شاكر، بعد فترة قصيرة تولاها الدكتور البربرى، العميد جمال صدقى، ثم الفريق عبد العزيز الجمل بعد استيلاء الجيش على مرفق النقل العام. وفى عهد العميد جمال صدقى والفريق عبد العزيز الجمل أصبحت الادارة العليا والادارة المتوسطة فى يد الضباط ـ الأمر الذى يوضح أن التأميم كان أحد أسبابه الأساسية فتح الادارة المدنية للضباط! وخدمة الجيش الذى يستند اليه نظام عبد الناصر!

احتقار عبدالناصر للشيوعيين !

الوفد فى ٢/٩/١٩٩٦

فى مقالنا السابق ناقشنا الأسطورة الشائعة بأن ثورة يوليو ثورة تقدمية، وقلنا إنها كانت مجرد ثورة ناصرية لا تنتمى لأى فكر، وإنما تنتمى لنفسها ولخدمة بقائها فى الحكم، وتنتقى من كل فكر ما يخدم بقاءها فى الحكم.

وليس معنى ذلك أننا ننكر على ثورة يوليو أى انجاز قدمته فى مجال من المجالات، فهذا ضد طبيعة الأشياء، وانما معناه أنها فى انجازاتها جميعا كانت تستهدف غرضا وحيدا هو بقاؤها فى الحكم، ولا شأن لها بما إذا كان هذا الانجاز ينتمى إلى الفكر الاشتراكى أو ينتمى إلى الفكر الرأسمالى!

وقد قلنا إنه عندما أممت ثورة يوليو وسائل الانتاج فى يولية ١٩٦١ لم يكن عشقا فى الفكر الاشتراكى، أو انتماء له، وانما كان أحد أسبابه الرئيسية هو فتح مغانم الادارة المدنية للعسكريين، يغترفون منها ما يدعم نظام عبد الناصر، ويخدم ضباط الثورة وأقاربهم وأقارب أقاربهم! وبمعنى آخر كان

أحد هذه الأهداف الأساسية احتلال الادارة المدنية، ووضع وسائل الانتاج في يد الجيش. وقد ضربنا الأمثله على ذلك في مقالنا السابق.

وربما كان أكبر دليل على أن قرارات التأميم لم تكن بسبب انتماء فجائى للفكر الاشتراكى، هو أنه لم يشترك في صياغتها أحد من الاشتراكيين، وانما رتبها عبد الناصر مع كل من الدكتور عبد المنعم القيسونى وحسن عباس زكى، وكلاهما بعيد كل البعد عن الاشتراكية! بل إنه لم يستشر فيها اشتراكيا قديما احتفظ بعلاقته مع عبد الناصر، وهو أحمد فؤاد الذى أصبح رئيسا لمجلس إدارة بنك مصر.

وأهم من ذلك بكثير، هو أن قرارات التأميم صدرت في وقت كان عبد الناصر يضع الاشتراكين في السجون منذ أول فجر في عام ١٩٥٩، وينزل بهم أشد ألوان التعذيب - كما سوف نرى! ولقد شعر عبد الناصر بالتناقض في هذا الموقف، فأفرج عن بعض الاشتراكيين ذرا للرماد في العيون، مثل لطفى الخولى وسعيد خيال والدكتور لويس عوض، ولكنه لم يذهب إلى حد اطلاق سراح جميع الشيوعيين!

وقد توهم الشيوعيون في معتقلات عبد الناصر وقتذاك أنهم أمام ثورة اشتراكية كتلك التى قامت في روسيا في أكتوبر ١٩١٧، وسارعوا الى إرسال برقيات التأييد لعبد الناصر على خطوته الثورية التقدمية! ولم يدركوا أن مافعلته الثورة ليس له صلة بالثورة الروسية أو فكرها، وانما هو مجرد انتقال من رأسمالية الفرد الى رأسمالية الدولة، ونقل وسائل الانتاج من يد الرأسماليين الى يد ضباط الجيش!

والطريف، والمؤسف معا، أن الاشتراكيين مازالوا يتوهمون الى اليوم - سواء في حزب التجمع أو في الحزب الناصرى - أن ما حدث في يولية ١٩١٦ كان اشتراكية! وهم يصفون بالرجعية كل من يوجه نقدا لثورة يوليو، على الرغم من أنهم يعرفون جيدا أن المستفيد الأكبر من تأميم

وسائل الانتاج كان ضباط الجيش ومن يلوذ بهم، وأن هؤلاء الضباط، وليس الطبقة العاملة، كانوا هم الورثة الحقيقيين لوسائل الانتاج!

فقد فتح التاميم أمام ضباط الجيش بابا واسعا للتعيين والترقية لم يكونوا يحلمون به، ونظرا لا فتقارهم الى الخبرة أصلا بادارة وسائل الانتاج المدنية، فقد كان فى وسعهم أن يخطئوا ويسيئوا إدارة ما بأيديهم من المصانع والشركات والبنوك دون أن يخشوا مساءلة أو نقدا فى غياب صحافة حرة تراقب وتنقد، بل فى وجود حماية مطلقة من جانب الثورة لتلك الأخطاء! فلقد كانت أقصى عقوبة توقع على الفاشل منهم هو نقله إلى رئاسة مجلس ادارة مؤسسة أخرى! وقد تحول هؤلاء جميعا الى اشتراكيين بحكم الصنعة، دون أن يعرفوا معنى الكلمة!

والغريب أن هذا التأييد اليسارى المطلق لثورة يوليو، والذى استمرالى اليوم باعتبارها ثورة تقدمية، لم يخفف منه احتقار عبد الناصر للشيوعيين وتجاهله لهم، ودأبه المتواصل على تشويه نضالهم وماضيهم، حتى بعد التأميم الذى أسماه الشيوعيون ثورة اشتراكية!

ففى جلسة ٢٩ نوفمبر ١٩٦١، وفى أثناء عقد اجتماعات اللجنة التحضيرية للمؤتمر الوطنى، اتهم عبد الناصر الشيوعيين فى الحزب الشيوعى المصرى بأنهم عملاء، وأنهم يأخذون تعليماتهم من رياستهم الموجودة فى صوفيا، وأنهم من قبل كانوا يأخذون تعليماتهم من روما، وقبلها كانوا يأخذون تعليماتهم من فرنسا، وإيان الحرب كانوا يأخذون تعليماتهم من انجلترا، «وأنا أعرف كثيرا منهم، وهذا كلام صريح وواضح ومعروف، وطالما أن شخصا يأخذ تعليماته من الخارج، لا يمكن أن يعتبر وطنيا بأى حال من الأحوال!».

ولهذا السبب فانه عندما أراد عبد الناصر تغيير لافتة الاتحاد القومى لتصبح الاتحاد الاشتراكى، بعد انفصال سوريا عن مصر، شكل لجنة

تحضيرية للمؤتمر الوطنى للقوى الشعبية من ٢٦٠ عضوا، لم يعين فيها شيوعيا واحدا! وعندما فتح باب الدخول الى الاتحاد الاشتراكى فى أول يناير ١٩٦٣، حرص على استبعاد الشيوعين مع كل أفراد القوى السياسية القديمة!

والطريف أنه حين عين عبد الناصر أمينا عاما للاتحاد الاشتراكى لم يعين اشتراكيا، وانما عين حسين الشافعى الذى لم يعرف عنه فى يوم ميلا للاشتراكية، بل كان - كما وصفه لى خالد محيى الدين - يرى الحكم بالقرآن وبأن خلاص مصر فى الدين. كذلك لم يعرف عن أحد من أعضاء الأمانة العامة للاتحاد الاشتراكى اهتماما بالمبادئ الاشتراكية، غير كمال الدين رفعت. وكان الاتحاد الاشتراكى الذى هو تنظيم شعبى، أشبه بثكنة عسكرية، اذ كان يسيطر عليه الضباط، وكانت نسبة الضباط فى تشكيل الأمانة العامة الى الأعضاء المدنيين ١٩ إلى ٣ ! ومعنى ذلك أن الأعضاء المدنيين كانوا بمثابة ديكور لتخفيف الصبغة العسكرية الفاقعة.

والمهم هو ما ترتب على التأميم من نتائج فادحة على العملية الانتاجية، اضطرت نظامنا السياسى الحالى الى خصخصة القطاع العام بعد ٣٥ عاما!

فلقد كان كل ما حققته اشتراكية عبد الناصر هو أنها قضت على طبقة منتجة، هى الطبقة الرأسمالية بأجنحتها الصناعية والتجارية والمالية والزراعية، وهى التى كانت تحمي وتصون وسائل الانتاج التى تملكها، وأحلت محلها طبقة عسكرية طفيلية تثرى على حساب العملية الانتاجية، ولا تشعر بأى انتماء لوسائل الانتاج، وانما تدين بانتمائها لمراكز القوى التى عينتها فى مناصبها، والتى كانت تحميها من المحاسبة الشعبية.

ولم يكن الا بعد انقضاء عصر عبد الناصر عندما أخذت العناصر المدنية تحل تدريجيا محل العناصر العسكرية. فلم يكن السادات يخشى الجيش كما كان يخشاه عبد الناصر، وكان المشير عامر قد اغتيل، وبدأت وسائل الانتاج تتخلص تدريجيا من سيطرة ضباط ثورة يوليو.

وفى كل هذه الرحلة الطويلة كانت ثورة يوليو تدوس حقوق الانسان المصرى بقدميها - وبمعنى آخر بأقدام الناصريين الحاليين الذين يتشدقون بحقوق الانسان ويضللون باسم حقوق الانسان!

فعندما أرادت القوى الوطنية والتقدمية التخلص من حكم الجيش فى أزمة مارس ١٩٥٤، وكانت تتكون من حزب الوفد الليبرالى، والشيوعيين بتنظيماتهم المختلفة، وحزب أحمد حسين الاشتراكى، فضلا عن الاخوان المسلمين، دبر الصف الثانى من الضباط حركة اضرابات للعمال تطالب ببقاء الثورة، وفى ظل هذه الاضرابات انقضت الثورة على القوى الوطنية والتقدمية بالاعتقال، بينما كانت تسخر دار الاذاعة المصرية لاذاعة قرارات النقابات بالاضراب، من قبل أن تتخذ هذه النقابات هذه القرارات بالفعل! بينما كان مجدى حسنين يحرك عمال مديرية التحرير، التى كان يديرها، الى القاهرة، ويعد البكباشى أحمد أنور مدير البوليس الحربى ومساعده حسين عرفة مظاهرة الى مجلس الدولة لتأديب الدكتور السنهورى رئيس مجلس الدولة! وعندما طلب السنهورى النجدة من أمن الجيزة، اقتحمت مظاهرة، مكونة من جنود البوليس الحربى المتخفين فى الملابس المدنية، الأبواب، واندفعت الى السنهورى وأعضاء الجمعية العمومية لمجلس الدولة، وأوسعوهم ضربا، ونقل السنهورى إلى المستشفى!

ويعلق أحمد حمروش على هذه الواقعة بقوله: «كان الاعتداء على مجلس الدولة والدكتور عبد الرزاق السنهورى نهاية لقدسية القضاء، واطلاقا لقوى العنف».

وسرعان ما وجهت الثورة ضربة قاصمة لحقوق الانسان عندما حرمت من الحقوق السياسية جميع وزراء العهد القديم، واستدارت إلى الصحافة، فاعتقلت وشردت عشرات الكتاب والصحفيين الشرفاء وقادة الفكر، وأصدر مجلس قيادة الثورة فى ٥ أبريل ١٩٥٤ قرارا بما أسماه تطهير الصحافة!

وقام بحل نقابة الصحفيين بدعوى أن سبعة من أعضاء المجلس البالغ عددهم اثنى عشر قد تقاضوا مصروفات سرية! وكان هؤلاء الأعضاء هم الذين تصدوا لدكتاتورية الثورة وطالبوا بعودة الجيش إلى ثكناته

كذلك استدارت الثورة الى الجامعة «لضمان انتظام الدراسة فيها»! وقامت بفصل نحو خمسين أستاذا جامعيا، وفرضت أحد الضباط أمينا عاما للجامعة! فقضت بذلك على استقلال الجامعة وحرية الفكر والبحث العلمى، وتحولت الجامعة الى ادارة من إدارات الدولة! ولكى تحكم رقابتها وسيطرتها على الجامعة عينت ضابطا من ضباط الثورة وزيرا للمعارف، وهو السيد كمال الدين حسين لمدة أربع سنوات كاملة من أول سبتمبر ١٩٥٤ إلى ٦ أكتوبر ١٩٥٨ . وأصبحت جميع مدارس الجمهورية فى مراحلها التعليمية المختلفة تحت سيطرة الثورة، وصار على مدرسى مصر أن يلهجوا بذكر الثورة ومناقبها كل صباح حتى لا يفقدوا وظائفهم!

ولضرب الوفد، أغلقت الثورة جريدة المصرى، وحاكمت السيدة زينب الوكيل، وحكم على حسين أبو الفتح بالسجن ١٥ سنة مع ايقاف التنفيذ، وعلى محمود أبو الفتح بالسجن عشر سنوات، وحكم على أبو الخير نجيب بالسجن ١٥ سنة «أشغال شاقة»! مع تجريده من شرف المواطن!

وهذا الحكم الأخير نهديه للناصريين الذين كانوا أشد المتحمسين ضد قانون الصحافة، وضد حبس الصحفيين حبسا احتياطيا، فى حين كانوا يحكمون على الصحفيين «بالأشغال الشاقة»! وكان أولى بهم أن يدعوا النضال ضد قانون ٩٢ للأحرار من الصحفين الذين كرسوا حياتهم للدفاع عن حرية الصحافة بدلا من انتحال شرف لم يرشحهم له تاريخهم فى العدوان على الصحافة والصحفيين!

فعندما دافع المرحوم جلال السيد الصحفى بالجمهورية عن قضية المعلمين، فصل من وظيفته من الجريدة، وحرم من مرتبه، وأمضى شهورا

طويلة فى الشتات! مع أنه كان - وظل - من أشد أنصار ثورة يوليو حتى آخر رمق! وهو ما يوضح ما قلناه من أن الثورة لم تكن تنتمى لأى فكر إلا ما يحقق ويضمن بقاءها فى الحكم.

وفى ٣١ مايو ١٩٥٥ كانت الثورة تعتقل ٢٥٢ شيوعيا، وصدرت الأحكام على كل من محمد شطا والدكتور شريف حتاتة، وحليم طوسون «بالأشغال الشاقة» عشر سنوات. وعلى زكى مراد المحامى، ومحمد خليل قاسم بثمانى سنوات أشغال شاقة، وبالسجن خمس سنوات على أحمد طه، ومحسن محمد حسن، وسعد كامل وزوجته، وزوجة الشاعر كمال عبد الحليم. وحكم بالسجن ثلاث سنوات على ابراهيم حسين، وسيد البكار (وهما وفديان) وبالسجن سنتين على بكر سيف النصر (وهو وفدى أيضا). كما حكم على اليوزباشى مصطفى كمال صدقى بخمس سنوات.

وكان اعتقال خصوم الثورة يصحبه عادة الضرب والتعذيب! وهى العادة التى انتقلت من الجيش، حيث كان الضرب أسلوبا متداولا فيه يهين به الضباط كرامة الجنود رغم أنه ممنوع قانونا! وقد عامل ضباط الثورة الكتاب والمفكرين والصحفيين والسياسيين معاملة الجنود الصغار! وقد بدأ الأمر عندما اعتقلت الثورة أحمد حسين رئيس مصر الفتاة والصحفى أبو الخير نجيب. فقد ظل الضباط يضربونهما حتى الصباح! وقد كان هذا الضرب فى المرحلة الأولى عملاهينا، قبل أن تطور الثورة أساليبها وتكون كوادر من زبانية التعذيب الذين ظلوا يؤدبون مفكرى مصر وكتابها وسياسييها طوال عهد الثورة المجيد وحتى وفاة عبد الناصر رحمه الله!

قصة عبدالناصر ومحمد نجيب!

الوفد في ٩/٩/١٩٩٦

أود أن أقول في بداية هذا المقال عن «ثورة يوليو وحقوق الانسان» أن هدفي من هذه السلسلة من المقالات هو اعادة التوازن التاريخي في تقييم ثورة يوليو، الذي اختل بالحملة الاعلامية الغريبة التي برزت هذا العام، وأعادت ذكرى العهد الناصري، وأظهرت ثورة يوليو في صورة الإنجازات الضخمة، وأخفت السلبيات الضخمة، بما يؤثر سلبيا على الصورة الشاملة للثورة، والتي يجب أن تستند الى الموضوعية وحدها، ولا تتأثر بأية دعاية مغرضة كان لها ما يبررها في نظر أصحابها في عصر عبد الناصر، ولم يعد لها أي مبرر في عهد الرئيس مبارك الذي يمثل وحدة تاريخية قائمة بذاتها، بعيدة كل البعد فكريا وعمليا عن ثورة يوليو.

كذلك فان المقصود بهذه المقالات الرد على التضليل الذي يمارسه الناصريون في الحياة السياسية المصرية وإظهار أنفسهم في صورة أنصار الديموقراطية ودعاتها، وأكبر المدافعين عن حرية الصحافة والديموقراطية وحقوق الانسان! حتى لا ينعكس تأثير هذه الصورة المضللة على ثورة

يوليو، فيتصور شبابنا الجديد أن ما يقوم به الناصريون من دور هو استمرار لدورهم فى عهد عبد الناصر! مع ما يعرفه الذى عاشوا ثورة يوليو ودارسو التاريخ من تناقض هذه الصورة تماما مع صورة ثورة يوليو الحقيقية، التى خلت تماما من حرية الصحافة والديموقراطية وحقوق الانسان، وحفلت بألوان القهر وإهدار كرامة الانسان المعارض، حتى لو كان هذا الانسان المعارض من ضباط الثورة!

لقد كانت دولة عبد الناصر هى دولة المخابرات، وكان تعاملها مع معارضيها السياسيين تعاملا فاشيا بحتا لا يفترق كثيرا عن تعامل النازيين مع خصومهم. وهذا الكلام ليس كلامى وانما هو كلام التقدميين الحقيقيين واليساريين الذين خاضوا تجربة ثورة يوليو، والتى نسوها للأسف الشديد وأصبحوا من حواريى ثورة يوليو، وبعضهم أصبح عضوا فى الحزب الناصرى ناسيا تجربة السجن والاعتقال والتعذيب، وكلهم أصبحوا على رأس جمعيات حقوق الانسان فى مصر تضليلا!

وربما كانت تجربة اللواء محمد نجيب مع ثورة يوليو مؤشرا جيدا على مدى احترامها لحقوق الانسان. وسوف نتجاوز هنا عن الخلافات التى دارت حول دور محمد نجيب فى ثورة يوليو، ولكن هناك حقيقة خالدة لا تقبل أى نقض، وهى أنه بدون محمد نجيب فان ثورة يوليو كان مقدرا لها الفشل منذ اللحظات الأولى، فلم يكن لواءات الجيش المصرى وقتذاك ليقبلوا بتزعم بكباشى وعدد من ضباط الجيش الصغار ثورة تخلعهم من مكانتهم، وانما كانوا يقمعونها على الفور، ولكن وجود ضابط منهم برتبة لواء مثل محمد نجيب فاز برئاسة مجلس ادارة نادى الضباط قبل نصف عام، كان له تأثيره فى تقبل الشعب والجيش للثورة ونجاحها.

كذلك سوف نتجاوز عن الخلافات التي ثارت بين محمد نجيب وضباط الثورة حول عودة الجيش الى ثكناته وقضية الديموقراطية، ولكنا سوف

نتعرض فقط لمعاملة الثورة لهذا الرجل الذى تدين له بنجاحها، والذى تقبل بشجاعة مسئولية تصدر قائمة الثوار ،وتحمل المخاطرة بفشل الثورة ومحاكمته وإعدامه.

فلقد كان فى وسع عبد الناصر أن يعامل محمد نجيب كما عامل الرئيس التونسى زين الدين بن على الرئيس السابق الحبيب بورقيبة عندما قام بانقلاب عليه، ولكنه أهانه ونكل به تنكيلا على الرغم من أن اللواء محمد نجيب لم يكن يمثل خطرا على نظام عبد الناصر فى أية صورة من الصور!

فقد صادر أوراقه وكتبه وتحفه وتذكاراته ونياشينه وقلاداته وسيوفه ونقوده وكل شئ يخصه، وحذف اسمه من كتب التاريخ والمطالعة التى زورت التاريخ وعلمت التلاميذ أن جمال عبد الناصر كان أول رئيس جمهورية مصر! وحدد اقامته فى فيلا زينب الوكيل التى صادرتها الثورة، لمدة ٢٩ عاما، وأهين وضرب.

وفى ذلك يقول محمد نجيب فى مذكراته: «لست أدرى ماذا فعلت ليفعلوا بى كل هذا؟ إننى يوم ودعت الملك، الذى انتهك الحرمات، وأحل الفساد محل النقاء، وجلب الخراب والهزيمة على البلاد، كنت حريصا على وداعه وداعا رسميا، مشمولا بكل مظاهر التكريم والرعاية والاحترام! وسمحت له بأن يأخذ أشياءه الخاصة والشخصية، وتركت السفراء والوزراء والحاشية يود عونه، وأمرت أن تطلق المدفعية ٢١ طلقة، وأن تعزف الموسيقى نوبة مساء والعلم ينزل من على السارية، ليحتفظ به الملك ـ حافظت على الأصول والتقاليد، ولكن لم يحافظ عبد الناصر لا على الأصول ولا على التقاليد... تعاملوا معى كأننى لص أو مجرم أو شريز، لم يحترموا سنى ولا رتبتى ولا مركزى ولا دورى، وألقوا بى فى النهاية فى أيد لا ترحم، وقلوب لا تحس، وبشر تتعفف الحيوانات عن الانتساب اليهم»!

ثم يقول اللواء محمد نجيب: إننى لا أكتب عن قضية خاصة، وانما أكتب عن أسلوب الثورة فى التعامل مع رجالها، وفى التعامل مع الناس الآخرين،و أكتب عن قضية ضرب الحريات، وإهدار الحقوق، وتحطيم كرامة الإنسان المصرى. لقد قلبت الثورة كل معايير التعامل مع البشر، فالذين قاموا بها طحنتهم، والذين نافقوها رفعتهم!».

«لقد شطبوا إسمى من التاريخ، وزوروا التاريخ. ولم أكن على كل حال أول من فعلوا به ذلك، فقد سبقنى على الأقل سعد زغلول، الذى وصفوه بأنه قفز على ثورة ١٩١٩، وأنه نصب نفسه عليها دون وجه حق! وفعلوا نفس الشيء بمصطفى النحاس، الذى عندما مات قبضوا على من مشى فى جنازته، وظل محرما على المصريين أن يذكروه أو يتحدثوا عنه.

ثم يروى أول رئيس لجمهورية مصر كيف نكلت ثورة يوليو بأولاده، فقد قبضت على ابنه فاروق، ودخل ليمان طره، وبقى هناك خمسة شهور ونصف، خرج بعدها محطما ومنهارا ومريضا بالقلب، وبعد فترة مات! وفى ألمانيا قتلت مخابرات الثورة ابنه الآخر على بسبب نشاطه السياسى، فقد جرت وراءه سيارة جيب حشرته بينها وبين الحائط ونزل ثلاثة رجال أخذوا يضربونه حتى خارت قواه ونزف حتى الموت! وأما ابنه الثالث يوسف الذى تخرج من معهد العلوم السياسية، واشتغل فى إحدى شركات الدولة، فقد فصل، ولم يجد من عمل أمامه الا العمل كسائق تاكسى!

ومع ذلك ظل عبد الناصر يخشى محمد نجيب، وبلغ الخوف منه ذروته عندما وقعت هزيمة يونيو ١٩٦٧ وخشى أن ينقلب الشعب عليه بسبب تلك الهزيمة المخزية، وتطالب بعودة محمد نجيب. يقول محمد نجيب إنه نقل إلى نجع حمادى، وبعد ٤٨ ساعة قضاها فى الاستراحة فوجئ بحضور ضابطين من ضباط البوليس الحربى، هما جمال القاضى ومحمد عبد

الرحمن نصير، جاءا لينقلاه إلى مكان آخر. وعندما سألهما عن هذا المكان، ،كان الرد بشعا، أعتذر عن ذكره، وأشعر بالقىء كلما تذكرته! كان الجواب سيلا من الشتائم حاولت وقفه بصرخة احتجاج، فاذا بضابط منهما يدفع يده فى صدرى ويلكزنى فيه، ودارت بى الدنيا، وهانت على الحياة،.

،وساعتها أدركت ماذا فعلت حركة يوليو فى مصر: كيف أزالت الاحترام بدلا من ازالة الفوارق بين الطبقات! وكيف أطاحت بالكرامة فى الوقت الذى كانت تقول فيه: ،ارفع رأسك يا أخى!،. أى تغيير وقع فى مصر؟ أى انهيار حدث فى تقاليد الجيش؟ كيف تتجرأ رتبة صغيرة على سب رتبة أكبر منها وضربها؟ وقد بقيت هناك فى إحدى الغرف ٥٩ يوما كاملا، فى حجرة رطبة، لا تدخلها الشمس. وعند النوم أنام ومعى حراسة مشددة داخل الحجرة! وعرفت أن اقامتى كانت سرية حتى على رجال وزارة الداخلية!،.

هذه سطور مما كتبه أول رئيس جمهورية لمصر، ولعلها أنموذج واضح عن مدى احترام ثورة يوليو لحقوق الانسان، نهديها للناصريين ولأصحاب الحملة الدعائية التى تصور ثورة يوليو فى صورة الثورة التحررية الكبرى التى حررت الانسان المصرى وحررت الفكر المصرى!

فى ذلك الحين كانت ثورة يوليو تتحول الى دولة مخابرات ومعتقلات! وكانت هذه المعتقلات لا تخلو على الدوام من نزلاء تتغير ألوانهم السياسية، وكان الاعتقال بلا تحقيق أمرا اداريا بسيطا كاد من تكراره لبعض الشخصيات أن يصبح من روتين حياتهم! - كما يقول الأستاذ أحمد حمروش.

أما أجهزة الأمن فكانت تنمو وتزدهر، وكان أول من تولى مسئوليتها زكريا محيى الدين، الذى أطلق عليه اسم ،بيريا، رئيس جهاز المخابرات الروسى الشهير الذ ى كان اسمه يبعث الرعب فى القلوب، ويقول أحمد

حمروش إن الأمريكيين سارعوا منذ اللحظة الأولى الى تقديم خبرتهم لتنظيم المخابرات، بعد أن كانت فى عهد الملك فاروق محدودة الأثر ومحصورة فى البوليس السياسى!

ففى عهد فاروق لم يكن هناك جهاز أمن يعرف باسم المخابرات العامة، وكان عدد ضباط المخابرات الحربية فى الجيش ١٥ ضابطا فقط، وعدد ضباط القسم المخصوص بالبوليس السياسى ٢٤ ضابطا. ولكن لم يكد زكريا محيى الدين يتولى مسئولية المخابرات حتى استعان بعدد من الخبراء الألمان الى جانب تقارير المخابرات الأمريكية التى تقترح توحيد أجهزة الأمن. وقد أعد زكريا محيى الدين مشروعا لتوحيد كافة المخابرات فى إدارة واحدة لسهولة الهيمنة عليها. وكان زكريا محيى الدين هو المشرف على كافة أجهزة الأمن القائمة فى ذلك الوقت، وهى: المخابرات العامة، ومخابرات الجيش، والمباحث العامة بالداخلية.

كان النموذج الأمريكى هو المثال الذى تهتدى به أجهزة المباحث والمخابرات فى ذلك الوقت! وقد أنشىء لهذا الغرض المعهد الاستراتيجى بجوار برج القاهرة، وكانت تدرس فيه محاضرات المخابرات الأمريكية المركزية لضباط المخابرات والمباحث وضباط أمن الوزارات. وكان بعض ضباط المخابرات المصرية عملاء للمخابرات الأمريكية!

والغريب أن جمال عبد الناصر، على الرغم من إحاطته نفسه بهذه الأجهزة من المخابرات، لم يكن يطمئن إليها والى اخلاصها للثورة، ويشك فى وجود صلة بين بعض ضباطها وأجهزة المخابرات الأجنبية. وقد دفعته هذه الشكوك إلى الموافقة على تعدد الأجهزة والمخابرات بقيادات مختلفة، بحيث تصب كافة معلوماتها عنده وحده. بل إنه أنشأ فى مكتبه جهازا

خاصا للمخابرات والعمليات والاتصالات كان يشرف عليه سامى شرف سكرتيره الخاص، وهو منقطع الصلة بأى جهاز آخر من أجهزة الأمن، الأمر الذى خلق ازدواجية متكررة، وكبد الدولة تكاليف باهظة.

وبمرور الوقت، كما يقول أحمد حمروش، «نمت هذه الأجهزة، واتسع نفوذها بفكرها الجامد المتخلف ووسائلها الوحشية وأطماعها الذاتية»!

قصة إسماعيل المهدوى

الوفد فى ١٦/٩/١٩٩٦

فى رأيى أن فضح موقف ثورة يوليو من قضية حقوق الانسان هو أمر مهم جدا، وذلك للتصدى للتضليل الذى يقوم به الناصريون ويحاولون به إيهام الرأى العام المصرى بأنهم حماة حقوق الانسان، وتصدرهم الصفوف الأولى فيها، وعقدهم المؤتمرات فى مصر وفى الخارج، وإصدارهم النشرات والمطبوعات التى يفبركون فيها ما يشاءون من أخبار!

إن هذا التضليل اذا أضيف الى ما يجرى فى هذه الأيام من حملة دعائية لصالح ثورة يوليو، يقف على قمتها فيلم «ناصر ٥٦» الذى يقول نصف الحقيقة فى قرار تأميم شركة قناة السويس، على طريقة إخفاء نصف الآية الكريمة من كتاب الله: «ياأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى»!ـ معناه تزوير تاريخ مصر فى الماضى والحاضر، وتبرئة من ولغت أيديهم فى دماء الناس وأعراضهم وأموالهم وأملاكهم، وإظهارهم فى صورة دعاة الحرية وأبطالها!

ولقد عرضنا فى مقالاتنا الماضية جانبا من قصة هذه الثور
الانسان، وكيف تجاهلتها منذ اليوم التالى مباشرة لقيامه
بالاعتداء عليها طوال وجودها فى الحكم، وأخفت ذلك كله تحت
من وسائل إعلام الثورة تفصل ما بين الحرية السياسية والا
وتزعم أن الحرية الاجتماعية يمكن أن تكون بديلا للحرية السي
طريق هذا الزعم انقضت على الجميع - أى على اليسار واليم
بهم فى غياهب السجون، وتوسعهم ضربا وتعذيبا، بحجة أنه يك
الاجتماعية التى تحققت بتأميم وسائل الانتاج فى يوليو ١٩٦١

ولم يكن هدف التأميم - كما ذكرنا - توفير الحرية الاجتماعية
الهدف ضرب الطبقة الرأسمالية التجارية والصناعية والمالي
قوتها الاقتصادية التى تهدد حكم عبدالناصر، وفتح مجا
لجحافل ضباط الجيش من أقارب ضباط الثورة وأقارب أقاربهم
ومعارفهم، وتكوين بيروقراطية عسكرية موالية للثورة، تأتم
وتضع موارد وسائل الانتاج الهائلة تحت تصرف قيادتها.

وهو ما تم بالفعل! ففى الفترة من ١٩٦١ الى ١٩٦٧، كانت
القطاع العام فى خدمة المغامرة العسكرية التى تمت فى يو
وتمخضت عن ترك ما تبلغ قيمته مليارات الجنيهات من الا
رمال سيناء دون استخدام! حتى لقد أثار هذا الفشل الزعيم
كوسيجن فقال مؤنبا: «لو أطلق كل مدفع من المدافع التى تركت
طلقة واحدة ضد اسرائيل لخفف ذلك من ثقل الهزيمة!».

وفى الفترة من ١٩٦٧ كانت كل موارد القطاع العام فى خد
الحربى الذى أريق فى حرب الاستنزاف، التى قصد بها ش
المصرى بالمعركة على الحدود، بعد أن هددت مظاهرات فى

التى قامت على أثر أحكام الطيران، الثورة بأوخم العواقب، اذ كانت أول مظاهرات تقوم منذ أحداث أزمة مارس ١٩٥٤ .

حتى اذا ما وصلت البلاد إلى عشية حرب أكتوبر ١٩٧٣، كان الاقتصاد المصرى قد انهار تماما، وتدمرت البنية التحتية والمرافق جميعها، وتراجعت مصر إلى الوراء أكثر من نصف قرن!

وهكذا كانت ذريعة الحرية الاجتماعية، التى بررت بها الثورة التأميم، كارثة على الحرية السياسية وعلى حقوق الانسان وعلى مرافق البلاد واقتصادها، واتخذت أداة لضرب القوى التقدمية وإخضاعها بحجة أن الثورة قامت بالثورة الاشتراكية نيابة عن هذه القوى ولم يعد ثم مبرر لوجودها!

ففى ذروة ادعاءات ثورة يوليو بأنها ثورة اشتراكية، كان الاشتراكيون يلقون على يديها الذل والهوان والسجن اذا أبدوا الاستقلالية والتمرد وكشفوا زيف الشعار الاشتراكى للثورة!

وربما كانت قصة اسماعيل المهدوى أنموذجا نهديه لجماعات حقوق الانسان الناصرية وقياداتها الحالية، لأنه يكشف تورطها فى انتهاكات حقوق الانسان، ويفضح أسماء من تصدروا هذه الجماعات، ويكشف تاريخهم المخضب بدماء هذه الحقوق. كما نهديه لحزب التجمع اليسارى الذى يزايد على الناصريين!

واسماعيل المهدوى صحفى مصرى كان يعمل فى صحيفة المساء منذ ١٩٥٦، فلما قام عبد الناصر بحملته الهتلرية منذ يناير عام ١٩٥٩ على الشيوعيين واعتقلهم جميعا، كان إسماعيل المهدوى من بين المعتقلين، ونزل ضيفا على معتقل الواحات مع المعتقلين الآخرين!

وعندما أفرج عنه فى يونية ١٩٦٤ ـ أى بعد أن ظل لمدة خمس سنوات معتقلا ـ أعيد مع غيره من محررى جريدة المساء إلى صحيفة الجمهورية، واستمر عمله فيها الى عام ١٩٦٧، حيث نقل الى جريدة المساء مرة أخرى وظل بها إلى فبراير ١٩٦٨ .

على أن طول لسانه وانتقاده للنظام الناصرى عرضه للفصل فى أغسطس ١٩٦٨! ولم تكتف إدارة عبد الناصر بذلك، بل لفقت له التهمة الشائعة فى دوائر المخابرات فى ذلك العصر، وهى تهمة التخابر مع الولايات المتحدة! ففى أبريل ١٩٧٠ أبلغت ادارة المباحث العامة أنه التقى بصحفية أمريكية تدعى مارجريت بالاس، وسلمها بعض مخطوطاته بالعربية والانجليزية التى طعن فيها على نظام حكم عبد الناصر، وفيها عبارات ماسة بعبد الناصر شخصيا، طالبا منها العمل على نشرها بالخارج، ولكن الصحفية الأمريكية أبلغت عن ذلك وسلمت المخطوطات آنفة الذكر للمباحث العامة (هكذا!).

كانت الخطة هى إدخال اسماعيل المهدوى مستشفى المجاذيب! فقد أوردت نيابة أمن الدولة أنه عندما دعى لابداء أقواله، «أخذ فى ترديد بعض العبارات غير المترابطة! مما دعا إلى فحص حالته العقلية. فأحيل إلى مستشفى الأمراض العقلية والنفسية لبيان مدى مسئوليته عما وقع منه. وجاء تقرير المستشفى الطبى بأنه مصاب بعاهة فى العقل تجعله غير مسئول عما وقع منه! وبناء على ذلك قررت النيابة امتناع المسئولية الجنائية عنه، وحجزه فى أحد المحال المعدة للأمراض العقلية إلى أن تأمر باخلاء سبيله!

على هذا النحو اتفق مصير اسماعيل المهدوى مع مصير غيره من المفكرين والكتاب والمثقفين المصريين الذين عارضوا نظام عبد الناصر،

مع فارق كبير، هو أن الآخرين كانوا فى معتقلات عقلاء أصحاء، أما اسماعيل المهدوى فكان فى معتقلات مجانين!

وقد تصور اسماعيل المهدوى أن محنته الرهيبة سوف تنتهى عما قليل، ولكنه استمر معتقلا فى مستشفى المجانين على مدى سبعة عشر سنة كاملة وثلاثة أشهر! وقد قضاها منكبا على كتابة شكاوى وتظلمات كان ينسخ منها العشرات والمئات ليرسلها إلى الكتاب والمفكرين فى العالم الخارجى، يشرح فيها محنته الرهيبة، ويطلب العون، ويبين ما يتعرض له فى مستشفى المجاذيب من ضرب واهانات وتهديدات، ويستصرخ الضمائر الحية.

وقد وصلنى شخصيا من هذه الخطابات الكثير، ولكنى لم أستطيع أن أفعل له شيئا وهو بين تلك القوى الباطشة، وقد ذكر أنه نسخ من نص ايداعه فى مستشفى المجانين ١٥٠ منسوخا! أرسلها إلى مختلف الجهات، ومنها الى الأستاذ أحمد شنن نقيب فرع القاهرة للمحامين و٩٠ منسوخا من خطابه الى السيد فتحى رضوان، و١٤٠ منسوخا الى الكاتب الكبير المرحوم صلاح حافظ.

وقد نجحت الجهود أخيرا فى اطلاق سراحه بعد سبعة عشر عاما. ففى مارس ١٩٨٧ أصدر النائب العام السيد محمد عبد العزيز الجندى، بيانا بحفظ التحقيق مع اسماعيل المهدوى، وبعد ثلاثة أشهر، أى فى أول يولية ١٩٨٧ أفرج عنه.

وقد سخر اسماعيل المهدوى من بيان حفظ التحقيق معه، حيث لم يحدث تحقيق معه أصلاحتى يحفظ! وكتب إلى النائب العام يتساءل قائلا: «كيف يحفظ النائب العام تحقيقا بدون أن يحدث أصلا؟ بل بدون أن يفتح طوال سبعة عشر عاما؟ واستشهد بمحضر إيداعه مستشفى المجانين الذى ادعت فيه نيابة أمن الدولة العليا أنها لم تستطع اجراء تحقيق معه بسبب عجزه عن التعبير!

والمهم فى هذه القصة هو الدور الذى لعبه زعماء الدفاع عن حقوق الانسان اليوم، ومن يتصدرون صفوف جمعيات حقوق الانسان من الناصريين، وقد كشف اسماعيل المهدوى من أسماء هؤلاء اسمى فتحى رضوان ومحمد فائق.

ففى الخطاب الذى أرسله الى فتحى رضوان يوم ١٥ يونية ١٩٨٥ بخصوص المؤتمر الذى عقدته فى القاهرة ما أسميت بـ «جمعية أنصار حقوق الانسان! قال اسماعيل المهدوى: «لقد أضحكنى ذلك كثيرا، خصوصا عندما عرفت أنكم توليتم رئاسته»!

وكان فتحى رضوان، الذى رأس مؤتمرات حقوق الانسان فيما بعد، هو الذى لعب دورا هاما فى بداية عهد الثورة فى مساعدتها على ضرب الديموقراطية وإزهاق الحياة الدستورية بسبب عدائه اللدود للوفد قبل الثورة، وكان هو الذى أهدى عبد الناصر سليمان حافظ وكيل مجلس الدولة الذى عمل مع السنهورى على عدم عودة البرلمان الوفدى الأخير للانعقاد بفتوى مجلس الدولة، واشترك مع السنهورى فى إدخال ضباط الجيش فى الوزارة رغم اعتراض اللواء محمد نجيب الذى رأى أن ذلك يخالف المبادئ التى اتفق عليها الضباط قبل الثورة، والتى تقضى بابتعاد الجيش عن الحكم. ثم كان سليمان حافظ هذا هو الذى وصف مصطفى النحاس بأنه «دمل فى الوفد يجب أن يفقع»! واستمر فتحى رضوان وزيرا فى الحكومة لمدة ست سنوات، يساعد الضباط على امتهان حقوق الانسان، وارساء دكتاتورية عبد الناصر. ولم يتذكر حقوق الانسان والديموقراطية الا بعد طرده من الحكم فى أكتوبر ١٩٥٨!

أما محمد فايق، رئيس جمعيات حقوق الانسان حاليا، وأكبر زعيم فيها، فقد أبدى اسماعيل المهدوى دهشته الفائقة لهذا الدور الجديد! ففى كتابه الهام الذى أصدره بعد خروجه من مستشفى المجانين وهو بعنوان «معنى

الديموقراطية، كتب يقول: «إنه لم يعرف الا متأخرا أن الأمين العام لجمعية أنصار حقوق الانسان هو الضابط محمد فائق، وزير الاعلام فى السنوات الأخيرة من عهد عبد الناصر، «الذى أشرف اذ ذلك على ما تعرضت له من فصل تعسفى من العمل الصحفى، وحرمان من النشر، ثم ايداعى فى مستشفى المجانين»!

وهكذا نصل إلى نهاية هذا الفصل من فصول «ثورة يوليو وحقوق الانسان»، نهديه لمن يشاهدون فيلم «ناصر ٥٦» ولمن يقرءون حملات التضليل الجبارة التى تصور الناصريين فى صورة حماة حقوق الانسان، وتبشر بدورهم القادم فى الحكم!

زنازين عبدالناصر في سجن الواحات !

الوفد في ٢٣ سبتمبر ١٩٩٦

وعدت القارئ الكريم بأنه طالما أن الناصريين قد أصبحوا في أيامنا هذه يتصدرون جمعيات الدفاع عن حقوق الانسان، ويصورون أنفسهم في صورة حملة لواء الحرية والديموقراطية، فان الأمانة التاريخية تقتضي كشف زيف هذه الادعاء من واقع الوثائق التاريخية، حتى لا تختلط الأدوار التاريخية، ويتحول المعتدون إلى ضحايا والمهاجمون الى مدافعين، ومن ولغت أيديهم في دماء الحرية إلى حراس الحرية، وتتهيأ التربة المصرية لحكم ناصري جديد يطل برأسه حاليا وسط الضلالات والأباطيل التي يطلقها الناصريون.

ولما كان اليسار هو الذي يتصدى اليوم للدفاع عن العهد الناصري، فاننا ننتقي وثائقنا من وثائق اليسار نفسه، حتى لا يتهمنا بالافتراء على عهد عبد الناصر وبأننا ننسب إليه ما لم يفعله.

والوثيقة التى بين أيدينا اليوم هى بعنوان: «فى معتقل أبو زعبل»، وهى كتاب من ٢٥١ صفحة نشرته دار الثقافة الجديدة اليسارية، وقد كتبه أحد الذين اعتقلهم عبد الناصر فى عام ١٩٥٩ وهو إلهام سيف النصر*.

وقد كان غرض إلهام سيف النصر من كتابة مذكراته هو نفس الغرض الذى استهدفناه من كتابة سلسلة هذه المقالات، فهو يقول فى صفحة ٢٠ «بما أن فضح الجريمة، وكشف خيوطها وأركانها، هو الأسلوب الوحيد لمنع تكرارها، فانى أكتب هذه الكلمات وأحكى القصة كما حدثت بالفعل»!

وقد اختار إلهام سيف النصر للفصل الأول من كتابه عنوانا ساخرا هو: «التشريفة»! ويقصد بذلك التجربة المخيفة التى مر بها وزملاؤه فى أوردى أبو زعبل يوم ٨ نوفمبر ١٩٥٩ . ولكن هذا اليوم لم يكن هو البداية ، وانما البداية ـ كما يقول ـ بدأت فى فجر يوم أول يناير ١٩٥٩ .

ففى هذا اليوم، وعلى حد قوله، «كانت مصر من أقصاها الى أدناها تشهد حملة بوليسية واسعة، بدأت بالقبض على العشرات، ثم مع مضى الوقت وصل العدد الى عدة مئات، وتعدى الألف بكثير»!

«سبقت الحملة البوليسية المفاجئة حملة صحفية شرسة ضارية.. ومنذ اللحظة الأولى سقط شهيد هو فرج الله الحلو، وخلالها سقط عدة شهداء آخرين قتلى من التعذيب، سواء فى دار المباحث العامة أو فى أبو زعبل، وكانت لحظتها الأخيرة، بعد سنوات فى نهاية عام ١٩٦٣ ، دامية أيضا، بعد إعلان العفو الشامل وصدور قرار الافراج، كالمأساة الاغريقية والستار يسدل على الفترة السوداء، فقد كان هناك شهيد أخير يسقط بالرصاص فى معتقل الواحات، وهو لويس اسحق».

---

(١) والد الممثلة شيرين سيف النصر.

ويرسم إلهام سيف النصر خطا بيانيا لأيام الاعتقال والتعذيب، ويرى أن هذا الخط البيانى قد بلغ ذروته «أيام الأوردى بليمان أبو زعبل. والأوردى هو ذلك الليمان الصغير الذى يعد ملحقا لليمان أبو زعبل، والذى يتسع لعدة مئات. ويقول إنه كان من حظه أن عاش ذلك الخط البيانى منذ لحظته الأولى.

أما لحظة البداية فكانت يوم أول يناير ١٩٥٩، وهى لحظة بداية التجربة الجديدة، تجربة ليمان أبو زعبل، ولكن سبق هذه التجربة تجارب فى عهد عبد الناصر. ففى عام ١٩٥٦ قضى هو والدكتور إبراهيم سعد الدين ستة أيام كاملة على كرسيين من الخشب! «عليهما ننام، ونأكل، وننتظر تحقيق النيابة»!

ولكن فى التجربة الجديدة ظل مع زملائه فى المباحث نهارا كاملا وليلة متصلة، ليبدأ التحقيق فى فجر اليوم التالى! ويقول إن هذا الأسلوب لم يكن أسلوبا غريبا على المباحث العامة، وخضوع نيابة أمن الدولة لهذا الأسلوب.

وقد جرى التحقيق معه بواسطة على نور الدين رئيس نيابة أمن الدولة حينذاك، وكان فى أول مجموعة تم التحقيق معها، وكان فيها الدكتور فؤاد مرسى الأستاذ بجامعة الاسكندرية، ومحمد سيد أحمد الكاتب والمحامى، ومحمود أمين العالم المثقف المعروف، وسعد زهران أستاذ الرياضيات، والدكتور عبد العظيم أنيس أستاذ الرياضة البحتة.

وكان التحقيق - كما يقول - شكليا، لأن الهدف فى تلك الليلة كان الاعتقال أساسا قبل التفكير فى أية محاكمة. كما كان استفزازيا، لأن هذا هو اختصاص على نور الدين الذى برع فيه أيام فاروق.

«لذلك انتهى التحقيق سريعا، لتوضع القيود الحديدية فى معاصمنا، ولتحملنا سيارة كبيرة تحت حراسة مشددة إلى حيث ذهب زملاؤنا من قبل، وكان الاعتقال فى معتقل القلعة.

وكان اختيار معتقل القلعة لاستكمال قوائم المعتقلين. فقد أعطيت للمعتقلين حرية نسبية كان هدفها مراقبة وضبط الخطابات والرسائل بين المعتقلين فى القلعة والخارج. وبالفعل تم ضبط العديد من الخطابات والعناوين وعشرات الأسماء التى طلب المعتقلون الاتصال بهم. ويعترف إلهام سيف النصر بأن ذلك كان تهاونا وسوء تقدير من المعتقلين، استغلته المباحث العامة التى كان معتقل القلعة خاضعا لها، فى التوصل الى ما لم تكن قد توصلت اليه من أسماء!

ولم يكد ينتهى الغرض من معتقل القلعة حتى جاءت لحظة الانتقال منه. وكانت لحظة رهيبة يصفها الهام سيف النصر بقوله: «فوجئنا ذات ليلة بقطع التيار الكهربائى عن المعتقل، واقتحام حرس مسلح الزنازين، وإخراجنا تحت حراسة مشددة، حيث وضعت الحلقات الحديدية والجنازير فى معاصمنا لأول مرة! وسحبنا داخل سيارات مغطاة بقماش سميك حملتنا حتى محطة الجيزة، والحقيقة القاسية تتسلل إلى عقولنا، حيث أودعنا فى قطار فريد من نوعه، هو عبارة عن عنبر سجن بنوافذ حديدية، ليتجه نحو المكان الذى استنتجنا مكانه أنه معتقل الواحات الخارجة بالمحاريق!

ويقول إلهام سيف النصر إن عددا من زوجات المعتقلين دفعتهن اللهفة على نظرة واحدة يلقينها على أزواجهن، الى أن يركبن قطار الصعيد حتى الأقصر، على أمل اللحاق بقطار السجن فى محطة «المواصلة» التى ينتقل فيها المعتقلون إلى قطار الواحات، ولكن هذا الأمل لم يتحقق، فقبل سوهاج كانت كل القطارات تقف بأمر المباحث العامة، ولم تتحرك الا بعد أن أصبح قطار السجن فى بطن الصحراء!

على هذا النحو كان سجناء الرأى يعاملون فى عهد عبد الناصر! ولكن ذلك كان أهون الأمور، فكما يقول إلهام سيف «ظلت القيود الحديدية الثقيلة فى أيدينا، والجنزير الضخم الطويل يربطنا جميعا، حتى وصلنا إلى الواحات!

«وقد أمضينا أكثر من عشرين ساعة فى القطار الأول، ثم فى قطار الواحات الصغير الذى ركبناه من المواصلة بالقرب من سوهاج، وتلك القيود الثقيلة تدمى معاصمنا لتتورم، وتحتقن، وليغمى على البعض من الألم، دون استجابة من الحراس أو الضباط. وقد أمضينا هذه العشرين ساعة حتى وصلنا ساعة الغروب إلى المحاريق ومعتقل الواحات، وذلك دون ماء أو طعام!

وهناك كان الاستقبال الذى أعده اللواء اسماعيل همت، وكيل مصلحة السجون! فقد سار المعتقلون العزل المقيدون بالأصفاد والجنازير، بين مدافع رشاشة مصوبة إلى صدورهم، وصيحات وأوامر حادة، ليتفحصهم اللواء اسماعيل همت، ويعلق على كل واحد منهم بالتعليق المناسب: إما بالسخرية، أو التهديد والوعيد، وليجتمع الجميع فى النهاية فى زنازين واسعة.

وفى سجن الواحات - كما يقول إلهام سيف النصر - التقينا بعشرات من زملاء وأصدقاء سبقونا قبل ذلك بسنوات، تعدى بعضها العشر، بعد الحكم عليهم من محاكم عبد الناصر التى كانت أغلبها عسكرية، وكانت أشهرها محكمة الدجوى، الدجوى «الذى انهار وهاجم مصر عندما أسره اليهود فى حملتهم وعدوانهم، وكان وقتها حاكما لغزة»!

«وكانت تجربة سجن الواحات فيها مرارة الوحشة فى الصحراء، والاحساس بأن الدنيا كلها قد تخلت عنك ونسيتك.. فيها حرارة الشمس التى تكوى الجسد فعلا، وصقيع الليالى الطويلة المجهدة.. فيها خلاء حياة تشبه الصحراء القفر ذاتها»!

مع ذلك فلم يكن الخط البيانى لأيام الاعتقال والتعذيب قد قطع الا مسافة قصيرة، فذات ليلة ـ كما يقول إلهام سيف النصر ـ «استيقظنا على أبواب السجن تفتح، وأصوات أقدام كثيرة، وضجة سلاح. ثم سمعنا ضابطا ينادى على الأسماء، وبعد ساعات، وكان الفجر يلوح فى الافق، كنت ومعى ما يقرب من ستين زميلا نستقبل قطار الواحات الصغير، والأغلال ذاتها فى معاصمنا، نتجه صوب مصر، لقد كنا نبدأ المرحلة الثالثة من فترات اعتقالنا، وهى مرحلةالمحاكمة.

وكانت المحاكمة، كجميع المحاكمات التى تمت فى عهد عبد الناصر، مهزلة من المهازل، لقد وضع المعتقلون فى سجن الحضرة بالاسكندرية، حيث استقبلوا «مقابلة استفزازية» من جانب مأمور السجن «الحلوانى»، الذى مزق أمتعتنا بحجة التفتيش! وهو يصرخ وينهر، حتى وضعنا فى عنبر معزول تماما عن النزلاء الآخرين.

وقد بدأت المحاكمة أمام مجلس عسكرى يرأسه الفريق هلال عبد الله هلال، قائد المدفعية، حيث وصف ممثل النيابة على نور الدين المعتقلين بأنهم «طغمة»! وفيهم أساتذة جامعات ومفكرون وكتاب معروفون ومحامون وأطباء ومدرسون ومهندسون خلفهم تاريخ طويل من النضال السياسى من أجل الاشتراكية وضد الاستعمار.

وقد دافع عن المتهمين الأستاذ أحمد البدينى المحامى، ولكن دفاعه لم يعجب زبانية عبد الناصر، فاعتقل بتهمة الشيوعية، ونقل إلى معتقل القلعة حيث اعتدى عليه بالضرب، وفرض عليه يوميا مسح بلاط المعتقل من الصباح حتى المساء: وكانت جريمته الحقيقية أنه كشف فى المحكمة وفاة محمد عثمان بسبب التعذيب، أمام وكالات الأنباء العالمية التى كانت تتابع المحاكمة!

الرحلة إلى الأوردى !

الوفد فى ٣٠ سبتمبر ١٩٩٦

عرضنا فى مقالنا السابق تجربة سجناء الرأى فى عهد عبد الناصر بعد الحملة البوليسية التى شنتها ادارته فى أول يناير ١٩٥٩، واعتقل فيها مفكرون وكتاب وأساتذة جامعات ومحامون ومهندسون وأطباء، كان منهم الدكتور عبد العظيم أنيس، ومحمود أمين العالم، والدكتور فؤاد مرسى، والكاتب محمد سيد أحمد، وإلهام سيف النصر، وآخرون. وروينا مراحل هذه التجربة الدموية، ابتداء من سجن القلعة الى سجن الواحات، وهم مقيدون فى الأصفاد، وجنزير ضخم طويل يربطهم جميعا، ويدمى معاصمهم، لتتورم وتحتقن ويغمى على البعض من الألم! ثم جاءت المرحلة الثالثة بنقلهم الى سجن الحضرة لمحاكمتهم. وعندما أحسن محاميهم أحمد البديني الدفاع عنهم، اعتقلته ادارة عبد الناصر، ونقل إلى معتقل القلعة ليقوم بمسح بلاط المعتقل!

ويستمر إلهام سيف النصر فى رواية مأساة الاعتقال فى ذلك العهد الناصرى، فيقول إن عملية المحاكمة أمام المجلس العسكرى لم تستمر

طويلا، فعندما اكتشفت إدارة عبد الناصر أن المحامين عن المتهمين أخذوا يفجرون قصص سقوط بعض المعتقلين قتلى تحت التعذيب، وأولهم محمد عثمان، عدلت عن فكرة علانية المحاكمة، وقررت أن تكون سرية. وبعد ذلك جرى الاعداد للانتقام من المعتقلين لما كشفوه أمام الرأى العالمى من قصص التعذيب واستشهاد المعتقلين. وكانت وسيلة الانتقام هى نقل المعتقلين إلى أوردى أبو زعبل، واستقبالهم فى حفل دموى أطلق عليه إلهام سيف النصر من باب التفكه الأسود اسم: «التشريفة»! والتى خطط لها ـ كما يقول ـ اللواء حسن المصيلحى رئيس قسم مكافحة الشيوعية.

وكان حسن المصيلحى قد خدم فى عهد فاروق والملكية، وهو تلميذ إبراهيم إمام الذى خلق البوليس السياسى فى مصر فى عهد فاروق، ولذلك اختير فى عهد عبد الناصر للاشراف بنفسه على تعذيب الدكتور اسماعيل صبرى عبد الله بالسجن الحربى فى عام ١٩٥٥، وظل يحقق معه بنفسه يوما بعد يوم، واسماعيل صبرى عبد الله مشرف على الموت دامى الجسد ممزقه!

وقد جرى الاعداد لعملية «التشريفة» بعد انتهاء محاكمة الاسكندرية. فكما يقول إلهام سيف النصر: «رحلنا بنفس السيارات التى جئنا بها، وبنفس القيود والجنازير، وفى منتصف الليل، عبر الطريق الصحراوى إلى القاهرة، فحللنا فى سجن مصر عدة أيام تمهيدا لنقلنا الى «أبو زعبل». وقد وضعنا فى أقذر عنبر، وهو عنبر «ج» المخصص لمرضى الأمراض الجلدية! ولم يسبق أن دخله من قبل سجين سياسى، وحرمنا من كل المزايا التى تنص عليها اللائحة التابعة لمصلحة السجون! وهو أمر يثير السخرية أن يكون للمتهم بتسريح الغلمان والدعارة والمخدرات حقوق، وأن يحرم سجين بتهمة عقائدية من أى حقوق!

حتى ذلك الحين كان المعتقلون ـ كما يقول إلهام سيف النصر ـ واقعين تحت وهم أن الخلاف بينهم وبين عبد الناصر هو «خلاف بين حلفاء يمكن أن يختفي سريعا، وأن خلاف الحليف مع حليفه، واختلاف الصديق مع صديقه، لا يجب ولا يجوز أن يتحول الى تناقض رئيسى يفتح الباب لضرب الوحدة الوطنية ذاتها، ويعطى جواز مرور لعملاء الاستعمار وفلول الرجعية لكى تصول وتجول»!

وسرعان ما تبين لهم مدى الوهم الذى كانوا يعيشون فيه! فقد كان النظام فى ذلك الحين يدبر لهم أبشع انتقام يتصوره بشر، هو الذى أطلق عليه إلهام سيف النصر اسم «تشريفة»!

ولندع إلهام سيف النصر يروى لنا هذه القصة البشعة بأسلوبه الخاص، لنهديها بصفة خاصة لصناع فيلم «ناصر ٥٦»!

فهو يقول: «فى فجر يوم ٨ نوفمبر ١٩٥٩، وهو عيد الثورة السوفيتية الذى اختاره حسن المصيلحى، بدأت «التشريفة» وبدأ تعذيبنا.

«فى ذلك الفجر الذى لن ننساه وننسى الساعات التى تلاحقت بعده، بدأت رحلة العذاب والموت والاستشهاد، وأيضا رحلة الصمود.

«فى ذلك اليوم بدأ «الأوردى» يستقبل ضحاياه!

«حوالى الساعة الثالثة صباحا سمعنا صوت باب عنبر «ج» بسجن مصر يفتح فجأة، وضجة أقدام كثيرة تطرق أرضه، وأصوات تأمر وتصيح، وأبواب الزنازين التى حللنا بها فى الدور الأرضى تفتح واحدة بعد الأخرى. كانت الأوامر تصدر بحدة غير عادية، وكان تفتيش الأمتعة يتم بدقة واستفزاز وصلا إلى حد تحطيم زجاجات الدواء على أرض العنبر! وكانت وجوه الضباط وحراس السجن متجهمة على غير العادة.

«وخرجنا كما طلب منا، والوجوم يسودنا، نصطف كما طلبوا وأمروا، ونمد معاصمنا لتدخل فى الحلقات الحديدية التى لاحقتنا طيلة فترة

اعتقالنا، وتحركنا صوب فناء السجن الخارجى لتصطدم أبصارنا بسيارات كبيرة بأبواب مفتوحة تنتظر ضمنا فى أحشائها.

«فى تلك اللحظة حدث شئ غريب أدركت منه أن أمرا خطيرا سوف يقع، وأن كارثة ما تنتظرنا! فقد اقترب منى مأمور سجن مصر، واسمه يوسف القطشة، يتفحص القيد الحديدى فى يدى، أو يتظاهر بفحصه وهمس فى أذنى بهذه الكلمات: «هناك عاصفة خطيرة فى الأفق، ومن الأفضل أن تحنوا الرءوس حتى تمر!. قالها وذهب.

«ولمحنا ونحن نقترب من الباب الخارجى ونتجه للسيارات ضباط سجن مصر يتوقفون فى أماكنهم، ويتولى بدلهم ضباط آخرون، كنا نراهم أول مرة، مهمة حراستنا، ورأينا واحدا منهم، وهو نحيل وطويل، يبتسم ويضحك ويقهقه ويصرخ فى نفس الوقت، وفى صوت هستيرى وكلمات نابية، وقد عرفنا اسمه فيما بعد وهو «يونس مرعى»!

«وكان هناك آخر طويل ضخم الجثة، بارد النظرات، تصدر الأوامر من يده أكثر من فمه! يده تدفع وتهز وتلح وتشد وتجذب. وعرفنا اسمه فيما بعد، وهو عبد اللطيف رشدى!

«وثالث، صوته ناعم رفيع، وحركاته ملساء مؤنثة، وبيريه كاكى يهتز على رأس حافلة بشعر طويل مجعد، وفيما بعد عرفنا أن اسمه «مرجان».

«وتأكد لى الجو الارهابى عندما حاولت أن أحدث يونس مرعى وأطلب منه استثناء الدكتور فؤاد مرسى، الأستاذ بجامعة الاسكندرية، والسماح له بالجلوس بجانب سائق السيارة تحاشيا للاهتزاز، حيث انه كان وقتها يعانى من انفصال شبكى بعينيه. ولكن يونس مرعى رفض وصرخ فى وجهى، ولعنة تنطلق من فمه يذكر فيها الأب والأم والجد!

«بعدها بدقائق كنا فى العربات المقفلة تماما: عشرون فى كل سيارة، ستون معتقلا على ذمة قضية لم يصدر فيها الحكم بعد، فى طريقهم الى المجهول! وتحركت السيارات بنا تحيط بها موتوسيكلات مسلحة وسيارات نجدة تعوى، تخترق القاهرة النائمة الساكنة.

«وشيئا فشيئا، ومن خلال التكهن والاستنتاج وحركة المرور وضجة الشوارع، وحتى رائحة الهواء، أدركنا أننا قد خرجنا من القاهرة، وأننا نقترب من الريف.

«وعندما وقفت بنا السيارات أخيرا، لم يحدث أى شئ لفترة طويلة، ومرت دقائق الانتظار متوترة ثقيلة، ننتظر أن يفتح الحارس الباب ونخرج من ذلك القفص الحديدى المحكم الذى كدنا نختنق فيه. وتراكمت الدقائق وامتدت لحوالى الساعة، وبدا عدم الفهم يتحول الى انزعاج ونحن نحس بأن شيئا يحدث فى الخارج!.

«وكان من المستحيل أن نرى شيئا أو تمتد أبصارنا خارج السيارات. فكل واحدة من السيارات الثلاث كانت مقفلة تماما، كعلبة سردين، أو كصندوق خشبى كبير مصفح برقائق من الحديد، ليس فيه من فجوة سوى الباب المصفح الذى دخلنا منه وأغلق وراءنا بمتراس حديدى.

«وكنا وقوفا! الستون معتقلا موزعين فى السيارات الثلاث بالتساوى، معهم أمتعتهم التى زاحمت المكان بكثرتها وقد تجمعت خلال الشهور الطويلة السابقة، والتى عاشت الرحلة تحمل من كل مكان ذكرى: بعض الرمال من صحراء الواحات، وكثير من البق والقمل من سجون عديدة حلت بها، آخرها سجن الحضرة بالاسكندرية!

«كنا وقوفا، نكاد نختنق من الحرارة رغم أن الشهر كان نوفمبر، نتزاحم، المنكب فى المنكب، والمعصم مشدود الى المعصم فى حلقات حديدية ثقيلة،

كل حلقة تضم معصمى رجلين، وتضم أيضا جنزيرا حديديا ضخما سميكا وطويلا، يربط كل عشرين منا بطريقة تذكر بقوافل العبيد عندما كانت فى الدنيا تجارة العبيد.

، يكفى أن يرفع واحد منا يده ليمسح عرقه حتى ترتفع الأيدى كلها معه! وتئن السلسلة وتزمجر! ويكفى أن يخطئ واحد وهو يحرك يده، ليلتوى المعصم ويتورم! ومعه يتورم معصم زميله ليسرى الألم معربدا، ويعجزان عن الحركة!

،ومع الانتظار بدأ الانهاك يحفر بصماته على تلك الوجوه الشاحبة الباهتة، التى لم تصافح الشمس شهورا عديدة، ويتفصد العرق ليتجمع على الجباه ويتبخر وهو يحمل فى ثناياه رائحة الأجساد المتربة المتعبة، والصابون الرخيص، والأحشاء التى عاشت على طعام يسمى «اليمك»! وهو مزيج من فول خاص، حباته كبيرة، ومليئة بالسوس! غارق فى زيوت داكنة اللون، لاذعة المذاق! ووجبة أخرى من سوائل لاطعم لها ولا مذاق، كانت فى الأصل أليافا وعروقا ودهونا وشحوما لخليط من مواد نباتية وحيوانية، على سطحها تعوم قطعة من لحم خشن!

،ولكن الانهاك تبدد فجأة، وأخذت تتنبه العقول، وتتوتر العضلات، ويتدفع الدم فى العروق ومعها دقات القلب تتصاعد، عندما طرقت أسماعنا من بعيد عدة أصوات لعدة أشياء: بعض الأوامر تصدر فى حدة، صهيل لعدد من الخيل، همهمات ووقع أقدام لا يمكن الا أن يأتى بها عدد كبير من الرجال. ثم دوت طلقة نارية اخترقت جدار الصمت تعوى ثوانى ثم تندثر، وأطبق بعدها سكون محشود بالتوتر، وأخذت عيوننا كلها تتجه صوب الباب، وسمعنا من خلافه الترباس الحديدى ينزلق ويتحرك ويتحشرج، وغمر ضوء النهار السيارة.

«ولمحت وجه «مسعود» السجان النوبى الطويل المكلف بحراسة سيارتنا، يرقبنا لحظة، ثم يتقدم ويفتح القفل الحديدى الكبير الذى يقبض بفكه على نهاية الجنزير الحديدى، ويفك، فى ضجة من رنين الحديد، قيودنا واحدا بعد الآخر.

«كانت ادارة السجن قد اختارت مسعود لأن ملفه يحوى ثمانين جنحة اعتداء على المساجين!».

تشريفة أوردى أبو زعبل!

الوفد فى ١٩٩٦/١٠/٧

عرضنا فى مقالنا السابق رحلة العذاب إلى أوردى أبو زعبل التى خاضها إلهام سيف النصر فى عهد عبد الناصر، ومعه ستون معتقلا من أصحاب الرأى وكبار المفكرين والكتاب المصريين الذين وهبوا حياتهم فداء للوطن وللشعب المصرى، لمجرد أنهم اختلفوا فى الرأى مع عبدالناصر حول الديمقراطية والتحول الاجتماعى، ولم يحملوا سلاحا ضده أو يتآمروا عليه أو يهددوا عهده، بل كانوا واقعين تحت وهم أنهم حلفاء له!

وها نحن اليوم نقدم الفصل الأول من «تشريفة أوردى أبو زعبل» بعد أن وصل هؤلاء الكتاب والمفكرون إلى الأوردى مربوطين - كما يقول إلهام سيف النصر - فى حلقات حديدية ثقيلة، كل حلقة تضم معصمى رجلين، وتضم أيضاً جنزيرا حديديا ضخما سميكا وطويلا، يربط كل عشرين بطريقة تذكّر بقوافل العبيد! يكفى أن يرفع أى واحد يده لمسح عرقه حتى ترتفع الأيدى كلها معه! ويكفى أن يخطىء واحد وهو يحرك يده، ليلتوى المعصم ويتورم، ومعه يتورم معصم زميله»!

ولم تكن تلك هى نهاية المعاناة، بل كانت البداية! ولم يكن الفصل الأخير بل الفصل الأول! فلم تكن «التشريفة» قد بدأت بعد، وإنما بدأت عندما انزلق الترباس الحديدى الذى يغلق أبواب السيارات، ليفاجأ السجناء بضوء النهار يكاد يعمى أعينهم بعد عتمة السيارات وظلامها.

ولندع إلهام سيف النصر يروى التجربة الرهيبة بقلمه، ونطلب من القارىء الكريم أن يحبس أنفاسه حتى تنتهى القصة كما يفعل فى أثناء مشاهدة الأفلام المرعبة. فيقول:

«فتح الباب مسعود السجان النوبى الطويل، الذى اختارته ادارة عبدالناصر لأن ملفه يحوى ثمانين جنحة إعتداء على مساجين!

«ومن بعيد سمعنا الضجة من جديد تعود، ليخرج اسماعيل صبرى عبدالله وأمين شرف بأمر من مسعود، لتصل الضجة إلى قمتها، ثم تخفت!

«ويفتح الباب من جديد، وينزل أحمد نبيل الهلالى، ثم أتبعه فى النزول. وعلى درجات السيارة كنت واجف القلب! وأحسست بيد مسعود تربت على كتفى، وتمتمة تخرج من شفتيه لم أتبين منها سوى كلمة «الله».

«ونزلت لأعيش» «التشريفة»!

«لقد فاجأنى ضوء النهار بعد عتمة السيارة وظلامها، ولذلك وقفت فى مكانى لحظة حتى تتعود عيناى على نور الشمس المبهر، ولكنها كانت لحظة فقط!

«من خلفى هجم فارسان يمتطيان جوادين، لأحس، ولأول مرة فى حياتى، بالسياط وهى تنزل على كتفى ورأسى!

«ودوت الصرخات تأمر: إجرى ياابن الكلب!

«وجريت، أو أظن أن هذا مافعلته! فمنذ تلك اللحظة، وحتى انتهت التشريفة بعد ذلك بحوالى نصف ساعة، كنت أعيش كابوسا داميا مريعا، وساعة بربرية هوجاء! أفعل ما يأمروننى به، وأتحرك كالآلة دون فهم أو إدراك، وقد توقف العقل تماما عن أى محاولة لاستيعاب ما يحدث!

«كالطفل المذعور، انسحب عقلى من ركنه، يترك للغريزة أن تقوم هى بمجابهة الموقف الذى عجز عن مجابته وعن فهمه!

«أذكر فقط أنى جريت، وأن فرسانا جروا خلفى، وبالسياط ألهبوا رأسى وكتفى!

«أذكر أيضاً أنى اخترقت طريقا طويلا متريا وأنا أعدو، فى يدى حقيبتى لا أحس بثقلها، مهمتى كلها أن أتفادى رجالا وقفوا طيلة الطريق فى صفين طويلين، يحملون فى أيديهم عصى طويلة غليظة، ترتفع، وتزمجر، وتهوى على جسدى!

«وأذكر أنى كدت عدة مرات أن أسقط، ولكن غريزة تملكتنى دفعت سيقانى لتعدو، لتهرب بجسدى من ذلك الجحيم الذى أحاط بى!

«ثم لأجد نفسى فجأة وقد توقفت، لا أستطيع أن ألتقط أنفاسى، وصدرى يتحشرج، وحولى جمهرة من ضباط وجنود، الكل يصرخ، والكل يضرب، وواحد يصفعنى بانتظام وهو يأمر:

- اسمك يابن الـ..

- بصوت أعلى!

- اسمك وقل ياأفندم يا (...).

- بصوت أعلى يا ابن الـ...

- اسمك ياابن الـ..

- قل أفندم يا (...)

- بصوت أعلى ياابن الـ...

«الدقائق طويلة، وصوتى يخرج مبحوحا، والصفعات تنزل، والعصى والكرابيج، والشتائم!

«أذكر أيضاً أن صدرى كان يتحشرج، والكلمات مخنوقةلا تريد أن تخرج من الإنهاك والصدمة!

«ثم تنبهت لأجد نفسي عاريا، لايستر جسدى شيء، وأن السياط والعصى أصبحت بعد ذلك أشد إيلاما وعنفا!

«أذكر أيضاً أن أمامي كان يربض بناء صغير به شرفة واسعة، كان يجلس عليها بعض رجال فى ملابس مدنية، وآخرون فى ملابس عسكرية، وأن واحدا منهم كان يجلس فى منتصفهم قال ما معناه:

- صوته غير مسموع!!

وبعدها ازداد وقع السياط والصفعات والعصى!

ولحظتها تلاقى بصرى ببصره، وعرفته. ولكن لم أتذكره إلا بعد ذلك بساعات عندما انتهى كل شيء، لقد تذكرت أنه يحمل وجه اللواء اسماعيل همت!

«ثم توقف الضرب لحظة، ليقترب منى رجل وفى يده ماكينة حلاقة كبيرة، أكلت شعر رأسى، ثم تحولت تأكل شعر عورتى!

«ثم عاد الضرب ثانية، وبعنف، ومعه يدتمتد إلىّ تحمل لفة طرية وضعت فى يدى، لفة تشبه الخيش.

«وأذكر أيضاً أن صوتا من الشرفة أمر:

- يكفى هذا!

«وهنا طاردتنى الكرابيج والعصى، توجهنى جاريا نحو باب مفتوح، دخلته وأنا أعدو عاريا، وحولى وأمامى وخلفى كانت هناك عصى تصطادنى! وأذكر أن عصاة بالذات نزلت على وسطى، لأتوقف لحظة. وقد فقدت أنفاسى، والدوار يتملكنى، وألم كالسكين من نار يخترق ظهرى!

«ثم عدوت، لأن الضربات ازدادت وتجمعت عندما توقفت! لأتجه صوب الباب المفتوح الذى دخلته جاريا، لأتعثر، وضربة عصا أخيرة تنزل على رأسى، فأقع متطوحا داخل هذا البناء!

«أذكر أخيرا أن الضرب توقف فجأة، وأنى عندما رفعت بصرى عن الأرض، سمعت بابا يغلق خلفى، وأن شخصا يلبس ملابس غريبة مضحكة مهلهلة صفراء، يقترب منى، ويمد يده. تأملته فى تعجب لأكتشف أنه أمين شرف!

«ونهضت أسير بخطوات متعثرة حتى الحائط، وجلست على الأرض استندإلى هذا الحائط بظهرى، أحس بالألم طاغيا معربدا، وأتنفس فى عمق.

«لساعات طويلة استمرت «التشريفة»! واحدا واحدا من زملائى عاشها ومر بها! ولم يرحم أحدا: محمود العسكرى، العامل النقابى والمصاب بريو حاد! وسعد زهران ذو القدم الخشبية! والدكتور فؤاد مرسى المصاب بانفصال شبكى!.. كل واحد مر بنفس الروتين الذى رسم بدقة حتى العنبر!

«وفى العنبر كنا نلبس تلك اللفة الطرية التى قدموها لنا: بدلة من قماش أصفر يشبه الخيش، مكونة من بنطلون وسترةو «كاسكتة» على الرأس بلون من نفس القماش.

«وحتى وراء هذه الملابس كانت هناك خطة!: الرفيع أعطوه بذلة واسعة، والسمين بذلة ضيقة، والطويل بذلة قصيرة، والقصير بذلة طويلة!

«خطة لأن يكون الشكل مضحكا وهزليا! وإهانة أخرى تضاف إلى الصفعات والضرب والشتائم، رسمها حقد هائل وعقل شيطانى!

«لعدة ساعات استمرت «التشريفة»! فقد كان هذا هو اسمها كما سماها حسن منير، مأمور المعتقل بسخريته المريضة.

«ويمتلىء العنبر شيئاً فشيئاً، ضجة وصرخات وأوامر، ثم يفتح الباب، ويندفع زميل!

«لعدة ساعات امتهن شرف وكرامة وأجساد رجال من خيرة رجال هذا البلد.. رجال لم تسرق، ولم تمالئ الاستعمار، ولم تعمل بالسوق السوداء، ولم تختلس، ولم ترتش. رجال فيهم خلاصة فكر علمى، ونضال طويل، وحب متصل لوطنهم. رجال يؤمنون بحق الإنسان فى حياة كريمة، ومجتمع نظيف عادل، ودنيا حرة ديمقراطية.

«على مدى ساعات، تهشمت ضلوع، وتحطمت أطراف، وحدث أكثر من نزيف داخلى، وأوشك أكثر من واحد على الموت!

«وفى الخارج يجلس بعض أفراد فى شرفة عالية، يتضاحكون، ويرقبون فى تشف، يستزيدون، ويحضرون لأيام أخرى مقبلة!

«صنف آخر من الرجال، ونوع معين من البَشر! فكل واحد خلفه تاريخ طويل من ريب وشبهات وقاذورات!

«لساعات جلسنا وظهورنا للحائط، نلعق جروحنا، حتى كان المساء، ليظل العنبر مغلقاً. عنبر طويل واسع كصندوق مستطيل، فى أوله باب مصفح، وفى آخره دورة مياه، وفى جنباته نوافذ كبيرة بقضبان حديدية دخل منها برد الشتاء، لنلتصق وننام على أسفلت العنبر!

«وفى تلك الليلة استيقظت عند الفجر، لأسمع أنات من حولى وتأوهات! كان الكل نياما، ولكن فى الصدور كان الألم يعوى ويزفر ويتأوه!

«أصوات كنت أسمعها للمرة الأولى فى حياتى، وظللت أسمعها فيما بعد وطيلة أيام أبو زعبل! ورفعت بصرى أبحث عن السماء بين القضبان، وأتساءل: «هل انتهى الأمر، أو أنها البداية؟

«شىء فى قلبى حدثنى بأنها البداية!».

ولأصحاب النظارات فى الأوردى تنظيف البكابورتات !

الوفد فى ١٤/١٠/١٩٩٦

قلنا فى مقدمة هذه المقالات إن تصدى الناصريين لقيادة حركة الدفاع عن حقوق الإنسان، هو أكبر تضليل يمارس فى حياتنا السياسية المعاصرة، لسبب بسيط هو أن النظام الناصرى منذ قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ حتى وفاة عبد الناصر فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ كان يمارس أبشع الانتهاكات لحقوق الإنسان، وكان عدوا لدودا لحرية الرأى ولأصحاب الرأى على اختلاف آرائهم ومعتقداتهم. فقد نكل بهم تنكيلا، وأنزل بهم عذابا فظيعا، حتى ولو لم يمثلوا بالنسبة له أى تهديد، ولم يرفعوا فى وجهه أى سلاح. فقد اعتبر النظام الناصرى الرأى الآخر بمثابة سلاح موجه ضده أفتك من أى سلاح، وعامل أصحاب الرأى الآخر بأبشع مما كان يعامل به عتاة المجرمين اوسلط عليهم زبانية انتقاهم بعناية من نفايات البشرية وحثالات المجتمع المصرى وممن امتلأت ملفاتهم بجنح وجنايات الاعتداء على المسجونين والرشوة والشذوذ الجنسى وادمان الأفيون.

وهذه هى جريمة النظام الناصرى الكبرى، التى تقف جنبا إلى جنب مع جريمة هزائمه العسكرية! فقد كان من حقه أن يدافع عن نفسه ضد من يحملون السلاح ضده أو ضد المجتمع، فى حدود القانون، ولكن لم يكن من حقه أبدا أن يعتبر الرأى الآخر خطرا يهدد حكمه بأكثر مما تهدده الانقلابات الدموية! وينظر إلى أصحاب الرأى الآخر المسالمين كما لو كانوا أصحاب سلاح مصوب ضده!

وهذا الكلام ليس تجنيا منى على النظام الناصرى، وإنما هو حكم تاريخى أصدره كمؤرخ، وأستند فيه إلى أوثق المصادر وإلى شهادات شهود عيان واعترافات، وأكثر من ذلك يعرفه جيدا الأحياء قبل الأموات فى حزبى التجمع والناصرى - وهما بالمناسبة متحدين فى حلف أسميه حلف الجلادين والمجلودين! والجلادون هم الناصريون أما المجلودون فهم التجمعيون!

لقد كره النظام الناصرى المثقفين كراهية التحريم، وسلط على المفكرين أبشع أدوات التعذيب. وهو أمر طبيعى من نظام قام على أكتاف ضباط عسكريين لا تسبقهم نظريات سياسية وإنما كانت تحركهم عقلية إنقلابية. وهذا الكلام أيضاً ليس من عندى، ففى مقال لعبد الناصر فى مجلة التحرير يوم أول اكتوبر ١٩٥٢ كان عنوانه: «كيف دبرنا هذا الانقلاب»! ففكرة الثورة لم تكن قد برزت بعد لتجميل ثورة يوليو!

ولذلك نلاحظ أنه قام بالتخلص من المثقفين من مجلس قيادة الثورة، فقد تخلص من خالد محيى الدين ومن يوسف صديق، كما تخلص من أحمد حمروش وغيره.

وقد روى إلهام سيف النصر فى وثيقته الهامة التى صدرت فى كتاب تحت عنوان: «فى معتقل أبو زعبل» وهو الذى نعرضه فى هذه المقالات - قصة تسند هذا المعنى الذى ذكرته. فقد قال بالحرف الواحد:

«أذكر أننا لاحظنا، عند حضورنا لأبى زعبل، أن الضرب كان يتركز، بصورة ملفتة للنظر! على من يلبس منا نظارات طبية!

«ففؤاد مرسى، وإسماعيل صبرى عبد الله، وشهدى عطية الشافعى، ونبيل الهلالى، ولويس عوض، وكل من أصابه القدر بقصر نظر أو طول نظر فحمل على أنفه نظارة، كانت الشوم لا تتوقف عن ملاحقته!

«وبعد فترة، ومن زلة لسان أحد السجانة، علمنا أن مأمور أوردى أبو زعبل حسن منير، درس لهم فيما يدرسون، أن الزعماء يلبسون نظارات طبية، لأنهم يقرأون كثيرا»!

وفى موضع آخر من هذه الوثيقة التاريخية يتحدث إلهام سيف النصر عن أحد الزبانية فى «أوردى» أبو زعبل واسمه يونس مرعى، وقد وصفه بأنه: «نفاية انسان»! فقد كان - كما يقول بالحرف الواحد: «يحقد على كل واحد منا يحمل شهادة علمية! لذا انصب غضبه بالذات على الدكتور فؤاد مرسى، والدكتور اسماعيل صبرى عبد الله، والدكتور عبد الرازق حسن، والدكتور فوزى منصور، وعادل ثابت، ومحمود أمين العالم، والدكتور القويسنى.

«وبالذات على الدكتور لويس عوض، الذى خصه بانتقام مضاعف، عندما علم أنه قبل القبض عليه، كان يحتل وظيفة هامة بوزارة الثقافة!

«ومن يومها، كانت إحدى هوايات يونس مرعى أن يطارد الدكتور لويس عوض بجواده طويلا، وهو ينزل عليه بعصاه!

«وبمثل هذا الحقد قتل الضابط يونس مرعى الدكتور فريد حداد! وبمثله أيضاً حطم ذراع الدكتور فوزى منصور! وفرض على الدكتور عبدالرازق حسن أن يخلع بذلة السجن وينظف مجارى «الأوردى! وأجبر الدكتور القويسنى على القيام بـ «الزحف المقدس» (سيأتى ذكره) حتى تهاوى مغميا

عليه! كذلك حظى الدكتور فوزى منصور بعناية خاصة، فقد ظل بعد أن تحطم ساعده بضربة شومة فى إحدى «التشريفات» يعمل بالجبل، بنفس الذراع المحطمة، حتى نهاية الأوردى وأيام المعتقل! وبالنسبة لرشدى خليل فعندما أصيب بالتيفوئيد، ترك بدون علاج حتى مات!

ويقول إلهام سيف النصر إن دكاترة الجامعة والمثقفين كانوا هم المرشحون دائما لتنظيف الباكابورتات! فقد كان العقل المريض السادى للزبانية يلعب لعبته الخبيثة، ويختار وسيلة التعذيب المناسبة! فالمعتقل السمين تختار له الحركات الرياضية التى لا يمكن أن يأتى بها إلا رشيق القوام! والمتقدم فى السن يختار له الإنهاك والجرى! - ومن هنا اختير ليوسف المدرك، الزعيم النقابى الذى تعدى الستين من عمره، الجرى عشرات الكيلو مترات يوميا! وكان التعذيب والإيذاء البدنى يتركز أساساً على الضعيف منا جسديا أو معنويا، حتى يثير بانهياره وصياحه الرعب والانهزامية والاحساس بأن الإيذاء لا يمكن تحمله! فمن كان منا يتأوه أو يصيح، كان هو الذى عليه عادة يتركز الضرب والتعذيب!

وكل ذلك بالاضافة إلى اختراعات التعذيب التى كانت تطرأ فى العقلية السادية لزبانية التعذيب. وفى ذلك يقول إلهام سيف النصر: «أذكر أنه حتى تناول وجبات الطعام، لم تخل من اختراعات! كانت قروانات الأكل المملوءة بالفول توضع على الأرض، ثم نجبر على الجرى، والضربات تنهال علينا! ليخطف كل واحد منا قروانته، ثم يجرى وهو يضرب، حتى يدخل العنبر!

«وقد كان معنى انسكاب الطعام، أو سقوط القروانة، ثلاثين شومة على بطن القدم كعقاب! ولكن أذكر أن ذلك ما كان يحدث إلا فى القليل النادر! فحبات الفول القليلة، الملوثة بالطين والذباب والسوس، كانت بالنسبة لنا قوت يوم بأكمله! وما كنا على استعداد أن نجوع - فوق ما نجوع - لأى سبب

كـان . كنا نفضل أن نتـأنى ـ رغم الضـربات القاسيـة ـ حتى نحـافظ على لقيمات هى بالنسبة لنا جسر الحياة»!

ولا يفتأ إلهام سيف النصر يغمز نظام عبد الناصر بهزائمه العسكرية، فـيقـول إنه «لم يكن غـريبـا أن يكون الجـلادون جـبناء أمـام العـدو المسلح، شجعان والضحية مصرى أعزل وحيد أمام قطعان البربرية» . ويقول فى سخرية:

«ليس الرجل من عــذب أهله ومــواطنيــه، الرجل من ذاد عن أرض الوطن، وكسر بالعزم والتضحية هجمات العدو الشرس، وبذل الدم فى سبيل تحرير الأرض»!

***

وطوال العصر الناصرى كان القانون فى أجازة، وكـانت حقوق الإنـسان فى أجـازة! ومن الطبـيعـى أن يكون «أوردى» أبو زعـبل هو آخـر مكان فى مصر يعرف القانون أو حقوق الإنسان! ولكن كان له قانونه الخاص ونظامه الخاص، وكانت مخالفة هذا القانون أو هذا النظام يترتب عليها نتائج فادحة وعقوبات فظيعة.

فقد وضعت العقلية السادية لتعذيب المعتقلين من سجناء الرأى نظاماً للنوم يضمن عدم تجـمعهم أو انتقالهم فى أثناء الليل للتداول فى الرأى أو الحـوار! وهذا النظام يقـوم على النوم طبقـا لتسلسل أرقـام المعـتقلين! ولكن سجناء الرأى كـانوا ينتهكون هذا النظام، فالمساء ـ على حد قول إلهام سيف النصـر ـ كـان هو الوقت الـوحيد الذى فيه يتم تحت ستـار الظلام تهامـسنا ومناقشاتنا المعنوية والسياسية، وكان يعنى ـ بالتالى تنقلنا!».

ونظرا لخشية النظام الناصرى من ذلك، فقد كان من الضرورى بالنسبة له ضـمـان مراعـاة المعـتـقلين لنظام النوم طبـقـا لتـسلسل الأرقـام، وإجـراء التفتيش فى جنح الليل على العنابر للتحقق من التزام المعتقلين بهذا النظام.

ويروى إلهام سيف النصر قصة بشعة عن إحدى كبسات التفتيش الليلية على العنبر «١» بأسلوبه الواقعي فيقول:

«ذات ليلة، فتح عنبرنا في منتصف الليل فجأة، ليدخل عبداللطيف رشدى (وهو الضابط الذى قتل شهدى عطية الشافعى بيده، وشج رأس الدكتور اسماعيل صبرى عبد الله) وفى رفقته السجانة، ليصرخ فينا ونحن نيام: إثبت مكانك!

«وبعدها بدأ يتفحص نمرنا، ويتأكد من أن كل واحد منا ينام طبقا لتسلسل نمرته. وبالطبع كان هذا أحد الأشياء التى نرفض الانصياع لها. ولذلك، ففى تلك الليلة لم يشهد عنبر «١» ضربا وحشيا كما شهده! وبعد أن انتهت المجزرة بدأ عقاب جديد ومن نوع جديد!

«ففى زنازين التأديب الضيقة المختنقة، حشر الجميع وقوفا، حتى مساء اليوم التالى! وكان البرد قارسا، ولذلك أمر عبد اللطيف رشدى باغراق أرض الزنازين بالمياه! وفى تلك الليلة زج عبد اللطيف رشدى بحلمى ياسين، وعبد العظيم أنيس، وسعد رحمى، وعبد المنعم شتيلا، ومحمود أمين العالم فى عنبر التأديب!

وبطبيعة الحال فإن كل ذلك لم يكن ليحدث لو كان النظام الناصرى يطبق قانونا من تلك القوانين التى عرفتها المدنية الحديثة، ولم تكن شريعة الغاب هى السائدة.

وفى ذلك يذكر إلهام سيف النصر تلك القصة ذات المغزى، فيقول إنه فى عام ١٩٥٧ - أى قبل محنة «أوردى» أبو زعبل بعامين، كان قد قرر هو ونبيل الهلالى المحامى، رفع دعوى للتحقيق والتعويض عن التعذيب الوحشى الذى ناله زميلهم النوبى فى السجن الحربى خلال عام ١٩٥٥، واسمه مختار. وقد وجدا أن أحد الأدلة الدامغة على حدوث التعذيب، ليس

فقط ظهره الذى لا يحمل لحما يغطى منكبيه، وإنما جلد رقيق، بعد أن ذهب اللحم بالسياط ونهش الكلاب المتوحشة!- وإنما أيضاً لأن أوراق تحقيقه فى السجن الحربى ملوثة بالدماء التى طفرت منه خلال استجوابه، فقد كان الاستجواب يتم تحت التعذيب.

«ولكن الدعوى التى رفعناها فشلت، عندما اكتشفنا أن ملف التحقيق والحكم اختفيا من المحكمة العسكرية!

«فسيادة القانون» - كما يقول إلهام سيف النصر- «تعنى الحساب فى حدود القانون، وتعنى توفير ضمانات هذا الحساب، ولكن المشكلة أن سيادة القانون لها أكثر من تفسير»!

وهذا هو السبب فى أن قانون «الأوردى» نفسه كان له أكثر من تفسير!، وربما كان أكثر هذه التفاسير بشاعة هوالتفسير الذى طبقة مأمور الأوردى حسن منير يوم أول يناير ١٩٦٠، مما سيرد ذكره!

وفى يوم الأربعاء الدامى :
رفض المعتقلون غناء أغنية :
« يا جمال يامثال الوطنية » !

الوفد فى ٢١/١٠/١٩٩٦

لم يكن الفصل الأول من «تشريفة» أوردى أبو زعبل هو نهاية المطاف بالنسبة لسجناء الرأى فى العصر الناصرى، بل كان - كما يفهم من عنوانه - الافتتاحية! وهذا ما شعر به إلهام سيف النصر عندما استيقظ عند فجر اليوم التالى للتشريفة على أنات رفاقه وحشرجات صدورهم وهم ينامون على أسفلت العنبر فى برد الشتاء، وأخذ يسترجع ما حدث!

«لقد جرى كل شىء» - على حد قوله - «فى دقة»، ووحشية، ودموية، وغضب جامح»! وكان السؤال الساخرالذى طرأ فى ذهنه: «لماذا لم يظهر النظام الناصرى كل تلك الدقة وذلك الغضب الجامح وتلك الدموية فى ظروف أخرى تستدعيها: ظروف هدد فيها العدو والصهيونية أرض الوطن، واستباحوها ووطئوها؟

(كان يقصد حرب ١٩٥٦ التى احتل العدو فيها سيناء)، «وعلى الرغم منى» - كما يقول - : «ابتسمت فى مرارة، وأنا أذكر ذلك البيت البليغ: «أسد علىّ، وفى الحروب نعامة»!

وعلى مدى الأيام التالية ـ وعلى حد قوله ـ استمرت «التشريفة» تستقبل كل وافد جديد قرر نظام عبد الناصر تأديبه: «على مدى الشهور استقبلت «التشريفة» عدة مئات من المعتقلين، من مختلف طبقات المجتمع، ومن كافة أرجاء مصر. أسماء هى فى الواقع سمات لمصر الحديثة ولمصر المستقبل، تتمرغ فى دمائها!:

«الدكتور لويس عوض الأستاذ والصحفى والأديب، حسن فؤاد الفنان والصحفى والكاتب، الدكتور عبد الرازق حسن الأستاذ فى الاقتصاد، سعيد خيال القاضى وعضو مجلس السلام العالمى، فوزى منصور الدكتور فى الاقتصاد، فيليب جلاب الصحفى، الدكتور عبد العظيم أنيس أستاذ الرياضة البحتة والصحفى، زهدى رسام الكاريكاتير والفنان اللامع، منير موافى الضابط بالقوات المسلحة وأحد أبطال بور سعيد، فؤاد حداد الشاعر!

«أسماء، وأسماء، لعدة مئات.. أسماء لرؤساء وأعضاء مجالس نقابات عمالية تمتد من أسوان وكوم امبو حتى شبرا الخيمة والمحلة وكفر الدوار وسباهى وعنابر السكك الحديد، وأسماء لفلاحين من قرى الصعيد ونجوع الدلتا وكفور ريف مصر كله. أسماء لمصريين شرفاء كانت تتعرض لما حوته «التشريفة» من بشاعة!

«كانت عجلة البربرية تدور، وكل شىء ـ حتى شرف المهنة ـ كان يلوث من أجلها!

«وحتى أواخر يونيو عام ١٩٦٠ استمرت التشريفة لا تتوقف، بل تزداد إتقانا، وتزداد وحشية، وتزداد جنونا! ومع التشريفة» شهد أوردى أبو زعبل أصنافاً جديدة وغريبة ومريضة من تعذيب بربرى أطلق عليها أسماء: «ليلة التفتيش»، «الزحف المقدس»، «طابور الصباح»، «التأديب»، «يوم الغناء»، «الأربعاء الدامى»، «ليلةرأس السنة»، «هجوم الهكسوس»!

«وعشرات من قصص مجنونة دامية لا يتصورها خيال، ولا يمكن لمصرى أن يتصور أنها حدثت على أرض مصر! قصص يجب أن تحكى، لكيلا تحدث بعد ذلك قط»!

ويروى إلهام سيف النصر إحدى قصص التعذيب البربرى التى أطلق عليها اسم «طابور الصباح»! فيقول إنه فى صباح يوم فى أواخر شهر نوفمبر ١٩٥٩ فتح باب عنبر (١) ووقف المعتقلون من سجناء الرأى وقفة انتباه كما تعلّموا، وصدر الأمر بخروج خمسة عشر معتقلا، من رقم «١» حتى رقم «١٥» ـ كما هو مطبوع على ستراتهم بطلاء أسود.

«وخرج الخمسة عشر معتقلا وهم يجرون، من العنبر حتى باب الأوردى، خرجوا يجرون كما تعلموا! وكالعادة أيضاً نزلت على ظهورهم الشوم والهراوات حتى توقفوا فى صفوف منتظمة، كل صف من خمسة: الكل فى ملابس السجن الخشنة، والأقدام حافية!

«وأمام الخمسة عشر معتقلا وقف اللواء اسماعيل همت وكيل مصلحة السجون، وحوله ضباط المعتقل، وخلفهم عشرون جنديا مسلحين بمدافع رشاشة! وبعد صمت استمر ثوان تكلم اللواء اسماعيل همت قائلا باسما:

«أنتم ضعاف الصحة، تحتاجون إلى رياضة!»، وباشارة من يده تقدم صول ليصرخ:

«يمين در!

«بعضنا يستدير نحو اليمين، والبعض نحو اليسار! الخطأ يحدث لأن الأمر جديد علينا! العصى تنزل والصرخة تعلو من جديد: يمين در! الكل يستدير نحو اليمين.

« ـ بالخطوة السريعة، مارش!

«الكل يجرى فى شبه حلقة، تقودهم العصى والشوم! وبعد خمس عشرة دقيقة يصدر الأمر بالتوقف. ويلتفت اللواء همت إلى مأمور السجن حسن منير قائلا: طابور الرياضة ياحسن اللى اتفقنا عليه! الأولاد أجسامهم طرية يجب أن تشتد»!

«الأمر يصدر بدخول العنبر . الكل يجرى، والعصى تنزل على الظهور من جديد»!

***

وينتقل إلهام سيف النصر إلى صباح يوم ١٦ فبراير ١٩٦٠ ـ أو يوم الأربعاء الدامى ـ ويروى القصة البشعة الآتية عندما أشرف الدكتور اسماعيل صبرى عبد الله ومعه ثلاثون من سجناء الرأى على الموت وأغمى عليهم. فيقول إنه فى صباح ذلك اليوم وقف عنبر «١» فى ثلاثة صفوف، كل صف يحوى عشرين معتقلا، وقفة انتباه، وعلى الأرض أمام العنبر جلس بقية المعتقل جلسة المسجون العادية: «الجسد قد انخفض، والرأس مطرق فى الأرض، والأيدى موضوعة على الركب، والأقدام تئن تحمل الجسد المنثنى المحرم أن يلمس الأرض. عدة مئات جلسوا هذه الجلسة أمام عنبر «١»، فالأوردى قد امتلأ بعدد كبير من المعتقلين حضروا من السجون والمعتقلات الأخرى.

«وأمام عنبر «١» وقف المأمور حسن منير وحوله ضباط المعتقل وعدد من الجنود والسجانة، يحملون بنادق وعصى غليظة يسميها المعتقلون «شوم»، وهى تورد للمعتقل بمعدل مائة شومة شهريا، لاستبدال ما يتحطم على أجساد المعتقلين!

لم يكن عنبر «١» يعرف سبب هذا التجمع إلا عندما خاطبهم مأمور المعتقل حسن منير قائلا:

«أنا مبسوط منكم ياأولاد. ولذلك قررت أن أعلمكم الغناء! تعرفون أغنية: «ياجمال يامثال الوطنية» ؟

هيا ياأولاد، غنوا!

على أن المعتقلين من سجناء الرأى فهموا المقصود، فرفضوا الغناء. وهنا اتجه مأمور السجن إلى الدكتور اسماعيل صبرى عبد الله، الذى كان يقف فى الصف الأول، وصاح فيه: غنى يا ولد! ولكن الدكتور اسماعيل صبرى عبد الله رفض الغناء قائلاً:«أى أغنية وطنية مكانها الخارج، حيث الحرية، نحن كوطنيين نتشرف بغناء أغاني وطننا الوطنية،ولكنا نرفض أن نغنيها تحت ظل الرشاشات والأسلحة والعصى، نرفض أن نغنيها تحت ظل الارهاب!» .

وهنا ـ كما يروى إلهام سيف النصر، أخذت تصدر من فم المأمور حسن منير ألفاظ نابية قذرة عاهرة، وتنهال العصى والشوم على اسماعيل صبرى عبد الله، حتى سقط، ورأسه مشجوج تسيل منه الدماء، والضربات تنهال بجنون عليه .

وبعدها جرى ضرب العنبر كله! حتى أطلق عليه المعتقلون اسم «يوم الأربعاء الدامى» يوم أشرف الدكتور اسماعيل صبرى عبد الله على الموت، وكذلك أشرف على الموت عدد آخرون، وأغمى على ثلاثين معتقلا كلهم من عنبر واحد هو عنبر «١»!

***

ويستمر طابور الصباح «لتحسين الصحة» حسب تعبير اللواء همت! وفى صباح يوم من أيام شهر مايو ١٩٦٠، صدرت الأوامر لجميع نزلاء المعتقل بعمل الحركة الرياضية المعروفة باسم «ضغط»، ولكن بأسلوب مخيف يؤدى إلى الموت! ويصف إلهام سيف النصر ما حدث فيقول:

«على الأرض استلقى عدة مئات! عنبر بعد عنبر، ستة عنابر! كان المطلوب أن يركعوا ووجوههم صوب الأرض، ثم يرفعوا أجسادهم بسواعدهم، وهكذا دواليك. اسم هذه الحركة الرياضية «ضغط»، ولكن المشكلة أن كل معتقل كان عليه أن يؤديها بدون توقف! حتى يأمر الضابط بالتوقف!

وبطبيعة الحال فإن الجميع عجزوا عن المواصلة، وبعد عدة مرات أخذوا ينهارون، فجميعهم. كما يقول إلهام سيف النصر» جوعى، ومنهكون، فالطعام عدة حبات من فول، وثلاثة أرغفة من خبز، والعمل قاس فى الجبل.

وهنا جاء دور السجانة! فعندما عجز المعتقلون عن أن يرفعوا أجسادهم، أمر ضابط السجن واسمه مرجان رجاله بأن يسيروا فوق ظهور المعتقلين! ويقفزوا من فوق جسد إلى آخر! وعندما أصيب بعض المعتقلين بالإغماء، أمر مرجان رجاله بضربهم «حتى يفيقوا»!

ويروى إلهام سيف النصر أنه في يوم الغناء، «بعد أن ساقتنا العصى والهراوات للجبل لنقضى فيه يوم الأربعاء الدامى، بقى سعد زهران فى الأوردى» لأنه كان بقدم واحدة ومن المتعذر عمليا أن يعمل فى الجبل بهذه الساق الواحدة. وفى ذلك اليوم زاره الضابط يونس مرعى، وهو من الشخصيات التى اختارها نظام عبد الناصر بعناية لأوردى أبو زعبل، فهو- كما وصفه إلهام سيف النصر- : «القاتل البهلوان، يقتل فى جنون وهو يضحك ويدمر! وهو يقفز فى مرح! يضرب وهو يلقى بالنكات! وجهه، ككل مدمنى الحشيش، جامد كقناع من شمع، والعيون حمراء متسعة الحدقات، واليد ترتعش، والفم لا يفرز إلا أدنأ الكلمات وأقذرها»!

زاريونس مرعى هذا سعد زهران فى الأوردى، «ليضربه على القدم الوحيدة بعد أن رفض الغناء، حتى أعجزه عن الحركة تماما لمدة أيام!

وكانت طريقة الضرب أنه كان يأمره بالوقوف على قدمه الواحدة، ثم يركله، فيتعثر ويقع! فيفرض عليه أن ينطرح على ظهره، ويرفع قدمه، ليتلقى ضربات الشوم على بطن قدمه، بحجة أنه لا يجيد السير!

«وفى يوم الغناء أيضاً، عندما عدنا من الجبل، استقبلنا يونس مرعى على باب المعتقل بضرب شديد وفردى، واحدا واحدا! وعندما تلقيت نصيبى، لاحظ يونس مرعى أنى على وشك الاغماء بسبب ضربة من شومة أصابت كليتى اليمنى، فسألنى: لديك طلبات؟ وأجبت: أريد علاجا طبيا، فقد أصبت فى كليتى!. وكان العلاج الطبى أن أمر يونس مرعى الشاويش عبد السلام، القوى العضلات، بأن يضربنى على قفاى ثلاثين صفعة!» حتى يتعادل الألم فى الرأس مع الألم فى الجسد، فلا أصاب باغماء! ـ على حد قوله!

«الزحف المقدس» فى الأوردى .. وطرق تعذيب أخرى!

الوفد فى ٢٨/١٠/١٩٩٦

لم يعرف التاريخ ثورة نكلت بمخالفها فى الرأى من المثقفين والمفكرين وأصحاب الرأى كما فعلت ثورة يوليو، فى سبيل احتفاظها بالسلطة والانفراد بها. لقد فعلت النازية ذلك لأسباب عنصرية واقتصادية معروفة، ولكنها لم تفعل ذلك لخلاف فى الرأى بينها وبين اليهود! وفعل الأسبان ذلك فى محاكم التفتيش لأسباب دينية، ولكن أيا من النازيين والاسبان لم يزعم أنه ثورة تقدمية ديموقراطية كما زعمت ثورة يوليو!

لقد انفردت ثورة يوليو بهذا التضليل، الذى أصبح سمة خاصة تميز الناصريين، لدرجة أنهم اليوم يتصدرون صفوف المدافعين عن حقوق الإنسان! بل ويترأسون هذه الحركات! متصورين أنهم بذلك يخدعون شعبنا! وينسون أن شعبنا لا ينخدع، وأنه يعرف أسماءهم وأشخاصهم وتاريخهم الأسود!

ولكن المؤسف حقا أن من ذاقوا النكال على يد ثورة يوليو، ومن جردتهم هذه الثورة من آدميتهم وانسانيتهم، يتصدون للدفاع عنها بكل حماس، وقد نسوا ما لقوه على يدها من هوان وإذلال! الأمر الذى دعانا إلى القول بأنهم أصيبوا، مثل سجانيهم، بالسادية، وهى الاستمتاع بالتعذيب، والشعور بالعرفان للجلادين لدرجة الدفاع عنهم!

ولكن واحدا منهم، وهو إلهام سيف النصر، لم يغفر لجلاديه، وقام بفضحهم فى كتابه: «فى معتقل أبو زعبل»، الذى سجل فيه التجربة البشعة التى عاشها سجناء الرأى فى «أوردى» أبو زعبل، وكان غرضه الذى أوضحه بجلاء فى كتابه، هو منع تكرار هذه الجريمة. أو على حد قوله: «إن فضح الجريمة، وكشف خيوطها وأركانها، هو الأسلوب الوحيد لمنع تكرارها، من أجل ألا يحدث ما قد حدث بعد ذلك قط».

وهذا هو الغرض الذى نتغياه من هذه المقالات، وهو ألا يتكرر ما حدث أبدا، وتعبئة رأى عام قوى يعرف ما يمكن أن يجره عليه الحكم الدكتاتورى الذى يغيب منه القانون - فيتصدى لمنع تكراره فى مصر مهما كانت التضحيات!

فما رويناه فى معتقل أوردى أبو زعبل من انتهاك فظيع لحقوق الانسان ولآدميته، لم يرد فى أى قانون، حتى ولا قانون الغاب، ولم يعرفه مجتمع متحضر، ولم يكن له أى مبرر، فلم يرفع هؤلاء المعتقلون سلاحا ضد ثورة يوليو، بل إنهم كانوا يتوهمون أنهم قريبين من أفكارها، وأنه لا يوجد تناقض بينهم وبينها! وأكثر من ذلك إنهم كانوا يعتبرون أنفسهم «حلفاء» و «قوة وطنية تسند الحكم الوطنى الموجود»! ولكن مجرد الخلاف فى الرأى بينهم وبين الثورة حول الديمقراطية والمزيد من التحول الاجتماعى، كان كافيا فى نظر زعيم هذه الثورة لاعتقالهم ووضعهم فى أوردى أبو زعبل بدون أن يصدر حكم واحد ضدهم!

وكان فى وسع عبدالناصر الاكتفاء بحرمان أصحاب الرأى المخالف من حريتهم واعتقالهم فى سجون آدمية، ولكنه نكل بهم تنكيلا، كما لو كان الخلاف فى الرأى أشنع جريمة يمكن أن ترتكب فى حقه، وسلط عليهم نفايات البشرية للانتقام منهم وتشويههم جسديا وروحيا!

وكل ذلك فى الوقت الذى كان عبد الناصر يخدع العالم الثالث كله ويوهمه بأنه بطل وطنى تقدمى، ويتبادل الزيارات مع زعماء العالم التقدميين! بل إنه عندما فاضت روح شهدى عطية الشافعى فى يونيو ١٩٦٠ ، كان فى بريونى فى زيارة لتيتو، ولم يحركه إلا عندما علم العالم بالفضيحة بعد أن نشرت جريدة الاهرام نعيا له فى صفحة الوفيات مع أبيات من الشعر تشير إلى أن وفاته كانت استشهادا.

ولا يعرف إلى الآن كيف نشرت الأهرام الخبر، رغم الرقابة المفروضة على الصحف وقتذاك! ولكن نشر الخبر بهذا الشكل والدوى الذى أحدثه فى العالم التقدمى، كان هو الذى ضغط على يد عبد الناصر لايقاف مذبحة أوردى أبو زعبل، فى محاولة لغسل يده من الجريمة. وفى ذلك يقول إلهام سيف النصر: «فجأة، وبعد ركود طويل، وأذن لا تسمع، وعين تتجاهل، تحركت السلطة السياسية تتدخل!».

ومن هنا أليس غريبا أن يتصدر رجال هذه الثورة اليوم الدفاع عن حقوق الانسان، كأنهم وهبوا حياتهم منذ الميلاد لهذه القضية النبيلة السامية، ولم تتخضب أيديهم بدماء التعذيب والشهداء؟

إن ما أورده إلهام سيف النصر من طرق التعذيب التى اخترعتها العقلية الجهنمية لزبانية عبدالناصر، يستحق أن يعرفه شعبنا، ويعرفه الشباب الناصرى المخدوع بالشعارات المضللة الحالية للحزب الناصرى، لكى

يعرف جانبا مهما من جوانب تاريخ ثورة يوليو بدون تزويق، من واقع الوثائق التاريخية الصادقة، وهو الجانب الخاص بامتهانها لأبسط حقوق الانسان.

لقد أورد إلهام سيف النصر من طرق التعذيب التى اخترعها زبانية ثورة يوليو ما أطلق عليه الزبانية اسم طريقة «البيانو»! وبمقتضاه كان يطلب إلى سجناء الرأى من المعتقلين أن يناموا على الأرض، ليمر حارس يضربهم واحدا بعد الآخر على طريقة البيانو! وتكون صرخات الألم المتنوعة التى تنبعث منهم بديلا عن صوت البيانو!

وربما كان أشنع من طريقة البيانو» ما أطلق عليه الزبانية اسم «لف للتفتيش»! وهى تطوير لعمليات الضرب الجماعية واليومية، وبمقتضى هذه الطريقة كان على سجناء الرأى عند سماع كلمة «انتباه» أن يستديروا صوب الحائط، وينحنوا بصدورهم ورءوسهم، لكى يتيحوا للحراس فرصة التحكم فى توجيه الضربات. ثم كان عليهم أن يدوروا فى أماكنهم كالساعة، وبسرعة، وظهورهم منحنية، وأقدامهم وحدها هى التى تتحرك تدفع أجسامهم للدوران فى تلك الحركة المجنونة الغريبة، بينما يمر السجانة جيئة وذهابا ينزلون بالشوم والعصى على الظهور والرءوس التى تدور!

ويقول إلهام سيف النصر إن الغرض من هذه الطريقة المجنونة، إلى جانب المهانة والتحقير، إجبار سجناء الرأى على الإتيان بحركة البهلوانات، وإتاحة الفرصة للحراس لكى يضربوا كما يحلو لهم وفى أى مكان يتصادف وجوده أمامهم! والفرصة لأن يتضاعف تأثير الضربات بالانهاك، «والفرصة لأن يسقط أحدنا دائخا أو مصابا، فيفتح الفرصة عندئذ لضرب جماعى أو فردى جديد عنيف لمن تحدى الأوامر وسقط منهكا أو مصابا!».

وبعد أن أتقن سجناء الرأى حركة «لف للتفتيش» وأصبحت روتينا يوميا يعاد عدة مرات فى كل عنبر، شهدت جدران الأوردى اختراعا آخر لزبانية التعذيب هو الذى أطلق عليه اسم «الطابور الرياضى»!

وبمقتضى هذا الاختراع، كان العنبر يخرج بأكمله يوميا بحجة الرياضة، ولكن الهدف الأساسى هو التعذيب. فكان يطلب إلى سجناء الرأى القيام «بحركة الضغط» الرياضية، وذلك بالانطراح أرضا، ثم رفع أجسادهم فوق سواعدهم وخفضها عدة مرات.

وفى حركة الضغط الرياضية العادية يكون رفع الجسم وخفضه فى حدود القدرة البدنية، ولكن حركة الضغط الرياضية فى أوردى أبو زعبل، تقوم على الاتيان بالحركة حتى تعجز السواعد، وتتخدر الأجساد، وعندئذ يعدو الحراس على ظهور سجناء الرأى بالضرب، بحجة «عدم تنفيذ الأوامر»!

ولا تنتهى حركة الضغط عند هذا الحد، وإنما يقوم سجناء الرأى، بعد أن تخور قواهم، بعدة حركات أخرى تكميلية، يصفها إلهام سيف النصر فيقول: «ننطرح على ظهورنا، ونرفع سيقاننا عشرات المرات! أو نعدو فى حلقة ضيقة حتى نفقد الأنفاس! أو نهبط وننهض حتى نقع خائرين! وببساطة، تحويل أية حركة رياضية فى «طابور الصباح» إلى تعذيب وإنهاك متصل!».

وقد كان بعد نجاح «طابور الصباح» أن تقدم زبانية التعذيب فى عصر عبد الناصر باختراعات تعذيبية أخرى، أطلقوا على أحدها اسم «الزحف المقدس»! وهو - كما وصفه إلهام سيف النصر - «أن نهبط بأجسادنا بشرط ألا نلمس الأرض، مرتكزين على أقدامنا فقط، ثم نرفع سواعدنا لأعلى، ونبدأ بالتحرك من هذا الوضع الغريب بأقدامنا، خطوة بعد الأخرى، لمئات الأمتار! نسير وأيدينا مرفوعة، شبه جالسين، وأقدامنا تئن من الألم»!

أما لماذا أطلق زبانية التعذيب على هذه الطريقة التعذيبية إسم «الزحف المقدس»، فلأنه منبثق من المسيرة الصينية الشهيرة خلال الحرب الأهلية، تهكما وسخرية سوداء!

على أن جعبة زبانية التعذيب كانت ماتزال حافلة بالمزيد، ضاربين عرض الحائط بكل اللوائح التى تحكم الليمانات، بل متعمدين إنتهاك هذه اللوائح لمفاجأة المعتقلين بما لا يتوقعونه! وربما كانت القصة الأليمة التى أوردها إلهام سيف النصر فى كتابه شاهدا على ذلك، وقد استدل بها على أن الهدف الأساسى الذى كان يستهدفه زبانية التعذيب لم يكن مجرد التعذيب، وإنما هو الإبادة! فيقول:

«كنا قد تعلمنا بعض القواعد الاساسية التى تحكم الليمانات كقانون قدسى لا يمكن المساس به، ومن هذه القواعد أن الأمطار تمنع نزول النزلاء إلى الجبل، على أساس أنها قد تمكن مسجونا من الفرار مستغلا ضعف الرؤية.

«لذلك لم يكن غريبا حين نزلت الأمطار والغيوم والبرد مع بداية السنة فى الأوردى، أن سرت فى نفوسنا بهجة، وفى قلوبنا فرحة، فقد كانت الأمطار والغيوم تعنى عدم نزولنا إلى الجبل. وهكذا جلسنا على أرض العنبر وظهورنا للحائط، وأمامنا طويت البطانية ولف البرش.. بطانية رقيقة، وبرش من ألياف خشنة هما الوسادة والغطاء. وعليها استقرت القروانة الألومنيوم.

«ولكن البهجة والراحة النفسية لم يستمرا طويلا. ففجأة فتح باب العنبر، ودخل حسن منير مأمور السجن ورجاله، لنقف للتفتيش، ونتلقى ضربات الشوم فترة! ثم نستقبل أمرا بأن يخرج منا خمسة عشر معتقلا (من نمرة ١ إلى ١٥) إلى فناء السجن!

«ولما كنت أحمل رقم «٦» فقد خرجت فيمن خرجوا، نقف جامدين «إنتباه» تحت الأمطار، ننتظر الفصل الثانى الذى لابد أن يكتمل فى مسرحيات المأمور.

«وفهمنا أن حسن منير قرر ألا نقضى اليوم كما تصورناه، بل قرر أن يعطينا جرعة جديدة من العذاب والانهاك.

«وتوالت الأوامر غريبة مريرة! بعضنا عليه أن يكنس مياه الأمطار، ويسوى الأرض بفروع من جريد النخيل! وبعضنا عليه أن يخلع ملابسه لينزل داخل «بكابورتات» الأوردى وينظفها. وبعضنا عليه تنقية رمال أرض المعتقل وفنائه من الحصى والحجارة!

«وكان تعليق حسن منير على هذه الأوامر: ياأولاد.. كل واحدة من هذه المهام «صنعة» سوف تنفعكم عندما تخرجون من السجن!!

«وسرعان ما اختار لى صنعة فريدة من نوعها. فباشارة من يده تبعته إلى الخارج - خارج الأوردى - ومعى أمين شرف، لنجد أنفسنا فى الطريق المترب الضيق، الذى كانت تدور عليه أحداث «التشريفة»! ويمتد أمام مكتب المأمور. ثم تقدم سجان يعطينا، أمين شرف وأنا، «كوزين» صغيرين من النحاس أو الصفيح. وسمعنا الأمر: - ياأولاد، عليكما بنزح المياه المتجمعة على الأرض، وإفراغها فى ذلك المجرى!

«ووقفنا ذاهلين لا نكاد نصدق أعيننا: الطريق الملىء بالحفر قد امتلأ بمياه الأمطار، والأمر يعنى أن نملأ الكوزين من هذه المياه لنفرغهما فى مجرى مائى صغير مواز للطريق، ليستعمل فى رى الحديقة المحيطة بمكتب المأمور والضابط!

«وبعد شومتين نزلتا على ظهرينا، أفقنا لنبدأ فى تنفيذ «الصنعة» الجديدة! وهكذا مر اليوم كاملا، من حوالى الثامنة صباحا إلى الخامسة

مساء، نملأ الكوز ونفرغه، ننحنى، وننهض، ونفرغ الكوز، ثم نبدأ من جديد!

«مرت ساعات النهار كلها، ونحن ننفذ عملا مجنونا، وأمرا مستحيلا، والأمطار تسقط علينا، والجوع والاعياء يجتاحنا!..».

الطاحونة الدموية في جبل أبو زعبل !

الوفد فى ٤/١١/١٩٩٦

تحت ستار التقدمية والاشتراكية استطاعت النظم الفاشية التى ظهرت فى العالم العربى بعد الحرب العالمية الأولى، تقديم نفسها للعالم الثالث فى صورة نظم وطنية تقدمية، وكانت الانقلابات العسكرية على رأس هذه النظم، ومنها إنقلاب يوليو العسكرى الذى خدع الجميع، وإن كان لم يخدع الحزب الشيوعى المصرى برياسة الدكتور فؤاد مرسى، الذى أصدر منشورا يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٢ تحت اسم «الخدعة الكبرى»، حلل فيه الانقلاب بأنه «انقلاب عسكرى له طبيعة فاشية»! وقد تدعم تحليله بتصرفات الجيش طوال شهرى أغسطس وسبتمبر عندما قام باعدام خميس والبقرى لأول مرة فى تاريخ الحركة العمالية المصرية، واصطدم اصطداما خطيرا مع الحزب الليبرالى الوحيد فى مصر وهو حزب الوفد، وقام بإلغاء الأحزاب فى يناير ١٩٥٣! وبذلك انفصلت الحركة عن الشعب، وأصبحت قيادتها تمثل «عصابة عسكرية». وعندما تكتلت القوى الديمقراطية والتقدمية ضد حركة الجيش فى مارس ١٩٥٤ استطاعت هذه الحركة بالخديعة العودة إلى

السلطة، واعتقال جميع المفكرين والمثقفين التقدميين والديمقراطيين وألقت بهم فى السجون!

وقد ظلت الصفة الفاشية لاصقة بالثورة طوال حكمها، ممثلة فى اضطهادها لأصحاب الرأى المخالف، والتنكيل بهم، وتعذيبهم بأبشع مما تفعل النظم النازية والفاشية، على الرغم من أنهم لم يحملوا سلاحا ضدها، ولم يشكلوا أى خطر عليها، وإنما كانت جريمتهم الوحيدة هى الرأى المخالف!

ومن هنا كان من الضرورى إلقاء الضوء على هذا الجانب الفاشى لثورة يوليو، حتى تكتمل صورتها التاريخية بعيدا عن الزفة الدعائية التى يسوقها الناصريون، والتى ذهبوا فيها إلى حد التصدى لحماية حقوق الانسان، وهم يعلمون أن حقوق الانسان المصرى لم تمتهن فى أى عصر من عصور التاريخ المصرى كما امتهنت فى عصر ثورة يوليو!

فقد كان إلهام سيف النصر حريصا فى صفحات كتابه، وهو يتحدث عن تجربته البشعة مع رفاقه، على عقد المقارنات بين زبانية أوردى أبو زعبل وزبانية المعتقلات النازية! ففى حديثه مثلا عن الصول مطاوع فى أوردى أبو زعبل يقارنه بالصول «كوخ» صول معتقل «بوخنفالد»[1]! والصول «ايرماجرس» صولة معتقل بلسن[2] التى أسموها «ذئبة بلسن»[3] خلال محاكمة مجرمى الحرب فى براندنبرج! وفى حديثه عن الضابط حسن منير يسترعى نظره«الكاب» الذى استقر على رأسه، ويقول إن هذا الكاب «ذكره بالكاب النازى الحاد الذى كان يضعه رجال العاصفة والجستابو على رؤسهم!

---

(١) Buchen wald.

(٢) Belsen.

(٣) كان الذى أطلق عليه اسم «وحش بلسن» Beast of Belsen هو جوزيف كرامر. أما اسم «ذئبة بوخنفالد» - وليس «ذئبة بلسن» فقد أطلق على زوجة كوخ: ايلزا كوخ Frau Ilse Koch.

وهذه المقارنة بين زبانية أبو زعبل وزبانية المعتقلات النازية نراها أيضاً فى كتاب «رسائل الحب والحزن والثورة» للدكتور عبد العظيم أنيس، الذى سيأتى دوره فى هذه السلسلة من المقالات، فيقول بالحرف الواحد: «إن تجربة الأوردى، بما تعنيه من تعذيب يومى، وإهدار لآدمية المعتقلين، وعمل كالسخرة فى جبل أبو زعبل، ثم قتل لعدد من زملائنا، إنها باختصار ـ تكرار لما صنعته النازية فى خصومها السياسيين فى معتقلات أوروبا المشهورة*، ولم يكن لينقصها لتصبح الصورة مطابقة تماما غير غرف الغاز».

هذا الاتفاق على تشبيه تجربة الأوردى فى العصر الناصرى بتجربة المعتقلات النازية فى عصر هتلر، هى دليل لا ينقض على الصورة الحقيقية للنظام الناصرى، مهما تحقق فيه من انجازات لا تنكر! فقد كان للنظام النازى فى ألمانيا إنجازات! وكان للنظام الفاشى فى ايطاليا إنجازات أيضاً! ولكن الفيصل فى تحديد صفة أى نظام هو الحرية: حرية الرأى والقول والخطابة والاجتماع وغيرها، وهو احترام حقوق الانسان وآدميته.

ويكفى أن يقرأ القارىء عن «تجربة الجبل» فى أوردى أبو زعبل ليكون الصورة الصحيحة عن النظام الناصرى دون تزويق! ففى الجبل ـ كما يقول إلهام سيف النصر ـ «كانت الحلبة التى اختارها حسن منير لنفقد آدميتنا، وفى الجبل سالت دماؤنا، ووطئت كرامتنا، وامتهنت أجسادنا، وأشرف على الموت العديد منا. وفى الجبل كان العذاب الأكبر!».

ويروى تجربة الجبل على النحو الآتى:

«قبل الفجر استيقظنا كما كنا نستيقظ كل يوم: دورة المياه، ثم تطبيق البطانية والبرش، ثم انتظار أن يفتح العنبر ونتلقى تعذيب الصباح!

---

* أشهر هذه المعتقلات هى: Dachau بالقرب من ميونيخ، و Buchen wald بالقرب من فايمار، و Sachenhausen بالقرب من بيرلين، و Mauthausen القريب من «لينز» بعد احتلال النمسا عام ١٩٣٨، و Auschwitz و Treblin-ka و Belsec فى بولندا و Ravensbrueck القريب من ميكلينبرج، وهو مخصص للنساء.

«ولكن اليوم بدأ مختلفا عن غيره! فعندما فتح العنبر كان الضرب اكثر عنفا، وكانت طريقة «لف للتفتيش» تعاد مرة بعد الأخرى! حتى بدأنا ندوخ وتخور أجسامنا!

«وعندما انتهت العلقة، لم يقفل علينا الباب، وإنما صدرت الأوامر لنخرج إلى فناء المعتقل، لنرى بقية العنابر قد خرجت كلها واصطفت فى ثلاثة صفوف، لنصطف مثلها. ثم يصدر الأمر، فنتحرك، يحيط بنا عدد كبير من الحراس المسلحين، ونخرج من باب المعتقل.

«سرنا ورؤوسنا مطرقة كما علمتنا الأوامر! نشهد ـ خلسة ـ بين الجفون شبه المسدلة، اللواء اسماعيل همت وكيل مصلحة السجون فى سيارة، وحسن منير مأمور الأوردى وضابطه فوق خيولهم، ومن حولنا صفين من حرس مسلح بالبنادق والمدافع الرشاشة، وخلفنا عدد آخر من الحراس بمدفعى «برن»!

«سرنا والقلوب واجفة، والأعصاب مشدودة، حوالى نصف الساعة، لنجد أنفسنا نقترب من حافة هوة كبيرة تمتد عدة كيلو مترات، تحوطها التلال من كل جانب. ودخلنا من فتحة فيها لنجد أنفسنا فى بطن الجبل، ومن حولنا تشمخ جدرانه عدة أمتار، فلا نرى سوى السماء تتوسطها الشمس الحامية، وأشباح سوداء، بعضها ترقبنا والبعض تصوب أسلحتها نحونا!

«بعدها بدقائق بدأت «العملية»! صفارة طويلة أطلقها «الصول»، وما أن انتهت حتى كانت عشرات الشوم والهراوات تهوى علينا فجأة! وتفرقت صفوفنا تجرى مبعثرة! كان الجبل قد امتلأ برجال يلبسون ملابس كاكية هم الحرس الخارجى لليمان، وبدأ هؤلاء ـ مع السجانة ـ الاطاحة بعصيهم فى صفوفنا!

«ثم أطلق الصول صفارة طويلة أخرى، وأخذت العصى تقودنا هذه المرة لنتجمع من جديد! وتكررت العملية مرة بعد الأخرى: الأمر يصدر من صفارة، والشوم يهوى علينا!

«بعد ذلك نزل حسن منير بطن الجبل على جواده، يتبعه ضباطه الثلاثة على خيلهم، وبدأ عملية جديدة!

«هذه المرة تجمعنا فى نهاية الجبل، بعد أن طاردتنا العصى، لنملأ «غلقان» جلدية سميكة بالتراب والحجارة، ويضع كل واحد منا «غلقه» على كتفه، ثم يجرى مئات الأمتار - هى طول الجبل - بين صفين طويلين من الحراس بطول الطريق، تهوى هراواتهم وشومهم عليه، ليفرغ الغلق فى طرفه الآخر! ثم يعود ليبدأ من جديد!

«ذلك يحدث، والضباط يتابعوننا بجيادهم الراكضة، وأقدامنا الحافية تدمى من شظايا البازلت الحاد المسمومة، وصدورنا تتحشرج من العدو المتصل!

«وكان سيىء الحظ من وقف لحظة يلتقط نفسا، أو تعثر ووقع، أو سقط منهكا، أو يئس فتوقف - عندها يتعرض لعقاب فردى شديد حتى يعود ليبدأ من جديد!

«لساعة كاملة، استمرت العملية، لتدوى الصفارة لنتجمع، وننتظم فى صفوفنا الثلاثة، ونعود للأوردى.

«وعند باب «الأوردى» تم تفتيشنا واحدا واحدا، وضربنا واحدا واحدا!

«وكانت هذه هى البروفة!

«وفى المساء، قاد حسن منير بنفسه عملية الضرب وعملية «لف للتفتيش» المعتادة كل ليلة - وفى صباح اليوم التالى، قاد نفس العملية الصباحية!

«ثم نزلنا للجبل من جديد، ولكن وقت «العمل» فى هذه المرة كان عدة ساعات! بدأت بالصباح وانتهت بالغروب.

«ولم تنته بانتهاء اليوم، وإنما توالت الأيام! وكل يوم يحمل الجديد من ألوان العمل»!

«بدأنا نقطع الأحجار بالعتلات والشواكيش والمطارق الحديدية، وبدأنا نتعلم كيف نورد «المقطوعية»، وهى ثمانية غلقان مملوءة عن آخرها بالبازلت!

«وبدأنا ندرك أن أى تحرك لا يكون إلا عدوا، وأن للحارس الحق المطلق فى مضاعفة المقطوعية إذا أراد، وأن يضرب إذا أراد!

«وبدأنا نفهم أن الهدف هو الانهاك، والضرب حتى التعجيز، وقد يكون الموت!

«ومع الحقيقة التى فهمناها، عشنا العذاب الأكبر.. أيام لا تريد أن تنتهى، تهشمت فيها ضلوع وأطراف الكثيرين، وتحولت الأجساد إلى كدمات زرقاء، وجروح متقيحة، وأورام والتهابات!».

كانت تجربة الجبل عملية مجنونة بكل المعايير ـ كما يرى القارىء! ففيها ـ كما كتب إلهام سيف النصر ـ كان سجناء الرأى العزل من السلاح، ينقلون أطنانا من طرف الجبل إلى الطرف المقابل، ليعودوا وينقلونها من جديد إلى الطرف الذى بدءوا منه! وقد نقلوها على أكتافهم وهم حفاة الأقدام عدوا على شظايا البازلت الحادة والمسمومة، تلاحقهم ضربات الشوم والهراوات بين صفين طويلين من الحراس، ووراءهم الضباط يتبعونهم بجيادهم الراكضة، فإذا وصلوا إلى طرف الجبل المقابل، عادوا يحملون أطنان البازلت من جديد إلى الطرف الذى بدأوا منه! تلاحقهم الهراوات والشوم والخيل الراكبة!

هذه «الطاحونة الدموية» - كما أسماها إلهام سيف النصر بحق، لم يكن هدفها التعذيب فقط، بل كان هدفها - كما وصف تماما - «سحق الجسد والنفس معا، وتحويل سجناء الرأى إلى مسوخ بشرية لا تفكر إلا فى البقاء»!

لقد كانت خطورة «الطاحونة الدموية» تتمثل فى «العبثية» التى انطوت عليها! والتى رأيناها فى نقل سجناء الرأى مئات الأطيان من طرف الجبل إلى الطرف الآخر، وإعادتها من جديد، وتكرارهذه العملية القاتلة كل يوم بلا هدف ولا نتيجة!

وهى مستقاة من النظم النازية فى التعذيب عندما كان يستهدف قتل الروح قبل قتل االجسد! ففى النظام النازى كان يطلب إلى المعتقلين بناء حائط ضخم، فإذا أتموا بناءه، طلب إليهم هدمه! وتعود عملية البناء والهدم - «أو الطاحونة» كما أطلق عليها إلهام سيف النصر - ولكن الفرق بين الطريقة الناصرية والطريقة النازية هى أن الطريقة النازية كانت أكثر تحضرا، إذ كانت تكتفى بعملية البناء والهدم، تيقنا من أنها كافية بكل ما فيها من عبثية لقتل روح المعتقل وإصابته بالجنون! وهو ما كان يحدث بالفعل، حيث أصيب معظم من قاموا بهذه العبثية بالجنون! ولكن العملية الناصرية لم تكن تكتفى بعملية البناء والهدم، وإنما كانت العملية تتم تحت ضربات الشوم والهراوات التى تلاحق من كانوا يقومون بنقل الجبل من طرفه إلى طرفه الآخر، وإعادة نقله من جديد!

ولم ينقذ سجناء الرأى فى «أوردى» أبو زعبل من الجنون إلا إدراكهم الهدف من «الطاحونة الدموية»، وفهمهم الواعى لحركة التاريخ. وفى ذلك يقول إلهام سيف النصر: «كل هؤلاء الذين ظنوا أنهم بتلك الطاحونة الدموية

قد توصلوا إلى أسلوب تحطيمنا، نسوا شيئا آخر امتلكناه ولم نفقده، هو الفهم العلمى والثورى للحياة، ذلك الفهم الذى يقول إن الانسان هو الذى يصنع قدره، وإن الشعوب تصنع التاريخ، وإن التاريخ لا يمكن وقف مسيرته، ولا يمكن أن يوقفه كائنا من كان.

«وكان أن بدأنا معركة الصمود».

وعلى أيدى هكسوس عبدالناصر تبدلت أجساد المعتقلين!

الوفد فى ١١/١٢/١٩٩٦

ماذا فعلت معتقلات عبد الناصر فى سجناء الرأى بعد شهرين فقط من الاعتقال والتعذيب البدنى اليومى المستمر؟ لقد وصف إلهام سيف النصر هذه المتغيرات وصفا بليغا ـ كما لاحظها فى نفسه ـ قائلا: «حاسة الشم قد تغيرت، فالرائحة الكريهة لا نشمها! حاسة اللمس تغيرت، الأصابع جافة سوداء مليئة بالبثور! حاسة السمع أرهقت وشوهت: لا تسمع تغريد العصفور، ولكن فقط منتبهة لدبيب أقدام السجانة وهم يتسللون قبل اقتحام العنبر! حاسة التذوق انعدمت: لا تعاف القذارة، ولا تأبه ـ بسبب الجوع ـ للحشرات والذباب! حاسة البصر تهالكت من طول استمرار اللون الواحد الرمادى فى العنبر، والأصفر الملتهب فى الجبل! الجلد مشدود أسمر، وأعصاب مرهقة كأوتار شدت حتى درجة الانفجار! والعقل لا يفكر والغريزة تسيطر، تريد البقاء، وتتجنب التهلكة، وتقود الجسد، الذى أصبح كالحيوان المطارد، يحاور الموت ويناوره. وصف «الانسان» يختفى، ويحل مكانه وصف آخر!

ولكن مع طول التعذيب على مدى شهور حدث تغير غريب لم ترسمه وتخططه عقول سجناء الرأى، وفيهم أكبر مفكرى البلد، وإنما خططت له الغريزة ـ كما يقول إلهام سيف النصر! لقد لاحظ أن الجسد من أجل البقاء، تبلغ قوة تحمله أحيانا حدا يفوق الخيال! كما أنه يتأقلم مع كل الظروف!

فعلى أثر إيقاف االتعذيب بعد مقتل شهدى عطية االشافعى، اكتشف سجناء الرأى فجأة مدى التغيرات الجسمانية التى اكتسبتها أجسادهم. فعندما سمح لهم بالزيارات، وحاولوا مقابلة أهاليهم وفى أقدامهم أحذية، اكتشفوا أن قدما واحدة لم تستطع أن تحتذى حذاء! لقد تغيرت أقدامهم حتى لم يعرفوها! وعلى حد قوله:

«القدم كبرت وزاد حجمها، تفلطحت، واكتسى باطنها بجلد سميك يمكن أن يخترقه دبوس حاد عدة ملليمترات قبل أن يشعر صاحبها بوخز الدبوس!

«لقد فرضت الطبيعة على الجسد قدما أخرى! قدما تستطيع أن تمشى على الأسفلت المتوهج بالحرارة دون أن تحس! وأن تطأ على شظايا البازلت المسمومة دون أن تدمى! وأن تتلقى على باطنها العقاب الفردى الذى لا يقل ـ عادة ـ عن ثلاثين شومة، دون أن تتهشم!

«ولم تكن القدم وحدها هى التى تبدلت، وإنما تبدلت أعضاء وأجهزة عديدة فى الجسد لتلائم الظروف التى فرضت عليها!

«فالأذن أصبحت مرهفة، ولكن لنوع معين من الأصوات! ففى كل عنبر من عنابر «الأوردى» ظهر معتقل سماه زملاؤه: الرادار! ذلك أنه يستطيع أن يستمع دبيب أقدام الحراس وهم يتسللون من بعيد، ويحدد أين يتجهون، وأى عنبر يقصدون، ويعطى الانذار!

«والعضلات أيضاً تغيرت! فالجرى المستمر، وطوابير التعذيب التى أطلق عليها اسم: «طوابير الرياضة»! والعمل فى الجبل ـ قد أكسبها قدرة على

التحمل وصلابة ونموا، لدرجة أن الغريزة قادت هذه العضلات لتتركز وتنمو فى الأماكن التى تنزل عليها عادة ضربات الشوم والهراوات: أى الظهر والقدم والأكتاف!

«كما أصبحت الأجساد مرنة لماحة! فهى تتفادى الضربات فى ذكاء، وتحمى موطن الخطر الذى هو أساسا الرأس، فى نبوغ ومرونة!

«بل إنه شيئاً فشيئا انتقلت مشكلة التعذيب من المعذَّب إلى الجلاد! فكل منهما أصبح خفيف الحركة كالغزال، مرنا، تزداد طاقة تحمله يوما بعد يوم، وأصبح ضرب الأجساد واصطيادها ومطاردتها مشكلة للجلاد تحتاج إلى مجهود وتعب! حتى لقد انتشرت نكتة بين صفوف المسجونين تقول: «إننا لن نموت قبل أن يموت السجانة من مجهود الضرب»! و «حنموتهم من الضرب»!

«وشيئا فشيئا تحملنا ليالى الشتاء ونحن عرايا على الأرض، لا نرتجف! وجحيم الصيف ونحن نعدو فى الجبل، ولا نسقط!

«بل إن مشاكل المدينة: السعال، والزكام، والحرارة، والضغط، والصداع - كلها اختفت! الذى بقى فقط هو: كيف يستمر الجسد فى البقاء! لقد تحول الجهاز العصبى كله إلى مرجل يغلى، هدفه التحمل والاستمرار - استمرار الحياة، وتحمل الألم»!

ويذكر إلهام سيف النصر أن طبيب السجن اكتشف خراجا فى ضرسه، وأمر بنقله إلى مستشفى سجن مصر لخلعه، وقبلت المباحث على مضض وبعد مقاومة عنيفة، ولكنها قررت عودته فى نفس اليوم لأبو زعبل، وفرضت ستارا عنيفا وشديدا لعزله خلال فترة تواجده فى سجن مصر. ولكن عندما بدأ طبيب الأسنان فى خلع ضرسه، اكتشف أن مستشفى

السجن لا تحوى أى مخدر موضعى! «واكتشفت أنا أنه علىّ الاختيار بين خلع الضرس بدون بنج، أو العودة إلى أبو زعبل، والانتظار مدة غير محددة حتى أعود. وكان أن خلعت فى ذلك اليوم ضرسين بدون أى بنج! وأذكر أن الألم كان مزعجا، ولكنه كان محتملا!

«وأذكر أن مأمور السجن قرر معاقبة محمود المستكاوى (مهندس) عقابا خاصا، لأنه رفض الغناء يوم الأربعاء الدامى، بعد أن أبلغ الحراس أنه سوف يغنى بعد قفل العنبر فى المساء أغانى أم كلثوم وسيد درويش! وشاهدنا محمود يضرب أمامنا، وعندما نهض من الضرب لاحظنا أنه لا يرى طريقه بوضوح، وأنه يتخبط فى سيره. لقد فقد محمود فى ذلك اليوم إبصار إحدى عينيه نتيجة لانفصال شبكى أحدثته ضربة وجهت إلى رأسه! بعدها نزل محمود إلى الجبل ليعمل، ويتحمل، ويغنى كل ليلة لنا أغانيه الحلوة!

«أذكر أن ممدوح الجندى كان - رغم مرضه وهزاله - ماردا فى الجبل، يعمل للآخرين ويساعدهم، ويقدم المقطوعية مضاعفة لتعويض أى فرد يعجز عن تقديمها!

«أذكر أن عوض الباز، العامل بشبرا الخيمة، كان يصر على أن يطلق ضحكة هادئة طويلة بعد كل تعذيب طويل يناله عنبرنا، ومع ضحكته كانت النفوس تبتسم لتقاوم!

«أذكر أن نبيل الهلالى، وأمين شرف، وشبل إسماعيل، رفضوا فى يوم الأربعاء الدامى، أن ينالوا حقهم فى الراحة، ليتحملوا الضرب بدل آخرين أوشكوا على السقوط إنهاكا أو اجهادا.

«أذكر عبد المنعم شتيلا واحتماله للتعذيب الذى يفوق الحدود! أذكر.. وأذكر.. لقد كانوا بعد الغريزة الفكر الصامد الذى دحر البربرية والارهاب!

ويذكر إلهام سيف النصر، من أمثلة قوة التحمل، يوم رفض الجميع الغناء فى الصباح، وقررت إدارة السجن عقابهم «لقد قادونا إلى الجبل ونحن نعلم أن هولا ينتظرنا، وانتقاما داميا يكمن لينشب أنيابه فينا.

«وتأكدت ظنوننا عندما اقتربنا من الجبل، لنرى صفوفاطويلة من الحرس الخارجى لليمان، تحمل الشوم والكرابيج! قد دخلت الجبل ولا تنتظر سوى الاشارة! فى ذلك اليوم اختفت المقطوعية والروتين العادى، وتركز إرهاب الحرس الخارجى ـ الذى سميناه بعدها «الهكسوس» لضراوته وبدائيته ـ على عنبر «١» الذى بدأ التمرد ورفض الغناء، حتى يكون أمثولة لباقى المعتقل.

«وما إن مرت دقائق معدودة فى الجبل، حتى كان أكثر من واحد منا قد سقط مهشما! فيقد رسمت الخطة فى ذلك اليوم على أساس أن تعمل بقية العنابر فى تقطيع الأحجار، وفرض على عنبرنا أن ينقل جبلا من الرمال والأحجار، من بداية الجبل حتى نهايته! ونفذت الخطة.

«كنا نملأ الغلقان تحت فرقة من السجانة تتولى ضربنا! ثم نعدو بالغلقان المليئة بين صفوف «الهكسوس»، التى تتولى ضربنا، لنفرغها فى نهاية الجبل، ونعود جريا من جديد، لتبدأ العملية من أولها!

«وكان أخطر ما فى هذه الخطة، تلك المسافة التى كان علينا أن نعدوها بين شوم «الهكسوس» غير المدرب على الضرب، والذى يهوى بعصيه أيا كان، مما يزيد الاحتمالات فى أن يسقط واحد منا قتيلا فى أى لحظة. فضربة واحدة على الرأس، من شومة يبلغ سمكها عدة سنتيمترات، تكفى لأن تحدث الكارثة.

«كما أن العدو المستمر بتلك الغلقان المليئة، ولساعات النهار كلها، كان يعنى أن أكثر من شخص لابد أن ينهار، خصوصا أولئك الذين يفتقدون المقاومة الصحية اللازمة.

في ذلك اليوم قسم سجناء الرأى العمل بينهم: مجموعة تحفر، وتملأ الغلقان، وتتحمل شوم السجانة الذين فضلوا التواجد فى نهاية الجبل، ومجموعة تتولى حمل الغلقان والعدو بها فى وسط الجبل تحت ضرب الهكسوس ومواجهة العذاب الأكبر. فقد أسمى سجناء الرأى ضرب السجانة بالعذاب الأصغر، وضرب الهكسوس بالعذاب الأكبر! وكانت فكرتهم النبيلة أن من حق كل واحد منهم أن يتحمل العذاب الأصغر فترة زمنية، حتى يتمالك أنفاسه، ثم يعاود تحمل العذاب الأكبر على يد الهكسوس فى وسط الجبل!

فى ذلك اليوم ضرب اسماعيل صبرى عبد الله المثل فى قوة التحمل، بعد تحديه أمر مأمور السجن بالغناء أغنية «ياجمال يامثال الوطنية»، فقد ظل يضرب فى ذلك اليوم من الصباح إلى المساء حتى شج رأسه! ويقول إلهام سيف النصر إن محمد سيد أحمد «نهض من حيث انطرحنا نتلقى التعذيب والضرب ليتوجه إلى اسماعيل صبرى عبد الله ويسأله عن حاله؟ متحملا كل الهراوات التى تحولت كلها حوله تصب جنونها لتحديه.

والغريب أن التعذيب استمر فى شهر رمضان دون انقطاع، ولم يمنعه دين واسلام! ويقول إلهام سيف النصر إن معتقل أبو زعبل جميعه صام رمضان كاملا ذلك العام رغم الظروف البشعة، «كل العنابر كانت تذهب للجبل وقد تركت فى «الأوردى» جرادل المياه، لتعمل فى جهنم البازلت، وتحت سياط التعذيب، من الصباح حتى الغروب، دون قطرة ماء»! ولكن الضرب خف بشكل ملحوظ، «كان السجانة والحراس ينفذون أوامر الضرب بشكلية وعلى مضض»!

وعندما توقف التعذيب بعد مقتل شهدى عطية، كان على سجناء الرأى مواجهة مرحلة ما بعد التعذيب، ولم تكن تقل بشاعة! فالجهاز العصبى

الذى تحمل الكثير من أجل البقاء، انتهت مهمته، واسترخى، لتظهر الأمراض! وعلى حد قول إلهام سيف النصر:

«عديدون منا ظهرت عليهم أمراض السل، والانيميا الحادة، والقلب، والحميات، والأمراض الجلدية. وكان نصيبى التهاب كبدى حاد نقلت بسببه إلى مستشفى سجن مصر، ثم القصر العينى، لأبقى فيه معتقلا حتى الافراج عنى بعد ذلك بسنتين.

ويختتم إلهام سيف النصر كتابه قائلا: «من عاش تجربة «الأوردى».. من مات هناك، أو تهشم، أو عذب.. هو فى النهاية مصرى، وابن للشعب المصرى. والشعوب كما تصنع تاريخها، لاتنسى من أساء إليها. ومن أجل هذا كتبت هذه القصة كما حدثت».

ولكن الناصريين يريدون لشعبنا أن ينسى ما حدث! ومن أجل ذلك يضللون ويتظاهرون بالدفاع عن حقوق الانسان! بل أصبحوا يتصدرون اليوم صفوف المدافعين عن حقوق الانسان! ومن أجل ذلك أكتب هذه السلسلة من المقالات، فكثيرون من سجناء الرأى الذين تعرضوا لتجربة الأوردى كتبوا، ومن حق شعبنا أن يعرف ما كتبوا، حتى لا ينسى من أساء إليه!

حتى النظام النازى كان يعتبر نفسه نظامًا اشتراكياً!

الوفد فى ١٨/١١/١٩٩٦

كثير من الشباب الذين ضللتهم الدعاية الناصرية التى تطل برأسها فى هذه الأيام، كتبوا إلىّ يبدون انزعاجهم لما عرفوه، من خلال هذه السلسلة من المقالات التى أكتبها عن ثورة يوليو وحقوق الانسان، من إهدار هذه الثورة لحقوق الانسان، رغم شعار «إرفع رأسك ياأخى فقد مضى عهد الاستبداد»، ويتعجبون كيف أنهى ضباط يوليو استبداد فاروق ليبدأوا استبداد ثورة يوليو على شكل أكثر وحشية وهمجية؟ وكيف عومل أصحاب الرأى فى عهد هذه الثورة معاملة المجرمين وقطاع الطرق وأعداء الوطن؟ وقد كتب لى شاب منهم، وهو طبيب، يقول إنه يفهم أن يتصدى الوفد للدفاع عن حقوق الانسان وحرية الرأى، اتساقا مع تاريخه، ولكنه عاجز عن فهم كيف يتصدى الناصريون، الذين امتهنوا حقوق الانسان وحرية الرأى، لهذا الدفاع، مع مخالفة ذلك لتاريخهم!».

وقد رددت عليهم بأنه يجب ألا يفهم من هذه السلسلة من المقالات أن ثورة يوليو لم تحقق إنجازات عظيمة، ولكن المقصود أن يفهم هو وغيره من

الشباب أن هذه الانجازات لم تتحقق على يد نظام ديموقراطى يحترم حرية الرأى وحقوق الانسان، وإنما تحققت على يد نظام نازى لا اشتراكى - كما يحاول اليسار أن يوهم فى تحالفه مع الناصريين!

فالكثيرون لا يعرفون أن النظام النازى كان أيضا يرفع علم الاشتراكية كما فعل النظام الناصرى! بل لقد كان اسم الحزب النازى الذى ألفه هتلر هو اسم «حزب العمال الاشتراكى الوطنى الألمانى»*! وقد حقق هذا النظام النازى لألمانيا من الانجازات فى جميع المجالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ما تتضاءل إلى جواره بكثير انجازات النظام الناصرى! فقد انتشل ألمانيا من براثن الهزيمة التى منيت بها ألمانيا القيصرية فى الحرب العالمية الأولى، وأعادها إلى صفوف الدول العظمى المهابة، ونهض بها نهضة اقتصادية جبارة، كما نهض بها نهضة علمية فى جميع المجالات، وارتفع بالجيش الألمانى من ناحية المعدات والكفاءة العسكرية ما مكنه فى الحرب العالمية الثانية من غزو جميع أوروبا وغزو الاتحاد السوفيتى! ولولا تكالب العالم أجمع على ألمانيا الهتلرية لسادت العالم!

وبمعنى آخر أن تحقيق إنجازات عظيمة لا تعنى صلاحية النظام السياسى إذا كان يمتهن حقوق الانسان وحرية الرأى، وإلا اعتبر النظام النازى أعظم النظم قاطبة، لأنه فى خلال سنوات قليلة أعاد ألمانيا إلى صفوف الدول العظمى بعد أن سحقتها الدول الديمقراطية فى مؤتمر فرساى!

فما بال الأمر إذا كان هذا النظام فى مصر قد انتكس بمصر، وعرضها لأكبر هزيمة عسكرية فى تاريخها على يد دولة صغيرة كانت الدول العربية تطلق عليها قبل هزيمة يونيو اسم «اسرائيل المزعومة»! فى الوقت الذى كان يمتهن حقوق الانسان المصرى ويضطهد حرية الرأى!

(*) National Socialist German WorKer S'party (Nazi party). وبالألمانية National - Sozialistis-che Deutsche Arbeiterpartei

وهذا كان شعور إلهام سيف النصر فى أوردى ليمان أبو زعبل وهو يتلقى وجبة التعذيب اليومية! فقد تعجب كيف يتخاذل النظام أمام اسرائيل، ويستأسد على معارضيه فى الداخل ويذيقهم سوء العذاب! واستغرب كثيرا أن يكون الجلادون «جبناء أمام العدو المسلح، شجعان والضحية مصرى أعزل وحيد أمام قطعان البربرية»! ويقول «ليس الرجل من عذب أهله ومواطنيه، الرجل من ذاد عن أرض الوطن، وكسر بالعزم والتضحية هجمات العدو الشرس، وبذل الدم فى سبيل تحرير الأرض»!

على أن اليساريين نسوا تماما المحنة الرهيبة التى مروا بها وفقدوا فيها آدميتهم، والأسوأ من ذلك أنهم، وهم الأكثر فهما للفروق بين النازية والاشتراكية، خدعوا أنفسهم وتعاملوا مع النظام الناصرى بعد ذلك على أنه نظام اشتراكى! بل وعقدوا تحالفا مع جلاديهم الناصريين، متقبلين زعمهم بأنهم اشتراكيون أيضاً، ومسلمين بهذا الزعم!

وقد برهنوا بذلك على أنهم لا يتعلمون من التاريخ، بل لا يتعلمون من تاريخهم أنفسهم! فمن الغريب أن كل هذا التعذيب الذى وقع على أجساد وأرواح اليساريين فى عهد عبد الناصر، وقع وقت أن كانوا يؤيدون هذا النظام، بل كانوا أكثر القوى السياسية تأييدا له!

بمعنى أنه حين اعتقل النظام الناصرى اليساريين لم يكونوا يعدّون لثورة ضده، أو يؤلبون القوى السياسية المصرية لمعارضته، أو يدبرون جرائم اغتيال لقياداته كما فعل الاخوان المسلمون، بل اعتقلهم وهم يعلنون على كل منبر أنهم أنصاره ومؤيدوه!

فعندما اتهمت النيابة العامة المعتقلين بأنهم يهدفون إلى قلب نظام الحكم، كان دفاعهم القانونى - كما يقول إلهام سيف النصر - ينصب على أنهم كقوة وطنية يسندون الحكم الوطنى الموجود، وأنهم حلفاء للنظام، وإن

كانوا يختلفون معه فى نقاط أخرى لمزيد من الديموقراطية ولمزيد من ضرب القوى الرجعية الاستعمارية ولمزيد من التحول الاجتماعى!

بل الغريب حقا أن موقف اليساريين من حكم عبد الناصر لم يتغير بعد أن فقدوا آدميتهم على يديه، وعذبوا بما لم يعذب به النظام النازى اليهود! فعندما كانت النيابة تحصل على أقوال أحد المعذبين بعد مقتل شهدى عطية الشافعى، وهو دكتور كيماوى اسمه جمال الدين محمد غالى، لم ينس - بعد أن روى وقائع التعذيب التى تعرض لها - أن يختم أقواله بهذه العبارة الغريبة:

«عايز أثبت أنى مازلت، رغم ما حل بى، أؤيد الرئيس جمال عبد الناصر، وأؤيد سياسته، وأعتقد تماما أنه لا يرضى بما حدث لنا، وأنه بغير علمه! ودائما أنا أؤيد الرئيس!!».

على أن إلهام سيف النصر كان أكثر وعيا. ففى حديثه عن مسئولية حسن المصيلحى عن التعذيب قال:

«لست أدعى أن حسن المصيلحى كان هو المحرك الوحيد لعملية أبو زعبل، فلا شك أن الأمر بالعقاب، وأيضا بالانتقام والتأديب، قد صدر من أعلى.. من السلطة السياسية ذاتها!».

ويقول إن وراء عجلة الانتقام كانت الظروف السياسية التى عكست الأزمة العميقة بين عبد الناصر والشيوعيين على المستوى العربى والداخلى، فقد رفعت السلطة السياسية شعارات «تصفية الشيوعية»، وكان يكتبها معلقوها الرسميون وغير الرسميين فى الجرائد والمجلات ووسائل الاعلام.

ويتهم إلهام سيف النصر زكريا محيى الدين بأنه كان الأداة التنفيذية للسلطة السياسية العليا. فقد كان - كما يقول - «معاديا دائما للديموقراطية

والاشتراكية، وممالئا أبدا للغرب وأسلوب الحياة الأمريكية»! وقد كان فى ذلك الوقت وزيرا للداخلية، ولكن «لا شك أن الأمر قد صدر من أعلى بمعاقبة الشيوعيين المشاغبين وتلقينهم درسا»، ولكن تركت تفاصيل التعذيب وجزئيات الانتقام - بما فيها اختيار المكان، وأسلوب التعذيب البدنى والعقلى، وتحديد الجلادين الذين يباشرون العملية - لحسن مصيلحى، الذى يصفه بأنه من النوع الذى يقتل بقفاز من حرير!

وقد كان قفازه - كما هو واضح - اللواء اسماعيل همت، بقدر ما كان حسن المصيلحى قفازا فى يد زكريا محيى الدين! بقدر ما كان الأخير قفازا فى يد عبد الناصر! الذى كان صدامه مع الاتحاد السوفيتى فى ذلك الحين وراء انقلابه على الشيوعيين.

***

وربما كان الخطاب التالى الذى وصلنى من اللواء مصطفى كامل عطيه يفسر كثيرا من ظروف عملية أبو زعبل. فقد كتب يقول:

«قرأت ما كتبته سيادتكم عن سجناء الرأى وتشريفة اللواء اسماعيل همت فى جريدة الوفد. والواقع أن هذه المقالات أصابت كبد الحقيقة لما كان يجرى فى سجون مصر من قهر وإذلال على يد حفنة قليلة من الضباط بلا شعور أو ضمير أو خلق.

«وحاشا لله أن أكتب عن نفسى، ولكنى أذكر واقعة حدثت بينى وبين سيادة اللواء قائد هذه التشريفة - غفر الله له - وذلك فى خلال عام ١٩٥٩ على ما أذكر.

«اللواء اسماعيل همت نقل من القوات المسلحة وكيلا لمصلحة السجون. وعندما فتحت أبواب السجون لاستقبال أفواج المعتقلين على اختلاف

مذاهبهم - فى هذه الآونة اختار السيد اللواء أفراد التشريفة من مجندى الدرجة الثانية، الذين لا حول لهم ولا قوة، وسلحهم بالكرابيج والعصى، ليخوض بهم حملات التعذيب والتأديب، من سجن الواحات إلى قنا مرورا بأبو زعبل! مرة لتأديب الاخوان، وأخرى للشيوعيين، وهكذا!

«كنت أعمل ضابطا برتبة رائد فى مزرعة طرة، واستدعيت على عجل لحضور اجتماع بمصلحة السجون، وذهبت إلى هذا الاجتماع، وكان قائد هذه التشريفة فى صدارة قاعة الاجتماع، وحوله نحو عشرة ضباط. واستهل الاجتماع قائلا إن السيد وزير الداخلية زكريا محيى الدين اختارنا تحديدا لهذه المهمة، وهى مهمة استقبال المعتقلين الشيوعيين المرحلين من سجن الاسكندرية إلى ليمان أبو زعبل، والمطلوب تأديبهم، وعمل «اللازم» معهم - وطبعا «اللازم» معروف سياقا!

«وهنا أنطقنى الله سبحانه وتعالى، وأخبرته بأن هذا الاختيار بالنسبة لشخصى ليس فى محله! لأنى لن أعذب أحدا، وإننى لو أجبرت على ذلك فإننى سوف أذكر ما شاهدته من تعذيب فى أى تحقيق يجرى فى هذا الشأن»!

«وهنا ثار سيادته ثورة عارمة، واستدعى مدير تحقيقات المصلحة، وقرر إيقافى عن العمل، مع التحقيق معى لعصيانى أوامره.

«وفى أثناء التحقيق اتصل سيادته بمدير المصلحة، الذى كان فى أجازة بمنزله، عارضا عليه أمرى. وفوجئت باعفائى من هذه المأمورية، وعودتى إلى عملى!

«وفجأة تغير سلوكه نحوى، وعدنا للاجتماع، وطلب من الزملاء ترشيح ضابط آخر بدلا منى، فاقترح زميلى ودفعتى (ع.ر)*رحمه الله وغفر له.

---

* ع. ر. الحروف الأولى للضابط عبداللطيف رشدى، قاتل شهدى عطية.

«وعلمت من زملائى أنه فى اليوم التالى لهذا الاجتماع، استقبل المعتقلون الشيوعيون فى ليمان أبو زعبل بصفين تشريفة، من المجندين حاملى العصى والكرابيج، وذلك إبتداء من بوابة الليمان حتى باب العنبر!

«وهنا تبدأ سيمفونية التعذيب، فيمر المعتقلون بين صفى الجنود، والكرابيج والعصى تؤدى مهامها بلا شفقة ولا رحمة!

«وكان من ضمن المعتقلين المرحوم شهدى عطية، رحمه الله. فقد أخذته العزة، فلم يسرع الخطى، فلحقه نصيب وافر من الضرب والأذى، ولذلك عند وصول العنبر كانت روحه قد فاضت لخالقها. وتم وضع الجثمان فى الثلج تمهيدا لدفنه فى اليوم التالى.

«قام لواء التشريفة بإخطار السيد وزير الداخلية بالاسكندرية، بأنه قد تم تنفيذ المطلوب، «وكله تمام» ! ولكن لسوء حظ السيد اللواء أن كان بينه وبين ضباط أمن الدولة ود مفقود، فأخطر أمن الدولة الوزير بأن التعذيب أودى بحياة المعتقل شهدى عطية، وقام والد المرحوم شهدى عطية وزملاء الفقيد بارسال برقيات للرئيس الذى كان ببريونى، والصحف العالمية.

«وانتهت أسطورة اللواء اسماعيل همت باحالته للاستيداع قبل وصول الرئيس لأرض الوطن.

«أما عن زميلى الذى حل مكانى فى هذه المهمة (عبد اللطيف رشدى) فقد انتابته حالة نفسية أودت بحياته، خشية تقديمه وزملائه للقضاء.

«أما التحقيق فقد حفظ! كيف؟ الله أعلم!

«رأيت أن أكتب لسيادتكم بعضا مما كان يحدث لأصحاب الرأى، نسأل الله تعالى أن يرحمنا برحمته».

«أم دومة ـ طما ـ لواء بالمعاش: مصطفى كامل عطية».

إنتهى خطاب اللواء مصطفى كامل عطية، وهو يضىء بعض جوانب عملية ليمان أبو زعبل، وكذلك العلاقة بين ثورة يوليو وحقوق الانسان وأصحاب الرأى. ولكن الجعبة مازال فيها الكثير لتصحيح تاريخ ثورة يوليو، ووضعها فى مكانها الصحيح بين الثورات المصرية. فقد كانت قبلها ثورتان فى التاريخ المعاصر هما: الثورة العرابية، وثورة ١٩١٩، ولم ينسب أحد لهاتين الثورتين ما نسب لثورة يوليو من انتهاك لحقوق الإنسان!

رحلة
فى القرون الوسطى !

الوفد ١٩٩٧/١١/٢٥

«إجرى.. إجرى.. إجرى» !

«الكرابيج والعصى الغليظة لا تترك فرصة لتفكير» !

«إركع .. إركع.. إركع» !

«وضربات الشوم و «دبشك» البندقية لاتكف عن العمل فى جسدك! ونار هائلة مشتعلة تكاد تشم منها رائحة أجساد بشرية تشوى. وبعض رؤساء القبائل أكلة لحوم البشر «تجلس فى انتشاء وهى تتفرج على الفريسة!»

هكذا يبدأ الدكتور فتحى عبدالفتاح ذكرياته عن يوم ٨ نوفمبر ١٩٥٩ فى معتقل الواحات، فى كتابه المعروف: «شيوعيون وناصريون» الذى يروى التجربة البشعة، ويصف زبانية عبدالناصر بأبلغ وصف، وهو أنهم من القبائل البدائية أكلة لحوم البشر!

ويمضى فى وصف أحداث يوم ٨ نوفمبر ١٩٥٩ ، ويروى رحلته البشعة مع استجواب القبائل البدائية له على النحو الآتى:

- «اسمك ايه يا ولد» ؟

وسواء أجبت أو لم تجب، لابد أن تنهمر عليك الضربات من كل مكان، وبكل وسيلة - بما فيها ركلات الأحذية الميرى» !

- بتشغل ايه يا بن الـ..

«والشوم» والدبشك والأحذية لاتكف عن العمل!

- عاملى سياسى يابن الـ..؟

- قول: «أنا مرة!» .. قول: «أنا كلب!» قول: «أنا حمار!» .

ويقول الدكتور فتحى عبدالفتاح : «لم يكن أكثرنا تشاؤما يتصور أن ذلك يمكن أن يحدث! فحين طلب منا فى الصباح الباكر من ذلك اليوم أن يحزم كل أمتعته فى انتظار الأوامر، دارت كل التصورات والتوقعات حول ترحيلة جديدة، ولكن إغلاق الزنازين، والأوامر المشددة بعدم الكلام، ثم ذلك الشحوب القلق الذى يعلو وجه ضباط السجن وعساكره، وحتى قائده - كان يوحى بأشياء مبهمة صعبة التفسير.

«كان كل ما استطعنا معرفته هو أن اللواء اسماعيل همت، وكيل مصلحة السجون، ومعه فرقته الشهيرة «بفرقة همت» قد وصلت مساء أمس إلى الواحات! وكان ذوى الخبرة فى السجون المصرية يعرفون همت بأنه: «ناعم الصوت، رقيق الجسد، أحمر الوجنات، تركى الملامح والجذور، شديد القسوة فى معاملته للرجال وكأن بينه وبينهم ثأرا! ولديه ولع مجنون بتعذيب من يتوسم فيهم رجولة مكتملة! ثم اصراره على أن يقول كل واحد منهم بأنه «امرأة» !

«وبدأت أغرب تمثيلية شهدتها فى حياتى!» .

«ينادى أحد العساكر ستة أسماء، ويخرج الزملاء حاملين معهم كل أمتعتهم، وتمر بعض الدقائق، ثم فجأة نسمع هرولة، وصرخات مكتومة، وصهيل خيل، وفرقعات سياط! ـ وكأننا نسمع موسيقى تصويرية لأحد أفلام المعارك» !

«ثم ينادى على ستة أسماء أخرى! وهكذا!» .

«كان كل ما استطعت أن أصل إليه بانفعالاتى المحتدمة مع الصرخات المكتومة، وصرخات حوافر الخيل، وفرقعات السياط، أن شيئا ما رهيبا يجرى فى الخارج! ولكن ماهو؟» .

«وجاء دورى! ونودى على إسمى مع خمسة آخرين، كان من بينهم الصاغ الدكتور محمود القويسنى، والمهندس الجيولوجى فخرى لبيب،والشاعر محسن الخياط، والطالب الجامعى سمعان، وعامل النسيج محمد عبدالواحد» .

«خرجنا من الزنزانة، ثم من العنبر، فى صف واحد، وأمامنا عسكرى وخلفنا عسكرى، وكل منهما شاهر سلاحه وقبل أن نصل إلى بوابة السجن، التى كانت مفتوحة على مصراعيها، وأمامها صف من الخيالة، ممسكين بسياطهم، وآخرون ممسكين بالعصى الغليظة ـ انسحب الجنديان بسرعة، وأحدهما يقول فى ألم واعتصار» :

ـ «شدوا حيلكم، ربنا معاكوا!» .

«وبخروجنا من البوابة، انتقلنا فورا إلى القرون الوسطى!» .

«إجرى.. إضرب.. كرابيج.. شوم.. الرأس.. العينين.. الجسد يلتهب.. إجرى.. فرسان القرون الوسطى بركبون الخيل، وفى يدهم السياط، يضربون الفريسة، وينهكونها، وعلى الصفين طابور من كلاب الحراسة!

يمسكون بالعصى تنهش.. وصرخات الغابة الوحشية تمتزج فيها ضحكة الضبع الجائع المجنون، مع ضوضاء القردة، وعواء الذئاب، وولولات الصقور!

«وعند نهاية سور السجن قرب البوابة الخلفية، جلست محكمة التفتيش!».

«ورغم كل شىء، رغم العصى والسياط التى تنهمر كالمطر، ورغم أوامر إركع، أقعد، اخفض رأسك ـ كنت متشوقا أن أراه.. امبراطور الجنس الثالث الامبراطور التركى اسماعيل همت!».

«كان يجلس كجنرال يقود حربا خطيرة، تحت مظلة أقيمت له، وإلى يساره قائد السجن، وإلى يمينه عدد آخر من ضباطه».

«كان الدم يكاد ينفجر من خدوده الحمراء المكتنزة، وهو يضحك، بينما كان جسده كله يهتز، ونحن نخلع كل ملابسنا لنقف أمامه عرايا، بينما يقوم الحلاق باجتثاث كل شعر فى أجسادنا بموس! ابتداء من شعر الرأس، حتى الحاجبين، وشعر الصدر، والعانة!».

«وبدأ الجنرال النازى يمارس هوايته مع الرجال العرايا! وأشار بعصاه إلى الصاغ الدكتور محمود القويسنى، وكان فى أول الصف»:

ـ اسمك ايه يا ولد؟

ـ الصاغ دكتور محمود القويسنى.

ـ صاغ إيه ودكتور إيه يا بن القحبة؟ إسمك ايه يا واد؟

ـ صاغ دكتور محمود القويسنى!

ـ بتتحدى يا بن الـ.. والله لحط العصاية دى فى..!!!

ـ عيب يا اسماعيل ياهمت!

«قالها الدكتور محمود القويسنى فى ثقة ومرارة، بينما العصى والسياط تنهمر على جسده العارى، وهمت يصرخ، ويشاركهم فى الضرب!».

كان الدكتور محمود القويسنى ضابطا فى سلاح الفرسان حتى ١٩٥٤، وكان اسماعيل همت أيامها قد فصل من الجيش «لمسائل أخلاقية» فى بداية ثورة ١٩٥٢، ثم أعيد ضابطا فى مصلحة السجون. وطالما وقف اسماعيل همت بين يدى محمود القويسنى ذليلا مستضعفا مبتهلا للتوسط فى اعادته إلى الخدمة.

وجاء الدور على الطالب وجيه سمعان:

- اسمك ايه يا بن الـ..؟

- وجيه سمعان، طالب بآداب القاهرة.

- منين يا وله؟

- من جزيرة شندويل بسوهاج.

- وصرخ همت فى نباح كالكلبة:- يابن الـ.. نصرانى وصعيدى وكمان شيوعى!

«وجاء دورى، وصمت تماما، فلم أجب على صراخه وأسئلته، نسيت العصى المنهمرة والكرابيج، بل نسيت جسدى ونفسى تماما، سوى شىء واحد أن الموت أفضل من أفقد إنسانيتى».

«- انت مش سامعنى يابن الـ..؟ إكلم يا وله؟ هاموتك! ووقفت صامتا، وكففت حتى عن أن أرفع يداى لأتلقى الضربات أو أتحرك هنا وهناك هربا من الشوم المنهمر!».

«وتقدم المهندس الجيولوجى فخرى لبيب حيث يقبع همت، ليصيح فيه: «أنت فاشى صغير.. انت قاتل .. ستدفع الثمن يوما!»

«وتراجع همت من هول المفاجأة، وسرعان ما عادت آلة التعذيب والموت كلها تطبق على فخرى – كل العساكر، بما فى أيديهم من الكرابيج والشوم، تعمل على جسده العارى، حتى سقط فخرى على الأرض، فتقدم منه همت، وأخذ يضربه بحذائه!».

«وأيقنت أن فخرى قد قتل! ولكن ذلك لم يكن كافيا من وجهة نظر الفاشى، فأمر بأن يصلب فخرى على العروسة، ووقف ثلاثة من الزبانية يتبادلون ضربه بالكرباج، وهمت يصرخ فيه: «قل أنا مره!».

«كنت أتابع ضربات الكرباج على جسد فخرى، الذى تفجر كله بالدم والكدمات، ويجتاحنى إحساس بالعجز الشديد، وبالاحتقار الشديد لكل شىء، حتى نفسى».

«أكثر من سبعين جلدة صمت بعدها صوت فخرى تماما، وارتمى رأسه على كتفه. كان هناك فيما يبدو اصرار على قتله، فقد أنزلوه من على «الصليب»، وأخذ همت يقلب رأسه بحذائه، ثم يقول بصوته الأنثوى»:

- لسه عايش ابن الثور!

وصرخ فينا قائد المعتقل: ياللا، على العنبر، خذوه معاكم!

«خمسة من العراة، يحملون زميلا لهم يطرق الموت جسده، وخلفهم جوقة من الكورس العسكرى الذى لا يكف عن الضرب! حتى دخلنا العنبر ونحن نحمل رفيقنا، وظللت صامتا، لم أكن مصدوما كما تصور رفاقى، بل كنت فى تمام الوعى والادراك، كنت أرى فخرى ممددا وسط الغرفة والزملاء حوله، ووجيه سمعان وهو يمسك ظهره ويتألم فى صمت، ومحمد عبدالواحد وقد وضع رأسه بين يديه وهو ينتحب، ومحسن الخياط وهو يردد»:

- دامش معقول! إحنا فين. احنا فى غابة!

«وجاءت دفعة أخرى، دخلوا الزنزانة: أجساد عارية منهكة، يختلط عليها الدم بآثار ضربات الشوم والكرابيج، يرتمون على الأرض وهم يلعنون ويتأوهون».

«وجاءت دفعة ثالثة: إثنا عشر زميلا فى زنزانة، عارون تماما، وقد تغيرت ملامح وجوههم، بلا شعر، وبلا حواجب!».

«وتقدم منى محسن الخياط يتفرس فى وجهى وهو يقول: «إنت مين»؟».

عجلة التعذيب
فى وادى العقارب

الوفد ٢/١٢/١٩٩٦

مازلنا مع سجناء الرأى فى عهد عبدالناصر، ولكن مع شاهد آخر هو الدكتور فتحى عبدالفتاح، الذى روى لنا فى المقال السابق «حفلة الاستقبال» التى أقيمت له ولزملائه يوم ٨ نوفمبر ١٩٥٩، واستخدم فيها زبانية عبدالناصر الشوم ودبشك البندقية والكرابيج والأحذية الميرى، وفوق ذلك ألفاظ السباب القذرة من عينة «ابن القحبة»وغيرها! وتحدث عن انتزاع ملابس سجناء الرأى من الكتاب والمفكرين، وإبقائهم عرايا كما ولدتهم أمهاتهم! واجتثاث شعر أجسادهم ابتداء من شعر الحاجبين حتى شعر العانة!

وبذلك أثبت نظام عبدالناصر مدى احترامه لحقوق الإنسان وتقديره لحرية الرأى! فلم يكن واحد من سجناء الرأى قد رفع سلاحا ضد عبدالناصر أو ضد نظامه، ولم يقذف واحد منهم بقنبلة أو يفجر عبوة ناسفة فى شوارع القاهرة، أو يمثل خطرا ما حقا على النظام الناصرى يتطلب الانتقام منهم على هذا النحو البشع، وإنما كان كل جريرتهم هو أنهم عبروا عن آراء تخالف رأى عبدالناصر فى التفاصيل، مع اتفاقهم معه فى الاتجاه

العام! بل إنهم كانوا واقعين تحت وهم غريب هو أنهم حلفاء لعبدالناصر ونظامه.

ومعنى ذلك أن القضية لم تكن قضية صدام بين عبدالناصر والخارجين على القانون، وإنما كانت قضية صدام بين عبدالناصر وأصحاب الرأى الآخر الذين يعبرون عنه بالكلمة .. والكلمة فقط ولايستخدمون أى سلاح آخر غير الكلمة!

وحين يكون أصحاب الرأى الآخر الذين نكل بهم عبدالناصر هم الشيوعيون، فإن هذا يوضح جليا الصفة النازية لنظام عبدالناصر، لأن العداء ضد الشيوعيين كان هو العداء الرئيسى فى ألمانيا النازية، باعتبار النازية هى النقيض للشيوعية، وهو ما جعل هتلر يدبر حريق الرايشستاج فى يناير ١٩٣٣ للتخلص من الشيوعيين وتصفيتهم متهما إياهم بصنعه!

وقد أدرك سجناء الرأى فى عهد عبدالناصر هذه الحقيقة، ولم يملكوا إلا أن يعقدوا المقارنة بين ما فعله النازيون مع خصومهم السياسيين وما كان يفعله النظام الناصرى بهم! ففى مذكرات الدكتور فتحى عبدالفتاح، حين يتحدث عن اللواء اسماعيل همت يقول: «ويدأ الجنرال النازى يمارس هوايته مع السجناء العرايا!». وحين يتحدث عن تجربتهم يقول: «لقد جربها ضحايا النازية والفاشية». بل إنه يصف ضباط التعذيب فى نظام عبدالناصر بأنهم تفوقوا فى بعض الأمور على أساتذة النازى فى معتقلات داخاو Dachau وبوخنفالد Buchenwald وأشفيتز Auchwitz وحين يتحدث عن فرقة اللواء همت للتعذيب يقول إنها «لاتختلف عن فرقة العاصفة الهتلرية»!

وهذه الأوصاف تجدها فى ذكريات ومذكرات كل من خاض هذه التجربة مع النظام الناصرى، لسبب بسيط هى أنها الأوصاف الدقيقة! ولأنه لا يوجد نظام سياسى معاصر حتى ذلك الحين امتهن حقوق الإنسان ونكل بخصوم الرأى غير النظام النازى - الفاشى والنظام الناصرى!

ويمضى الدكتور فتحى عبدالفتاح فى رواية تجربته فيقول:

«كان اليوم التالى «للحفلة الكبيرة» التى أقامها الامبراطور اسماعيل همت، وانطلق صوت البروجى والشمس مازالت تتجمع فى فناء سجن الواحات، ونحن نجلس القرفصا ء فى صفوف متراصة».

«وكانت الرياح الخفيفة المثلجة تعصف بأجسادنا المنهكة شبه العارية، التى لا يسترها سوى بعض الخرق الصفراء التى وزعوها علينا لتصبح زينا الرسمى الجديد!».

«وتحت القدم العارى لسعات الرمال التى تحولت كلها إلى ذرات من البرد الموجع ينفذ من القدم إلى النخاع، فترتعش الدماء فى العروق! ولقد سمعت كثيرا عن الجو القارى فى الصحارى، حيث البرودة برودة حقيقية، وحيث الحرارة حرارة مستبدة، ولكنى فى ذلك الصباح أحسست كما لو كنت قد ألقيت عاريا وسط أكوام من الثلج»!

«وجلسنا أكثر من نصف ساعة فى وضع القرفصاء، وأوامر مشددة بأن ننكس رءوسنا، أى ننظر إلى ما بين أقدامنا. ثم نفخ البروجى، وجاء الجنرال، وأخذ ينظر إلينا فى تشف غريب باحثا عن آثار «حفلته الكبرى» التى أقامها بالأمس!لقد كان هناك من كسرت ساقه أوذراعه أو بعض ضلوعه فى «مهرجان الضرب والتعذيب»!

«وصدرت لنا الأوامر بالنهوض، والتقدم نحو بوابة السجن ومضينا فى أربع مجموعات متراصة، تحرسنا المدافع الرشاشة من الجانبين، وتنهال علينا الشتائم والأوامر، مع ضربات الخيزران اللاسع!»

«وأخيرا وصلنا الموقع، على بعد أربعة كيلو مترات من السجن! كان المكان أشبه بوادى صغير يقع بين تلّين من الكثبان الرملية، تنتشر فيه بعض النباتات الشوكية. كان المسرح معدا بعناية، وصعد همت ومعه فرقته

على الكثبان الرملية، وأحاطونا بسرعة من كل جانب بالمدافع الرشاشة!»

«ووقف المأمور يصرخ فينا قائلا: إسمع انت وهو! أنا ممكن أقتلكم كلكم! حياتكم عندى لاتساوى شيئا! عندى أوامر بضرب الرصاص عند أى تمرد! فاهمين؟ دلوقتى الفئوس والغلقان والديورة هتتوزع عليكم، ومطلوب أنكم تنقلوا التلال الرملية دى! أى تقصير فى العمل ها أضرب بالنار فورا! مفهوم»؟

«وبدأ الضباط والشاويشية يقسموننا إلى «مصالب» - أى فرق عمل - ويوزعون علينا الفئوس والغلقان وأدوات العمل الأخرى، وهم لا يكفون لحظة واحدة عن استخدام ألسنتهم وعصيهم»!

«وصعد المأمور إلى همت فوق التل، وتحت التل أخذنا نروح ونجىء محملين بالمقاطف المليئة بالرمل، تحت وابل من ضربات الخيزران والشوم الذى لم ينقطع! ويبدو أن نغمات الضرب المتواصل، الذى ينهال علينا، مع صورتنا ونحن فى خرقنا البالية نحمل الرمال والصخور مهرولين، قد أمتعت عين وسمع النمر، وبدأت تشبع أحاسيسه الحيوانية، فأخذ يلقى بأوامره للضباط والعساكر الذين يقومون بدور الايقاع الصوتى بعصيهم وكرابيجهم، ويرسمون فى نفس الوقت ظلال القسوة والهمجية المطلوبة»:

- العساكر تشد حيلها شوية فى الضرب! المقاطف تتملى كويس! الأولاد اللى هناك دول ماشيين على مهلهم، يبتفسحوا ولاد الـ..؟ ضرب الكرابيج أحسن! عاوز أسمع صراخهم مفيش رحمة بيهم، اضرب زى ما تضرب كلب!

«وبالطبع كانت أوامر اللواء تنفذ على الفور، فيزيد صفير الكرابيج وهى تقع على الأجساد، وترتفع ذبذبات العصى وهى لا تتوقف لحظة فى أيدى العساكر»!

«واستمر الضرب، بنفس الوتيرة، طيلة اليوم، وكانت الساعة قد قاربت الرابعة حينما أمرنا بالعودة إلى السجن، وشمس الأصيل تفرد ظلالنا طويلة ممدودة على الرمال، وكل منا يحمل فأسا أو مقطفا يعلقه بكتفه»!

«وتمضى طوابير «الشغيلة» مقتربة من أسوار السجن، بعد يوم طويل من العمل الشاق، والجهد النفسي.. يوم لن ينساه، ولا يجب أن ينساه كل أبناء وبنات مصر الطيبين»!

على أنه لم يكن اليوم الوحيد. لقد كان يوما له ما بعده تسير على هذا النمط، مع كثير من الاضافات والتحسينات فى التعذيب! فعلى حد قول الدكتور فتحى عبدالفتاح ، «لم يكن الأمر يخلو فى تلك الأيام بأن نفاجأ فى الصباح، وقبل أن نصطف فى طابور الجبل، بالعنابر تفتح علينا، وبالعساكر ينهالون علينا ضربا بالقايش والخيزران! فقد كان قائد المعتقل يحرص على هذه الغارات الصباحية الدامية كل أسبوع أو عشرة أيام، لكى يظل الجو ملتهبا، وليبعث فى عملية التعذيب «تنشيطا وحيوية»!

«كذلك كان يحرص على أن يأتى كل أسبوع إلى الجبل، فيتحول الجبل يومها إلى حركة سريعة تقطع الأنفاس، وتصفر الكرابيج والعصى على أجسادنا، ونعود فى مثل هذا اليوم وكل منا يحمل آثار احمرار على جسده ، أو دماء متفجرة على جبهته ورأسه»!

«وفى بعض غزوات القائد، كان بعضنا يعود برجل دامية من ضرب «الفلقة» ، أو ضلع مفقود،أو جسد ممزق نتيجة الجلد على «العروسة»!

على أن الفزع الأكبر تمثل فى ذلك الحين فى البيئة الطبيعية التى كانت تدور فيها عجلة التعذيب الجهنمية. فوفقا لكلام الدكتور فتحى عبدالفتاح، «كانت المناطق التى نعمل فيها مليئة بالثعابين والحيات الخطرة والعقارب،

فى الوقت الذى كان أحد عناصر التعذيب الهامة هو خروج سجناء الرأى من الكتاب والمفكرين والمثقفين «حفاة الأقدام! يمشون فوق الرمال والصخور على غير ما تعودوا طيلة حياتهم».

ولذلك ـ وكما يقول الدكتور فتحى عبدالفتاح ـ «كادت تحدث مآسى كثيرة، فكثيرا ما كان ينفض الإنسان قدمه فجأة بعد أن يحس بأن هناك شيئا يزحف عليها، ويكتشف أنها عقرب من النوع الخطر!

«كذلك فان حية «الطريشة» وهى الحية ذات الأجراس،كانت تمثل لنا انزعاجا شديدا، خاصة بعد أن أكد لنا الزملاء الأطباء : مختار السيد، وعبدالمنعم عبيد، وشكرى عازر، وغيرهم، أن «لدغتها والقبر»! «لذلك حين كان يصيح أحدنا: «طريشة»! كان الجميع يسارعون بالفؤوس ليقضوا على تلك الحية الخطرة».

«لقد كانت حصيلتنا فى اليوم الواحد حوالى أربع حيات، وعشرين عقربا، وأكثر من خمسين ثعبانا مختلفة الأشكال والأحجام»!

«وبدأنا ندرك ما كان خافيا عنا، أوعلى الأقل لم نكن نعتبره مقصودا فى البداية، لقد كان إلقاؤنا فى هذا المكان بالذات، الذى عرفنا فيما بعد أن السكان كانوا يسمونه وادى العقارب، حفاة الأقدام، شبه عراة، فى عمل لا جدوى منه ولا منفعة ـ مقصودا به أن تقوم الحشرات السامة بما لا يستطيع أن يقوم به همت وزبانية التعذيب».

لذلك تبلور مطلب سجناء الرأى الأكبر فى ذلك الحين فى مطلب واحد، هو ارتداء أحذية أثناء العمل!

وفى ذلك يذكر الدكتور فتحى عبدالفتاح ساخرا قصة «الملك لير» لشكسبير، حين هام على وجهه وحيدا شريدا، ومعه مهرجه المعروف، فقد

كانت كل أحلام الملك لير تدور وقتذاك حول انتصار قيم الحياة الشريفة، وليس مجرد العرش، أما المهرج فحين سأله لير عن أمانيه قال: «أمنيتى أن أجد حذاء!

لقد أصبح ارتداء «الحذاء» هو أمنية سجناء الرأى فى ليمان عبدالناصر! ولكن هذه الأمنية كانت بعيدة المنال! لأنها تخالف قواعد وأسس عملية التعذيب التى رسمها زبانية النظام! فحين نطق المهندس سيد عبدالله بهذا المطلب أمام قائد المعتقل فى طابور الصباح وهو يستعد للخروج، «انهال عليه القائد ضربا بعصا أخذها من أحد العساكر،وهو يصرخ كالثور الهائج:

«أنا ما عنديش مسجون يطلب حاجة! إزاى تتجرأ يا كلب؟ كويس انكم لسة عايشين!».

وسجينات الرأى أيضاً!

الوفد فى ١٩٩٦/١٢/٩

قصة ثورة يوليو مع سجناء الرأى ليست قصة واحدة بل قصص عديدة، ولا تجرى فوق مسرح واحد، بل فى مسارح عديدة! فمعتقلات عبدالناصر التى نصبها لأصحاب الرأى من معارضيه تمتد على مساحة مصر كلها ولا تقتصر على مكان واحد، فهناك سجن مصر، وليمان طرة، ومعتقل القلعة، وسجن «جناح»، وليمان أبوزعبل، وسجن المحاريق بالواحات الخارجة، وسجن القناطر الخيرية، وكل منها عالم بأسره، ويمكن لسجين الرأى أن يمر بها جميعا، ويزورها كلها أو بعضها، ويلقى فى كل منها نفس التكريم!

ففى «أوردى» أبو زعبل تلقى إلهام سيف النصر وزملاؤه فى اليوم الأول «التشريفة»، وقد تحدثنا عنها فيما سبق، وفى معتقل الواحات تلقى الدكتور فتحى عبدالفتاح ما أسماه بـ «مهرجان الضرب والتعذيب». وفى كل معتقل كان هناك استقبال مخصوص لسجناء الرأى يليق بمركزهم الفكرى والثقافى والعلمى! من ضرب بالكرابيج والأحذية الميرى والشوم، وانتزاع شعر أجسادهم جميعه، وتجريدهم من ملابسهم واستعراضهم عرايا!

ويقدم لنا الدكتور فتحى عبدالفتاح عرضا شيقا - وإن كان مرعبا - لرحلته مع غيره من أصحاب الرأى فى سجون عبدالناصر، ويبدأها بفصله من جريدة المساء مع عدد آخر من زملائه يوم ١٢ مارس ١٩٥٩ بخطاب ممهور يقول: «قررنا الاستغناء عن خدماتكم ابتداء من ١٣ مارس ١٩٥٩» وهو رفت يبين احترام نظام عبدالناصر لحقوق الإنسان وحقوق الصحفيين المخالفين له فى الرأى، نقدمه للقارىء الكريم ليتبين تضليل الناصريين اليوم وهم يتزعمون جماعات حقوق الإنسان وحقوق الصحفيين!

ويقول الدكتور فتحى عبدالفتاح إنه وزملاءه تلقوا تأكيدا بأن عقاب النظام لهم سوف يقتصر على الفصل، «وإن هذا هو أقصى إجراء سيتخذ معكم، وليس هناك اعتقال»! ولكن أحدهم، وهو أمير اسكندر، أكد أن الجميع مرشحون للاعتقال! وحكى جميل عبدالشفيع من واقع تجاربه السابقة مع نظام عبدالناصر: «أنهم يطبون فى الفجر، كالقضاء المستعجل»!

وهو ما حدث بالفعل بعد خمسة عشر يوما من الفصل من الجريدة، فقد أوقظ الدكتور فتحى عبدالفتاح من نومه فجرا، ليرى الغرفة قد امتلأت بعدد من الملابس الصفراء! «وبقيت وسط السرير، وأخذت أجول بنظرى بينهم وكأننى أشهد فيلما صامتا، ونحيب أختى يقوم بدور الموسيقى التصويرية! نفس الوجوه التى سمعت عنها كثيرا: جمود، وبلادة، وتحفز! عيون بعضهم كعيون الصقر، تلتقى بها فلا تجفل! وسمعت صرخة عالية لأختى تأتى من الحجرة المجاورة، كان كل شىء مقلوبا فى الغرفة: محتويات الدولاب والملابس ملقاة على الارض، وفى أى مكان، وهناك مرتبة مقلوبة، وأخرى مشقوقة بالطول والمخبر يعبث بالقطن ويرميه فى كل مكان، وأختى تصرخ وتسب وتلعن: «إنتو ظلمة، عاوزين أخويا ليه؟ أخويا مع الحق، بكرة حتشوفوا وحيجيلكوا يوم»!

وفى الطريق إلى المعتقل، وأمام مبنى المباحث العامة فى لاظوغلى، رأى الدكتور فتحى عبدالفتاح عربات كثيرة تقف، وأخرى تنطلق، ومجموعات تخرج بحراسة. وحينما كان يرتقى السلالم العريضة للمبنى، لمح سجينا آخر يهبط وفى يده قيد حديدى، وتعثرت قدمه فسقط على الأرض، وقام ليفتش عن نظارته، لقد كان الدكتور لويس عوض!

واقتيد الدكتور فتحى عبدالفتاح، وفى معصميه القيد الحديدى، إلى قسم الموسكى ليلقى به فى حجز النساء! وليلتقى بثريا حبشى زوجة المهندس فوزى حبشى، التى اعتقلها زبانية عبدالناصر من زوجها! فلم يكن نظام عبدالناصر يعفى صاحبات الرأى المعارض من الاعتقال! وتصور الدكتور فتحى عبدالفتاح أنها اعتقلت! بدلا من زوجها لعدم العثور عليه، وردت بأنها اعتقلت مع زوجها! وسال الدكتور فتحى دهشا: والأولاد؟وجاءته الاجابة: ماهودا اللى مجننى .. سبتهم عند الجيران! ويقول الدكتور فتحى: «ودارت رأسى بسرعة، وأنا أتصور المهندس فوزى وزوجته يأخذونهما عند الفجر، ويتركان الطفلين يبكيان ويصرخان بين يدى الجيران، «وشددت على يدها وهى تخرج فى أثر الجاويش الذى جاء يأخذها، وقالت: لما تشوف فوزى سلم لى عليه، لقد قالوا لى فى المباحث إنه رايح القلعة. ورد عليها قائلا:شدى حيلك إنتى، وسلامى لأميمة أبو النصر يمكن تلاقيها فى سجن القناطر!

وفى الطريق إلى معتقل القلعة كان الدكتور فتحى عبدالفتاح قد نسى ذلك العطر التاريخى الذى يملأ حواس المرء وهو يمضى على الطريق الصغير المتعرج الموصل إلى القلعة، ولم يذكر إلا أنه ذاهب إلى المعتقل الذى بناه الانجليز كأحد مظاهر سطوتهم وتسلطهم على شعبنا!

ومع ذلك فإن معتقل القلعة كان قد تطور على يد النظام الناصرى !فقد بدأت تكتظ زنازينه وعنابره بمئات المعتقلين، فالزنازين على الجانبين،

التى كان من المقرر أن تتسع لفرد واحد، وضع فيها أربعة أو خمسة! كما حشر فى العنبر الذى يشبه البدروم والعنبر العلوى أكثر من مائة فى كل عنبر. وقد حاولت قيادة المعتقل أن تفرض نظاما صارما لاغلاق الزنازين والعنابر، ولكن هذا النظام كان مستحيلا، إذ كانت هذه الزنازين والعنابر تفتح كل بضع ساعات وربما كل ساعة تستقبل الوافدين الجدد من سجناء الرأى!

وكما يقول الدكتور فتحى عبدالفتاح: «مئات المعتقلين جاءوا من كل شبر تقريبا من أرض مصر الطيبة : من أسوان، وقرى النوبة إلى الاسكندرية ومطروح والعريش: عمال وطلبة، موظفون وكتاب وصحفيون ومحامون وأطباء.. فلاحون ومدرسون وأساتذة جامعات ومهندسون وعمال زراعيون، فنانون وضباط سابقون وحرفيون!

كانت الغالبية العظمى منهم قد اعتقلت ليلة ١٧ مارس ١٩٥٩ الشهيرة، وبعضهم التقط من عمله، أو من الشارع، ثم يردون على القلعة، بعد أن شرف بعضهم الأقسام ليوم أو يومين حسب الظروف والتساهيل.

وكان وراء كل واحد منهم قصة، وقد شهد الدكتور فتحى عبدالفتاح منهم الدكتور محمد الخفيف، وسعيد خيال (القاضى)، والدكتور سعد بهجت (الصيدلى) ومحمود السعدنى (الصحفى)، والدكتور عبدالرازق حسن (مدير البنك الصناعى) ،والدكتور فوزى منصور (الأستاذ بكلية الحقوق)، والدكتور لويس عوض، ولطفى الخولى.

ومع تكدس المعتقلين من أصحاب الرأى فى معتقل القلعة، شعر الجميع بأن هذا المعتقل إنما هو مجرد محطة تجمع فقط! ففى الأسبوع السابق لوصول دفعة مارس (كما كانت تسمى) كانت دفعة يناير قد رحلت إلى سجن الواحات الخارجة، ثم جاء دور دفعة مارس، وأخذت إدارة المعتقل فى الاستعداد لهذا الرحيل بما يليق بسجناء الرأى على النحو الذى يرويه الدكتور فتحى عبدالفتاح فى الآتى.

«جاء قائد المعتقل ذات مساء، ومعه «الحجلات»، وهى سلاسل طويلة يربط فيها ما بين عشرين إلى ثلاثين معتقلا، وبدأ ينادى حوالى مائتى اسم،وكنت واحدا منهم، وتجمعنا فى الممر الطويل بين الزنازين، والزملاء يتطلعون الينا من فتحات العنابر، وفى عيونهم كما فى عيوننا نفس التساؤل: إلى أين؟».

«وأوغل بنا الليل حتى انتصف، ونحن على هذا الوضع: جلوس فى صفوف متراصة فى الممر! وبدأ صوت الحجلات، برنينها المزعج، يقطع الصمت الذى كان قد أطبق على الجميع، والكل يتساءل : إلى أين؟».

وبدأ الطابور يخرج من باب معتقل القلعة لتتلقفنا مجموعة أخرى من الضباط والعساكر، يحشرون كل مجموعة منا يربطها جنزير واحد فى عربة من عربات السجون المغلقة، وسط جو من الأوامر والصرخات، ووقف قائد الترحيلة يلقى بأوامره الأخيرة بصوت عال:

- كله يسمع.. إحنا رايحين معتقل الفيوم.. مش عاوزين صوت ولاضجة.. أى محاولة للخروج على النظام حتقمع فورا.. عندى أوامر مشددة بضرب النار فى المليان.. خليكو عاقلين والترحيلة تمر على خير!

«وزمجرت موتورات لوريات الترحيلة، واستدرت أودع القاهرة من فتحة كبوت العربة، كانت القاهرة نائمة ساكنة والشوارع خالية تغمرها الأضواء فى صمت، وخرجت بعض الأصوات من داخل إحدى العربات تغنى بصوت خافت: «بلادى، بلادى، بلادى،لك حبى وفؤادى، مصر يا أم البلاد، أنت غايتى والمراد». وانتقلت الأغنية إلى كل عربات الترحيلة، وانطلقت أصواتنا قوية عالية تهزم برد الشتاء، وتبدد صمت الليل وسواده، وزادت العربات من سرعتها على طريق الفيوم الصحراوى هربا بالترحيلة السرية!».

على هذا النحو كان نظام عبدالناصر يمارس احترامه لحقوق الإنسان، التى يتصدى الناصريون اليوم فى أكبر عملية تضليل، للدفاع عنها، وكان يتعامل مع الصحفيين والكتاب والمفكرين وأصحاب الرأى كما يتعامل مع أخطر المجرمين! وكان يتحاور معهم بالزنازين والعنابر والجنازير والحجلات والسلاسل وحشرهم فى عربا ت السجون وسط الحراسة المسلحة والتهديد بضرب النار فى المليان»! كما لم يحدث فى أشد عهود الظلام والاستبداد التى مرت بمصر! وفى الوقت الذى كان عبدالناصر يطلق صيحته الزائفة: «إرفع رأسك يا أخى، فقد مضى عهد الاستبداد»، كان يمارس أشد ألوان الاستبداد ضد أصحاب الرأى الذين لاحول لهم ولا قوة غير أقلامهم!

لذلك لا عجب أن كانت الورقة والقلم من أكبر الممنوعات فى معتقلات عبدالناصر بل كانت تعد «جرما كبيرا»! حسب وصف الدكتور فتحى عبدالفتاح! فعداء عبدالناصر أساسا كان مع الورقة والقلم، وتلك هى أزمة المثقفين فى عهد عبدالناصر، وهى أزمة لم يسبق أن مروا بها فى أى عصرمن العصور. ففى كل العصور كان المثقفون المصريون هم عصب الثورات، وهم عمودها الفقرى، وهم قادتها ومحركوها. وطوال عهد الاحتلال البريطانى كان صدام الاحتلال أساسا مع المثقفين، فقد اعتمدت حركة مصطفى كامل على المثقفين، ولم يكن للعسكرين فيها أى دور. لذلك لاغرابة أن شهد الفكر المصرى أوج ازدهاره فى تلك العهود، وظهر كتاب مصر العظام من أمثال طه حسين والعقاد ومحمد عبده وعلى عبدالرازق ومصطفى عبدالرازق وسلامة موسى، ومفكرو اليسارالرواد من أمثال الدكتور لويس عوض ونبيل الهلالى وشهدى عطية الشافعى ومحمد سيد أحمد وغيرهم.

ثم جاء العسكر فى يوليو ١٩٥٢، وظهر التناقض بينهم وبين المثقفين منذ الشهور الأولى للثورة، فاصطدموا مع الليبراليين ممثلين فى الوفد، ومع الإسلاميين ممثلين فى الاخوان المسلمين، ومع الاشتراكيين ممثلين فى التنظيمات اليسارية المختلفة.

وكان الصدام حول الديمقراطية. فقد بسط العسكريون سلطتهم على البلاد، وكره المثقفون أن يستبدلوا باستبداد القصر استبداد العسكر، ووصل الصدام ذروته فى أزمة مارس ١٩٥٤، التى كانت أساسا صداما بين العسكر والمثقفين من كافة التيارات الفكرية، وعندما انتصر العسكر بالقوة المسلحة على المثقفين، كان فى ذلك نهاية لدورهم التاريخى المؤثر، وانتقلوا منذ ذلك الحين من صفوف العمل الوطنى الثورى إلى سجون ومعتقلات عبدالناصر فى طول مصر وعرضها.

وقد كان أحد هذه المعتقلات هو معتقل العزب بالفيوم الذى نقل إليه الدكتور فتحى عبدالفتاح فى ترحيلة مارس ١٩٥٩. وكان قد بنى أصلا ليكون معتقلا لأسرى الحرب فى الحرب العالمية الثانية، ثم تحول إلى معتقل لتجار المخدرات، وانتهى به المطاف ليضم أكثرمن أربعمائة معتقل سياسى من الديموقراطيين والاشتراكيين. وفى هذا المعتقل كانت التجربة الأولى.

من معتقل العزب
إلى معتقل المحاريق!

الوفدفى ١٦/١٢/١٩٩٦

منذ اللحظة الأولى فى معتقل العزب بالفيوم، شعر سجناء الرأى بأنهم مقبلون على محنة جديدة! فقدكان الجو مختلفا عما ألفوه فى معتقل القلعة طوال الأيام العشرة السابقة، لقد وضع فى كل عنبر أربعون معتقلا فى البدأية، ثم أخذ هذا العدد يتضخم مع تزايد الدفعات الجديدة التى تصل من معتقل القلعة، حتى أصبح فى كل عنبر ما بين ستين وسبعين معتقلا! •

وفى الوقت نفسه زادت قوائم الممنوعات والمحظورات بدرجة مثيرة ومجنونة أيضا! وعلى سبيل المثال فقد حرم المعتقلون من حرية التنقل. وحرية التنقل المقصودة هنا ليست حرية التنقل داخل المعتقل، وإنما حرية التنقل داخل العنبر نفسه! بمعنى أنه كان على المعتقل أن يلزم سريره ولا يغادره، فاذا تحرك يكون تحركه على السرير فقط وفى مساحته وحدها! فعلى السرير يستطيع المعتقل أن يجلس وينام ويتحرك، ولكن ليس من حقه أن يغادر السرير!

وفى الوقت نفسه كان محظورا على المعتقل السياسى أن يتحدث مع زميله، ولو همسا! فقد كان الهمس بين الزميلين اللذين ينامان فى سريرين متجاورين يعد جريمة عقوبتها الجلد.

وكان موقع سرير المعتقل يحدده موقعه فى «الحجلة» التى ربطت فيها الترحيلة. فقد ربط جميع سجناء الرأى بعضهم ببعض «بحجلات» هى عبارة سلاسل طويلة يربط فيها ما بين عشرين إلى ثلاثين معتقلا، وبالتالى فقد كانت هذه الحجلة هى التى تحدد موقع كل سجين من الآخر فى كل مكان، سواء كان هذا المكان ثابتا أو متنقلا، أى سواء كان فى غرفة أو عنبر أو عربة سجن فى قطار، كما تحدد موقع كل سرير من الآخر.

ولا يدرى أحد لماذا كان زبانية عبدالناصر مصرين على ربط سجناء الرأى بالسلاسل، مع أنه لا يوجد فيهم من يستطيع الهرب، أو حتى يصلح للهرب، ولكن من الواضح أن الغرض هو الاهانة وإشعارهم بالمذلة!

كما لا يدرى أحد لم كان زبانية عبدالناصر يصرون على حرمان سجناء الرأى من الحقوق التى كان يتمتع بها اللصوص والقتلة وتجار المخدرات؟ اللهم إلا إذا كان الخلاف فى الرأى، فى رأى النظام الناصرى، يفوق جرائم السرقة والقتل وتجارة المخدرات!

ويصف الدكتور فتحى عبدالفتاح العنبر الذى كان نصيبه فيه، وهو عنبر(٢) بأنه كان فى تكوينه يعبر عن الوطن الكبير! ويقصد بذلك التكوين الاجتماعى للوطن المصرى. فقد كان به العمال من شبرا الخيمة وحلوان وكفر الدوار والاسكندرية، ومن بينهم محمود عطا الله رئيس نقابة عمال كفر الدوار، وعبدالغفار سلام، وعبدالجواد القطان رئيس نقابة عمال النسيج. كما كان فيه الفلاحون من الشرقية والدقهلية والبحيرة والفيوم. وكان فيه أيضا المثقفون، فقد كان فيهم الدكتور فائق فريد عضو مجلس الأمة عن

شبرا وجزيرة بدران، وعلى الشلقانى الكاتب الصحفى، وجمال كامل الفنان التشكيلى، وعادل ثابت العالم المعروف، وعبدالسلام مبارك الصحفى بجريدة المساء، والدكتور جميل حقى الصيدلى، هذا فضلا عن عدد آخر من طلبة الجامعات.

وإلى جانب اعتقال سجين الرأى داخل سريره لا يغادره حتى ولو للتنقل داخل العنبر، فقد كان عليه أن يبقى فيه طول اليوم، فيما عدا ثلث ساعة فقط فى أليوم، هى مدة «الفسحة» المسموح بها. وفى هذا الدقائق العشرين كان على السجين أن يقوم يعمل كل شىء ابتداء من قضاء الحاجة، إلى الاغتسال، والمشى فى الحوش الضيق خلف العنابر. ومع ذلك فهذه الدقائق العشرين لم تكن تمر بسلام، إذ كانت تمر وسط جو هستيرى يشيعه قائد المعتقل وضباطه، ومعهم على وجه خاص الشاويش محمد غطاس، أو حضره الصول كما كان يناديه المعسكر، مصحوبا بالشتائم المقذعة والاعتداء بالأيدى على البعض.

ويقول الدكتور فتحى عبدالفتاح إن عيون العساكر كانت مسلطة على المعتقلين من أصحاب الرأى، تحصى عليهم كل حركة تخالف التعليمات، وتنزل العقاب الفورى بالمخالف. ولذلك عندما ضبط الضابط حمدى أحد سجناء الرأى يتحرك من سريره، أخرجه من العنبر، وانهال عليه باللكمات!

هكذا سارت الأحوال فى معتقل العزب فى الفيوم قرابة ستة أشهر! لم تكن الادارة فى أثنائها تغفل عن المعتقلين أكثر من يوم أويومين ثم تنزل بكل ثقلها فى اليوم الثالث، فتجمع مندوبى العنابر مثلا، لتقوم بجلدهم أمام مبنى الادارة، لا لذنب ارتكبوه وإنما لمجرد إشاعة جو من الإرهاب وتخويف المعتقلين!

وفى يوم من الأيام ضبط أحد الضباط مع أحد المعتقلين، وهو المهندس فوزى حبشى، بعض الأوراق، وكانت الورقة والقلم بالنسبة للمعتقلين هى

كبيرة الكبائر، فاستدعى المهندس فوزى حبشى إلى الادارة، حيث قامت مجموعة من العساكر ومعهم الضباط بضربه بالشوم، ثم جلده على «العروسة»! ويبدى الدكتور فتحى عبدالفتاح دهشته لاطلاق اسم «العروسة» على تلك الآلة الجهنمية، ويرى أن السبب قد يرجع إلى أن المضروب يربط على الصليب فى حالة احتضان!

ولم يسلم المرضى من سجناء الرأى من التعذيب، فبعد يومين من جلد المهندس فوزى حبشى، كانت جماعة من المرضى تستعد للذهاب إلى مستشفى الفيوم القريب للكشف عليهم، ولكن ادارة المعتقل رأت أن الضرب ربما يكون فيه الشفاء الناجح، ولذلك بدلا من الذهاب بهم إلى المستشفى، اقتيدوا إلى الادارة حيث ضربوا بالكرباج وجريد النخل!

ويقول الدكتور فتحى عبدالفتاح إنه ازاء هذا التعذيب فكر المعتقلون فى الاضراب عن الطعام، وعندما عجزت ادارة المعتقل عن إثناء الخمسمائة معتقل عن الإضراب، شعر نظام عبدالناصر أن تجربة معتقل الفيوم لم تنجح، وأن سجناء الرأى فيه فى حاجة إلى تأديب خاص يقتلع من أذهانهم فكرة المقاومة كلية، فتقرر فى الأسبوع الأول من شهر يونيو ١٩٥٩ ترحيلهم إلى سجن الواحات الخارجة، وكانت الدفعة الأولى تتكون من أربعين معتقلا، كان نصيب الدكتور فتحى عبدالفتاح فى الدفعة الثانية التى تم ترحيلها فى سبتمبر ١٩٥٩.

كانت هذه الدفعة أيضا تتكون من أربعين من سجناء الرأى، وتضم: مندوبى العنابر، ومجموعة من الشخصيات والكتاب والنقابيين المعروفين، من بينهم الدكتور فايق فريد، والدكتور حسين كمال الدين، وعلى الشلقانى، والدكتور فوزى منصور، وأديب ديمترى، وفيليب جلاب، وشوقى عبدالحكيم، وابراهيم عامر، ومحمود عطا الله، ومحمد صدقى، وفخرى

لبيب، وفتحى خليل، ولطف الله سليمان، وفاروق ثابت،ومحسن خياط، وعبدالله كامل، ومحمود السعدنى، وأسعد حليم.

وقد سيقت هذه الدفعة من الفيوم إلى محطة بنى سويف بالعربات، ثم من بنى سويف إلى محطة «المواصلة» فى عربة مغلقة فى آخر القطار، مخصصة لنقل الحيوانات! مرورا بالمنيا وأسيوط وقنا وسوهاج، فى رحلة دامت خمس عشرة ساعة حتى وصلت إلى «المواصلة».

والمواصلة بلدة صغيرة فى أعماق الصعيد دخلت التاريخ من أوسع الأبواب، إذ كان ينقل إليها المسجونون المعارضون للسلطة، لينقلوا إلى قطار آخر من نوع قطار الدلتا الصغير يتجه بهم إلى الواحات الخارجة والداخلة على بعد أكثر من مائتى كيلو مترا فى أعماق الصحراء.

وكانت محطة المواصلة قد شهدت مع دفعة يونيو السابقة مأساة رهيبة كادت تفقد فيها الدفعة حياة أفرادها جميعا تحت القطار. فحين وصلت هذه الدفعة إلى محطة المواصلة، وبدأت اجراءات إنزالهم من العربة، بدأ القطار يتحرك فجأة بينما كانت هناك مجموعة كبيرة مازالت داخل العربة! ولما كان الجميع مربوطين بسلسلة واحدة، فقد أخذ المعتقلون الذين نزلوا من القطار يجرون بجواره لعجزهم عن التخلص من السلسلة التى تربطهم بزملائهم داخل القطار،بينما أخذت صيحاتهم تتعالى بفزع طلبا لإيقاف القطار، على أن السائق لم يسمع هذه الصيحات،وزاد من سرعة القطار وأخذ الذين فى داخل العربة يتشبثون بمواقعهم حتى لا يلحقوا بزملائهم خارج القطار، الذين مالبثوا أن سقطوا على الأرض، وأخذ القطار يجرجرهم على الرصيف، ثم على الفلنكات. وكان هؤلاء يتكونون من الكاتب الصحفى عبدالستار الطويلة، والدكتور رزق عبدالمسيح، وعزب شطا، وغيرهم. وأخذ هؤلاء يصطدمون بالزلط وخشب الفلنكات، وهم يتوقعون

فى كل لحظة أن تشدهم عجلات القطار لتطحنهم جميعا ومعهم الزملاء الذين كانوا داخل العربة!

ويقول عبدالستار الطويلة: كانت رأسى تدور بنفس السرعة التى تدور بها عجلة القطار، وكان مصيرى ومصير الأربعين الآخرين الذين يرتبطون بالسلسلة الواحدة، يتوقف على مدى قدرتى على الابتعاد عن عجلة الموت. كنت قد سمعت ورأيت فى الأفلام أنواع التعذيب فى القرون الوسطى حين كانوا يربطون الفلاح إلى ذيل حصان جامح أو عربة تجرها مجموعة من الخيول، ولكن الأمر فى هذه المرة كان مختلفا، فلم يكن حصانا جامحا وإنما قطارا حديديا جامحا. صورة كلما تخيلتها حتى هذه اللحظة أغمضت عيناى ورعدة شاملة تجتاح كل جسدى».

ثم تدخلت الصدفة، بفضل ارادة الله، لكيلا تمضى المأساة إلى نهايتها، فقد تنبه خفير أحد المزارع المجاورة لما يحدث، فسارع باطلاق عدة أعيرة نارية مرت بجوار السائق، الذى تنبه ونظر إلى الخلف ليرى المأساة وليوقف القطار.

وأخيرا جاء القطار الصغير، وتكدس سجناء الرأى فى عربتين، بينما ربض الحراس فى العربة الخلفية، وتحرك القطار نحو الغرب، وبعد نصف ساعة كان قد غرق فى بحر من الرمال والهضاب. وعلى بعد مائتين وخمسين كيلو مترا بدا على مرمى البصر سور أبيض غريب ولامع وسط الاصفرار الداكن المحيط، وأشار إليه أحمد طه، وهو شقيق عبدالقادر طه، قائلا: هذا هو سجن المحاريق!

كان أحمد طه هو الوحيد فى ترحيلة سبتمبر ١٩٥٩ الذى يعرف المكان إذ كان قد غادره قبل ثلاثة أشهر فقط بعد أن أمضى فيه فترة العقوبة التى أصدرتها ضده محاكم عبدالناصر العسكرية فى سنة ١٩٥٤، بسبب دفاعه

عن العمال المضربين وعن حقهم فى تنظيم أنفسهم. فقد اعتقله نظام عبدالناصر وقدمه للمحكمة العسكرية التى عاقبته بخمس سنوات.

ومع أن أحمد طه كان قد أتم السنوات التى حكم عليه بها، وأفرج عنه فى يناير ١٩٥٩، وبالتالى لم يشارك فى أى نشاط فكرى مما مارسه سجناء الرأى الآخرين، إلا أن نظام عبدالناصر أعاد اعتقاله من جديد فى ٢٨ مارس ١٩٥٩، أى بعد ثلاثة أشهر، وأضافوا إليه زوجته التى اعتقلت هى الأخرى، وقدر له أن يشاهد أسوار سجن المحاريق مرة أخرى، وأن يخوض التجربة الرهيبة التى خاضها الزملاء الجدد بغير جريمة ارتكبها ضد نظام عبدالناصر، غير الخلاف فى الرأى!

لقاء الموتى فى معتقل المحاريق

الوفد فى ٢٣/١٢/١٩٩٦

اعتبر النظام الناصرى الرأى المعارض جريمة شنعاء يستحق مرتكبوها من المفكرين والمثقفين والصحفيين والكتاب أشد ألوان التنكيل والتعذيب! وقد تمثلت عبقرية زبانيته فى اختيار المعتقلات التى يقذف بهم فيها، والتى حرص على أن تبتعد كل البعد عن العمران، حتى لا يسمع لهم فيها صراخ!

ومن هنا كان انتقال مسجونى الرأى من معتقل العزب بالفيوم إلى معتقل المحاريق فى الواحات! وقد أطلق على هذا المعتقل اسم «المحاريق» تعبيرا عن تلك البقعة الجرداء الموحشة التى يقع فيها، ولأن المكان كان بالفعل «محرقة» بحق، بسبب قسوة الشمس التى حولت أشعتها كل شىء فى تلك البقعة إلى لون داكن أو فاحم، حتى الإنسان فى تلك البقعة كان من النوع القزمى النحيف الذى يخالط شحوب وجهه سمرة داكنة تظهره فى صورة النماذج المتحفية والتاريخية!

وكان من الطبيعي أن ينعكس ذلك على مسجوني الرأى الذين قذف بهم عبدالناصر إلى هذا المكان الموحش. فعندما وصلت الترحيلة التى كان فيها الدكتور فتحي عبدالفتاح، كان قد سبقهم إليها زملاء من أصحاب الرأى كانوا يقضون فترة سجنهم، بعضهم مضى عليه أكثر من خمس سنوات! ومعظمهم كان يسمع عنهم كثيرا عندما كان طالبا فى الجامعة، وصدرت بحقهم أحكام بالسجن تتراوح بين ثلاث وعشر سنوات، ليس بسبب أنهم استخدموا العنف والمتفجرات ضد نظام عبدالناصر، وإنما لأنهم فقط خالفوه فى الرأى!

ويقول الدكتور فتحي عبدالفتاح إنه شعر، عندما رأى هؤلاء السجناء القدامى لأول مرة، أنه أمام أشباح هاملتية تعيش فى تلك الصحراء لتعذب ضمير مصر كلها! كانت البدل الزرقاء التى يلبسونها، ووجوههم الشاحبة، وعيونهم الغائرة، قد أوحت له بذلك من اللحظة الأولى لرؤياهم.

كان منهم صلاح حافظ الكاتب بروز اليوسف، ومصطفى طيبة ومجدى فهمى، العاملان اللذان ألقى القبض عليهما قبل سنة ١٩٥٢، ومحمد شطا أحد قادة العمال فى شبرا الخيمة، وحمدى عبدالجواد، وفؤاد عبدالحليم، وزكى مراد، ومحمد خليل، وهما المثقفان النوبيان اللذان حاولا ايقاظ أبناء جلدتهم من سبات الجهل والتخلف. وداود عزيز، ووليام الملك، وهما من أشهر وأصدق الفنانين التشكيليين اللذين كانا يمثلان مدرسة جديدة فى الفن، وأكثر من مائة سجين عاشوا فى تلك البقعة الموحشة الجرداء سنوات طويلة لمجرد الخلاف فى الرأى مع عبدالناصر، فعاقبهم بحرمانهم من كافة حقوق الإنسان التى يزعم الناصريون اليوم أنهم أنصارها وحماتها، تضليلا وتزييفا وخداعا لأبناء شعبنا وللجيل الجديد الذى لا يعرف أن أيديهم كانت طوال العهد الناصرى غارقة فى دماء حقوق الإنسان!

كان اللقاء بين الترحيلة الجديدة والمعتقلين القدامى أشبه باللقاء بين الموتى الجدد والموتى القدامى! وكان كل من الفريقين مشتاقا لمعرفة عالم الآخر. ويصور الدكتور فتحى عبدالفتاح ذلك بقوله: فى الأيام الأولى لم يكن غريبا أن ترى أحد المعتقلين الجدد مصطحبا أحد المسجونين القدامى: الأول يحكى عن العالم الذى تركه حديثا منذ شهور قليلة، والحياة التى تركها تنبض وتقفز فى الشوارع والمنازل، والثانى يحدثه عن العالم المقفر الذى يعيش فيه، ويعطيه بعض الخبرات عن عالم السجن الذى أمضى فيه ثلاث أو خمس أو سبع سنوات!

وبالاضافة إلى هذا اللقاء بين الموتى الجدد والموتى القدامى، كان هناك لقاء بين المعتقلين الشيوعيين والمعتقلين من الاخوان المسلمين الذين كانوا يقيمون فى عنبر رقم (٣) ولكنه كان لقاء مجدبا، فقد كانت تفرقهم الأهداف والوسائل.

وعلى حد قول الدكتور فتحى عبدالفتاح: كان هجومهم على حزب الوفد، وتعاونهم مع الملك أحيانا، والغموض الشديد الذى يكتنف شعاراتهم الوطنية والاجتماعية، يبعدنى عنهم فكريا. كما أن تجربتى معهم فى الجامعة، وعدم قدرتهم على إجراء حوار أونقاش، ولجوئهم إلى العنف دائما، قد ضاعف من اعتراضى على منهجهم. واليوم يجمعنا سور واحد، وتحيط بنا صحراء واحدة، وتحكمنا وتتحكم فينا إدارة واحدة. وعرفت من الزملاء القدامى أن الاخوان وقيادتهم كانوا يرفضون إجراء حوار مشترك ، بل إنهم كانوا يعتبرون وجود الشيوعيين فى السجن أمرا طارئا، لأن عبدالناصر ـ من وجهة نظرهم ـ كان أخطر شيوعى فى المنطقة!

فى ذلك الحين، كان عبدالناصر ـ الذى هو أخطر شيوعى فى المنطقة من وجهة نظر الاخوان المسلمين! ـ يعد للشيوعيين تشريفة تليق بهم. فبعد شهر واحد كانت تصل إلى معتقل المحاريق فرقة التشريفة وعلى رأسها

اللواء اسماعيل همت شخصيا، وهو وكيل مصلحة السجون، للترحيب بالمعتقلين الشيوعيين ولتبدأ أفظع عملية تعذيب يقوم بها نظام سياسى لمخالفيه فى الرأى!

فمنذ اللحظة الأولى دخل هؤلاء المعتقلون فيما أسماه الدكتور فتحى عبدالفتاح: مهرجان الضرب والتعذيب فى قلب الصحراء، بعد أن أعد المسرح تماما لهذا المهرجان بكل عناية، فى واد صغير يقع بين تلّين من الكثبان الرملية تختلط رمالهما الصفراء مع تربة رمادية وتنتشر فيه النباتات الشوكية، الأمر الذى أوحى لسجناء الرأى أنهم مساقون إلى مقبرة أعدت لهم كما يحدث لضحايا النازية والفاشية - على حد قوله.

وفى هذا المسرح الكئيب ووجه سجناء الرأى بنمطين أنتجتهما مدارس التعذيب والعداء للإنسان - على حد قول الدكتور فتحى عبدالفتاح - نمط مسعور متعطش للدم بأى شكل وعلى أية صورة، مثله مثل النمر المتوحش. والنمط الثانى أشبه بالثعلب الذى يجرى دائما حساباته بين رغبته فى الفريسة وخوفه من المفترس. وعلى أيدى هذين النمطين تلقى سجناء الرأى الضرب المتواصل بعصى الخيزران والشوم فى رواحهم ومجيئهم وهم محملون بمقاطف الرمل بين الكثبان الرملية وهم فى خرقهم البالية، وصيحات الجنرال النازى اسماعيل همت تستنهض همم العساكر والضباط لمزيد من الضرب، وهم يقومون بدور الايقاع الصوتى بعصيهم وكرابيجهم ويرسمون ظلال القسوة والهمجية المطلوبة، وينصحهم باستخدام الكرابيج: ضرب الكرابيج أحسن! عاوز أسمع صراخهم! مفيش رحمة بهم! إضرب زى ما تضرب كلب! فيزيد صفير الكرابيج ووقعها على الأجساد،كما ترتفع ذبذبات العصى وهى لاتكاد تتوقف لحظة فى أيدى العساكر،ويستمر ذلك طول اليوم.

وفى الصباح يفاجأ المعتقلون بفتح أبواب العنابر، وانهيال العساكر عليهم بالضرب بالقايش والخيزران، بدون أى ذنب ارتكبوه،وانما لمجرد ابقاء الجو ملتهبا،ولبعث التنشيط والحيوية فى عملية التعذيب! وتتكرر هذه الغارات كل أسبوع وعشرة أيام، فى الوقت الذى ينتقل التنشيط إلى الجبل! فنعود فى مثل هذا اليوم وكل منا يحمل آثار احمرار على جسده، أو دماء متفجرة من جبهته ورأسه، أو رجل دامية من ضرب الفلقة، أو ضلع مفقود، أو جسد ممزق نتيجة الجلد على العروسة، ناهيك عن لدغ الثعابين والعقارب فى وادى العقارب وسجناء الرأى حفاة الأقدام، فاذا تجرأ أحدهم على طلب العمل فى الجبل بالأحذية، ضرب ضربا مبرحا بحجة أنه تجرأ على الطلب: «ازاى تتجرأ يا كلب؟ أنا ما عنديش مسجون يطلب حاجة»! وتصدر الأوامر بمضاعفة التعذيب والضرب - أو على حد قول الدكتور فتحى عبدالفتاح: «زيادة جرعات العمل، وأيضا جرعات الضرب»!. ويختار قائد المعتقل أحد ضباطه المقربين المغرمين بالتعذيب، لكى يصحبنا كل يوم إلى الجبل ليتعرف بنفسه على الشغل!».

وهكذا دفع سجناء الرأى الثمن غاليا لمجرد طلبهم العمل بالأحذية بدلا من العمل حفاة الاقدام! على أنه مع مرور الأيام ظهر خطر كبير هدد باحباط مخطط التعذيب، فقد تكونت بين سجناء الرأى والجلادين من العساكر والضباط علاقة ما أثرت على أدائهم فى الضرب والاهانات، خصوصا بعد ما تبين للجلادين أن الصورة التى رسمها النظام الناصرى لسجناء الرأى بأنهم كفرة ملحدون وخونة للوطن وعملاء، لا تتفق مع سلوكهم.

وفى الوقت نفسه ، اكتشف الجلادون أن الكثيرين من سجناء الرأى يتمتعون بالقدرة على الإضحاك، على الرغم مما يلحقهم من تعذيب،

فأدمنوا الجلوس إلى بعضهم يستمتعون بأحاديثهم، وإن كانت بعض هذه الجلسات تنتهى بمأساة!

وهو ما حدث مع الصحفى المعروف محمود السعدنى، الذى لعب دور «مضحك الملك» مع الشاويش متى، قائد العمل فى غياب القائد، توقيا لشره، حتى أدمن الشاويش متى الجلوس إلى محمود السعدنى يستمتع بنكاته وحواديته الساخرة اللاذعة المعروفة، فيجلس الشاويش متى فوق صخرة كالملك،ويقبع السعدنى بجانبه فى دور مضحك الملك، وتنطلق ضحكات متى الضخمة، ويعزم على السعدنى بسيجارة «وينجز» كاملة.

ويقول الدكتور فتحى عبدالفتاح إنه فى يوم من الأيام فوجىء سجناء الرأى بالشاويش متى وهو يجرى وراء السعدنى يريد أن يبطش به، ويقسم «بأم المخلص» ليحطمن رأسه بالشومه ! ودهش الجميع أن تنتهى العلاقة بين مضحك الشاويش متى والشاويش متى إلى هذا المصير الفجائى، وتدخلوا فى محاولة لتهدئة الشاويش ومعرفة السبب فى هذا الانقلاب والقطيعة التى لم تكن متوقعة بين الشاويش الهائج والصحفى المذعور.

وقد تبينوا أن محمود السعدنى لاحظ أن الشاويش متى كان مهموما حزينا، فأراد معرفة السبب لكى يسرى عنه، وأجاب الشاويش متى:

- أصل الواد إبنى أخذ الاعدادية!

ورد السعدنى بأسلوبه الساخر؟ طيب ودى حاجة تزعل يا حضرة الصول؟ ده ابنك يبقى عبقرى!

وقال الشاويش متى: أصل اللى مضايقنى يا سعدنى أن الواد عاوز يكمل تعليمه، والحال زى ما انت عارف، يدوبك على القد!

وقال السعدنى مهونا: يا راجل واحد عبقرى زى ابنك لازم يكمل تعليمه، وأ هو التعليم بالمجان، وربنا يساعدك لحد ما يأخذ التوجيهية!

ورد الشاويش متى: طيب وبعد التوجيهية، يروح فين؟

وأجاب السعدنى، يروح الجامعة يا حضرة الصول!

وقال الشاويش متى مستنكرا: جامعة إيه انت راخر، هو أنا معايا صلدى واحد؟ دا أنا باستلف على ماهيتى قدها مرتين علشان أمشى حالى، تقوم تقوللى يروح الجامعة؟

ورد السعدنى فى حماس مصطنع: طبعا لازم يروح الجامعة ولد عبقرى زى كده ما تحرموش من أنه يكمل تعليمه، ويروح كلية الطب، أوالهندسة أو الحقوق أو الآداب، ويبقى مثقف!

وسأل الشاويش متى مستفهما: مثقف! يافرحتى .. طيب وبعد كدة؟

ورد السعدنى بسخريته القاتلة: ييجى هنا معانا يا شاويش!

واشار بيده إلى زملائه من سجناء الرأى وهو يقول: أهو كل اللى انت شايفهم دول جم هنا علشان أصبحوا مثقفين!

ولم يحتمل الشاويش متى هذه السخرية القاتلة، وقام يجرى وراء السعدنى يريد أن يبطش به!

ويقول الدكتور فتحى عبدالفتاح معلقا: لم يحتمل الشاويش متى سخرية محمود السعدنى، فلم يكن الرجل يتصور أن ابنه العزيز العبقرى، يأتى إلى هذا المكان ليعامل «كالكلاب» مثلما نعامل! وقام يجرى وراء السعدنى مقسما ليحطمن رأسه!

هدية عبدالناصر للمعتقلين في عيد رأس السنة!

الوفد فى ٣٠/١٢/١٩٩٦

فى كل بلاد الدنيا حين يرتكب نظام سياسى ما جرائم فى حق أبنائه فانه يعاقب على ما ارتكبه من جرائم فور انتهاء سلطانه، إلا فى مصر! فإنه يكافأ ويمجد ويعلى من شأنه، ويجد من أنصاره من يضللون الشعب ويروجون له بالكتابات الصحفية والأحاديث الإذاعية والأفلام السينمائية والكتب وكافة وسائل الاعلام! والأعجب من ذلك، ومما ليس له نظير فى طول التاريخ وعرضه، أن يشترك فى ذلك الضحايا أنفسهم! الذين ينقلبون فور انتهاء عمليات الجلد والتعذيب إلى مدافعين عن النظام الذى قام بجلدهم وتعذيبهم وامتهان كرامتهم، تحت تحليلات خاطئة ومريضة، كما يحدث فى مصر بالنسبة لليسار!

وهذا الكلام ليس افتراء على اليسار، وإنما هو حقيقة واقعة تتمثل فى تحالفه مع الناصريين الذين جلدوهم، وقد سجله بعبارات فاضحة الأستاذ محمد سيد أحمد، المفكر والكاتب اليسارى المعروف، وأحد الذين جلدهم

زبانية عبدالناصر. ففى مقال نشرته له جريدة «الأهرام» يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٩٥، كتب بالحرف الواحد يقول:

«ظللت مع غيرى من قوى اليسار، أكثر من خمس سنوات، سجينا فى عهد عبدالناصر، وتعرضنا فى السجون لمعاملة بالغة السوء،وهناك من ماتواتحت التعذيب، ومع ذلك فيوم خروجنا أيدناه! وأذكر فى وقت كان التعذيب فيه قد بلغ مداه، وكنا حفاة، وشبه عراه، ومطالبين بنقل جبل على أكتافنا من موقع إلى موقع، ثم اعادته إلى موقعه الأصلى - أذكر فى يوم ما، وكان قد تلقى فيه زميلنا الدكتور اسماعيل صبرى عبدالله قدرا مكثفا من التعذيب، أذكر فى هذا اليوم أننى قلت له، وكلى انفعال: أليس من واجبنا، يوم أن نخرج من هنا،أن نسوى حساباتنا؟ ورد هو: «سنخرج فى يوم ما، وسنؤيده»!

هذا هو ما دعانى إلى أن اتهم اليسار «بالسادية»! فجميع المعطيات المتاحة للحكم على النظام الناصرى تنتهى إلى نتيجة واحدة هى أنه كان حكما فاشيا ونازيا. وهو ما تبين لسجناء اليسار بعد اعلان عبدالناصر قرارات التأميم فى خطاب ٢٣ يوليو ١٩٦١. فقد كان الشعور العام بينهم أن الافراج عنهم أصبح أمرا مفروغا منه - وعلى حد قول الدكتور فتحى عبدالفتاح: ليس من المعقول أن نبقى فى السجون فى حين أن الأهداف والشعارات التى دخلنا من أجلها السجن، تتحقق وتتبناها الدولة تعلنها بشكل رسمى!

ولكن سرعان ما تبين لهم أنهم كانوا واهمين! فلم يفرج عنهم الا بعد سنتين ونصف! وأكثر من ذلك اتضح لهم أن أجهزة المصيلحى قد والت معركتها القذرة - على حد وصف الدكتور فتحى عبدالفتاح - فى محاولة التصفية النفسية والمعنوية للمعتقلين.

وكانت أول رسالة واضحة وصلت إلى المسجونين بهذا المعنى - كما يقول الدكتور فتحى عبدالفتاح - حينما أعيد إلى المعتقل عدد من الزملاء المسجونين الذين كان قد حكم عليهم فى أوائل الخمسينات (من سنة ١٩٥٢ إلى ٥٤) بأحكام تتفاوت بين ثمانية وعشر سنوات، وكان هؤلاء قد أتموا سنوات الحكم كاملة، رغم أن بعضهم كانت جريمته أنه حاول اسقاط الحكم فى أيام النظام الملكى! وعندما رحلوا إلى القاهرة للافراج عنهم لم يكن يخالجنا شك فى أنهم خارجون بعد كل تلك الظروف.

ولكنهم عادوا الينا بعد أيام، وقد تحولوا من مسجونين إلى معتقلين! - أى أنهم يرتدون الزى الأبيض بدلا من الأزرق، ويقيمون فى عنبر (٢) بدلا من عنبر (١)!

فقد عاد حمدى عبدالجواد، وداود عزيز، وزكى مراد، ومصطفى طيبة، ووديع وهيبب، ومحمد شطا، وكانت عودتهم تأكيدا لنا بأن ما تصورناه فى البداية أمرا طبيعيا، وهو الافراج عنا، ليس بتلك البساطة، وإنما كان تأكيدا فى نفس الوقت لمغزى ظل ملازما للمرحلة كلها، وهى أن الهوة بين الأقوال والأفعال ستظل موجودة ومتسعة، مهما تغيرت أفكار القيادات التى ترسم السياسة، فالأجهزة المنفذة هى نفسها لم تتغير.

هذه القصة وحدها تبين الصفة الفاشية للنظام الناصرى، وهى التى كان اليسار المصرى يكتشفها فى كل يوم على أيدى زبانية عبدالناصر، الذين وصفهم بأنهم «تفوقوا على أساتذة النازى فى معتقلات داخاو وبوخنفالد وأوشفيتز، ولكنهم نسوها فور الافراج عنهم بحجة أن النظام كان نظاما اشتراكيا! ولم يسألوا أنفسهم: كيف يقوم نظام اشتراكى على يد غير اشتراكيين؟ وكيف يوصف نظام بأنه نظام اشتراكى وهو يزج بالاشتراكيين فى السجون ويسلمهم لأيدى زبانية التعذيب؟

يقول الدكتور فتحى عبدالفتاح: لقد أخذت أتصور الدكتور لويس عوض، المثقف المصرى والعالمى، ويونس مرعى (الضابط بمعتقل الأوردى) يلقيه على الأرض، ويضربه بحذائه كما يضرب حشرة! والدكتور فؤاد مرسى، أستاذ القانون بكلية الحقوق، وملابسه تخلع عنه ليضرب على المناطق الحساسة فى جسده! والدكتور اسماعيل صبرى عبدالله وقائد الأوردى وزبانيته يتسلون عليه، ويأمرونه بأن يدور فى حلقة كالثور لتنهال عليه الكرابيج والشوم! والمئات من خيرة أبناء مصر الطيبين من عمال ومثقفين وفلاحين وطلبة وضباط، وهم يعاملون تلك المعاملة ثمانية أشهر! ويقول إن الدكتور لويس عوض كان يفزع من النوم ليلا ليصيح: أين نحن؟ لا يمكن أن نكون قد رجعنا ألف عام إلى الوراء!

كل هذه الاعترافات الدامغة، نسيها اليسار، ولبس رداء دون كيشوت، وامتشق حسامه، وخرج يدافع عن الأوهام التى رسمها فى خياله عن النظام الناصرى، ناسيا الحقائق التى ألهبت كل شبر فى جسده مع سياط وعصى وشوم زبانية النظام الناصرى على طول حكم عبدالناصر ، حتى لنجد مفكرا مثل الدكتور رفعت السعيد يكتب قائلا: إذا كان عبدالناصر قد حكم مصر ثمانية عشر عاما، فقد قضيت قرابة الثلاثة عشر عاما الأولى من حكمه سجينا فى سجون لست أريد أن أصفها، ولو بأقل ما كانت تحتوى عليه من بشاعة، والا اتهمت بالتحيز التام ضده!

والغريب هو استناد اليسار فى هذا التقييم الخاطىء على قرارات التأميم فى يوليو ١٩٦١ ، على الرغم من أنه يعرف جيدا أن التأميم فى حد ذاته ليس اجراء اشتراكيا، وإنما العبرة بعلاقات الانتاج القائمة. فالتأميم تلجأ إليه الدول الرأسمالية والدول الاشتراكية، ويظل الفرق بين الاثنين هو: من المستفيد فى الواقع من التأميم؟ فإذا ظلت القيادات البيروقراطية والقديمة هى التى تقود هذه المؤسسات المؤممة، فإن الأمر لايعدو أن يكون رأسمالية دولة!

وقد سبق أن أقدمت حكومة «كيرنسكى» فى روسيا بعد ثورة فبراير ١٩١٧، وقبل ثورة أكتوبر التاريخية، على تأميم عدد من المؤسسات الاقتصادية، وكان تعليق لينين على ذلك: إنها رأسمالية دولة، وإن العامل الروسى لم يستفد «كوبك» واحدا.

وهذه الحقائق كان يناقشها المعتقلون فى المعتقل بعد قرارات التأميم فى يوليو. فكما يقول الدكتور فتحى عبدالفتاح، فإن مجموعة من المعتقلين كانت وجهة نظرها أن الديموقراطية هى حجر الأساس فى الحكم على كل ما حدث! فوجود ديموقراطية واسعة، وإعطاء الحق للطبقات الوطنية فى تشكيل تنظيماتها الجماهيرية والسياسية، مع إلغاء القوانين الاستثنائية والمحددة للحريات، هى فقط الضمانة لدفع التطور الاجتماعى.

وفى الحقيقة أن المنتفع الحقيقى من قرارات التأميم كان هو الجيش الذى استولى ضباطه على المؤسسات المؤممة، وفرضوا عليها حكما عسكريا، وأقصوا جميع القيادات العمالية والجماهيرية. فكانت المؤسسات المؤممة هى الامتداد المدنى للحكم العسكرى الممثل فى الجيش تحت قيادة عبدالحكيم عامر الفاشلة.

هذا كله يوضح الوهم الذى أقام عليه اليسار افتراضه بأن النظام الناصرى كان نظاما اشتراكيا وتقدميا، فى حين أنه كان فى الحقيقة نظاما فاشيا يتبع كل وسيلة فاشية فى الحكم، ويكذب على الشعب! فيذكر الدكتور فتحى عبدالفتاح أنه حين اعترف عبدالناصر فى حديث مع الصحفى الفرنسى الشهير «اريك رولو» بأنه بصدد تصفية المعتقلات فى القريب، فسر المعتقلون هذا التصريح بأنه دليل على قرب الافراج! فعلى حد قوله:

كان ذلك أول اعتراف رسمى منذ سنوات بوجود معتقلين. فقبل ذلك بعدة شهور، وفى مؤتمر صحفى عالمى، قال الرئيس عبدالناصر إنه ليس

هناك فى مصر معتقلات ! وتجاهل وجود أكثر من ٦٠٠ معتقل فى ذلك الوقت، غير حوالى ٢٠٠ مسجون سياسى!

وهذا العدد الضخم من سجناء الرأى الذين عذبوا، يؤكد الصفة الفاشية لنظام عبدالناصر، مهما كانت الانجازات التى حققها على طريق تحدى قوى الاستعمار! فقد سبقه فى تحدى القوى الاستعمارية حزب الوفد، كما تحدى الوفد الأحلاف، ورفض الدخول فى معاهدة الدفاع المشترك، ولكنه لم يزج بأحد من أبناء الشعب المصرى فى السجون، سواء منهم من أيدوه أو عارضوه، ولم ينسب لحكومة الوفد أن كانت لها زبانية تعذيب، ولم يسجن يسارى واحد فى عهد حكومات الوفد، وكانت صحف اليسار تكتب ما تشاء فى الهجوم على النظام الملكى والتنديد بالنظام الاجتماعى، دون أن يتعرض كتابها ومفكروها للسجن أو الاعتقال.

فتحدى الاستعمار فى الخارج لا يعنى اعتقال أصحاب الرأى المعارضين فى الداخل! ناهيك عن تعذيبهم والتنكيل بهم وإهدار كرامتهم وآدميتهم، بل انكار حقوق المسجونين من القتلة واللصوص وهاتكى الأعراض، عليهم، وإنما الحكم الفاشى وحده هو الذى ينكل بالمعارضين، ويعاملهم بمنتهى القسوة، لأنه يعتبر الخلاف فى الرأى جريمة شنعاء تفوق بكثير كافة الجرائم التى يرتكبها البشر.

وفى كتاب الدكتور فتحى عبدالفتاح نماذج من التنكيل الذى لا يفسره إلا الصفة الفاشية للنظام الناصرى. فقد ذكر فى كتابه كيف كان النظام يعالج المرضى من سجناء الرأى بضرب العلق الساخنة، وكيف أن جماعة من المرضى من السجناء كانت تستعد للذهاب إلى مستشفى الفيوم للكشف عليهم، فاقتيدوا بدلا من ذلك إلى الادارة حيث ضربوا بالكرباج وجريد النخل!

وفى هذا المقال نرى كيف احتفلت ادارة السجن مع سجناء الرأى بعيد الميلاد! فيقول الدكتور فتحى عبدالفتاح إن سجناء الرأى، على الرغم مما

كانوا يتعرضون له من تنكيل، أرادوا الاحتفال برأس السنة الميلادية يوم ٣١ ديسمبر ١٩٥٩ . ومن ثم، ولدى عودتنا من المعتقل بعد يوم عمل شاق، كان كل ما يشغلنا هو كيف نحتفل بهذه المناسبة؟ وعندما أغلقت بوابة العنبر الرئيسية بدأت الاحتفالات على الفور.. وصاح أحد الزملاء : عنبر! كله يسمع! بعد عشر دقائق يبدأ أول يوم فى السنة الجديدة، فتحية حب منا لكل أبناء وبنات مصر، لأولادنا وأمهاتنا وزوجاتنا ولأصدقائنا وصديقاتنا، لكل طفل ولكل شيخ، ولمصر أمنا وأختنا وحبيبتنا. وانطلق يغنى بصوت أحش:

بلدى يا بلدى، وأنا نفسى أروح بلدى

يا عزيز عينى، السلطة أخدت ولدى

وانطلقنا كلنا نغنى الأغنية التى كان يشدو بها أجدادنا، وأخذت أغنى بانفعال، وتجسدت صورة أبى وقد اكتسى وجهه الأسمر الحزن، وأخذ صوته يرن فى أذنى: ياعزيز عينى، السلطة أخدت ولدى.

وفجأة سمعنا صوت: انتباه! وظننا الصوت تقليدا متقنا لصوت حارس مأمور السجن، ولكن لم يكن فى الأمر تقليد، إذ فتح باب العنبر فجأة، ودخل العساكر فى خطوات سريعة، وخلفهم المأمور وعدد من الضباط، وأخذوا يوزعون شتائمهم البذيئة علينا، وعلى آبائنا وأمهاتنا، بل والبلد التى قدمنا منها. وفتحت الغرف غرفة غرفة، وهجم التتار علينا بالعصى والقايش، وأوامر مشددة بأن: كله يبص للحيط! وبتشديد الضرب، ولم يعد يسمع سوى صوت التأوهات المكتومة، وارتطام الأجساد بالحائط أو بالقايش والعصى!

من التعذيب البدنى ! إلى التعذيب النفسى

الوفد فى ٦/١/١٩٩٧

هل كان عبدالناصر يعرف باعتقالات سجناء الرأى، أو أن ذلك تم من وراء ظهره ؟ سؤال ساذج يسأله الذين لا يعرفون طبيعة النظم الدكتاتورية، التى يهيمن عليها فرد واحد ترفعه وسائل الاعلام إلى مرتبة البطولة والقداسة، ويقبض بيديه الاثنين على ناصية الأمور، ويملك صفة المعز المذل وقدرته بكلمة ينطق بها لسانه فلا يملك لها أحد ردا.

وربما كانت الاجابة البسيطة عليه هى: هل كان أحد فى نظام عبدالناصر يملك حق الزج بذلك العدد الهائل من سجناء الرأى فى المعتقلات والتنكيل بهم، من وراء ظهر عبدالناصر؟

وبصورة أخرى: هل يملك أى مسئول فى نظام عبدالناصر تشويه صورته وتلطيخها بتلك الجرائم البشعة التى ارتكبت فى حق أصحاب الرأى من المعارضين لعبدالناصر، دون أن يدرى رأس هذا النظام وهو عبدالناصر؟

ولقد أورد الدكتور فتحى عبدالفتاح فى كتابه: «شيوعيون وناصريون» رواية ذات مغزى فى هذا الصدد، فقد ذكر أنه بعد اعتقاله بفترة، توجه والده إلى الأستاذ محمد نصر، وهو والد صلاح نصر مدير المخابرات، وكانا زميلين فى الدراسة، بالاضافة إلى أنه «ابن قريتنا»، وحاول الأب أن يدفع ابنه صلاح نصر إلى التدخل للافراج عن الدكتور فتحى عبدالفتاح، أو لنقله إلى القاهرة بعيدا عن التعذيب الذى كانوا يسمعون عنه، ولكن صلاح نصر قال: «مستحيل»! إن أمرهم فى يد الرئيس شخصيا، ولا يمكن لأحد منا أن يتدخل!».

ويتفق الجميع على أن مقتل شهدى عطية بيد التعذيب، ونجاح أسرته فى نشر خبر نعيه فى جريدة الأهرام يوم ٢٠ يونية ١٩٦٠، فى الوقت الذى كان عبدالناصر يزور فيه الرئيس تيتو فى بريونى، كان هو الذى أحرج عبدالناصر أمام العالم الاشتراكى، ودفعه إلى قطع مخطط التعذيب البدنى، واللجوء إلى خطة جهنمية أخرى للتعذيب النفسى والروحى كما سوف نرى.

فلم يكن نجاح أسرة شهدى عطية فى نشر خبر نعيه فى الأهرام مقصورا على مجرد النعى، بل إنه اصطحب - بذكاء شديد - ببعض أبيات الشعر التى تشير إلى أن وفاته كانت قتلا، إذ يقول مطلعها:

فتى مات بعد الطعن والضرب ميتة

تقوم مقام النصر إن فاته النصر!

لقد كان نشر خبر مصرع شهدى عطية على هذا النحو فضيحة للنظام الناصرى ولعبدالناصر شخصيا، الذى كان فى ذلك الوقت يعقد اتصالات وصداقات مع زعماء العالم الشيوعى، فلم يملك إلا أن يرسل من بريونى أمرا بالتحقيق.

على أنه أظهر فى الوقت نفسه اصراره على اعتقال سجناء الرأى، فلم يفرج عن أحد منهم، بل ظلوا فى المعتقلات المختلفة، بعد أن استبدل التعذيب النفسى والروحى بالتعذيب البدنى الذى سبب مشاكل للنظام.

ويكشف عن هذا اللون من التعذيب ببراعه الدكتور فتحى عبدالفتاح فى كتابه، و يصفه بأنه كان «أكثر قسوة وأشد خطرا من التعذيب البدنى، وأنه تعذيب لا يستخدم العصا والبندقية والكرباج والعمل الاجبارى، ولكنه تعذيب يحاول أن يحطم الشخص من الداخل!

ويقول: إن هذا اللون من التعذيب النفسى والروحى لم يكن يجرى عشوائيا، ولكنه جرى على أيدى أجهزة متخصصة تلقت التدريب عليه فى الولايات المتحدة الأمريكية.

وقد جاء لذلك الغرض عدد من الضباط المتخصصين ليقيموا معنا ليل نهار، يمارسون عملية «تحويل المتمرد والثائر إلى خرقة بالية فاقدة الثقة فى النفس وفى كل شىء»!

وقد كان هذا هو آخر شىء يتوقعه سجناء الرأى وقتذاك! لقد تصوروا أن إيقاف التعذيب هو انتصار لهم على النظام الناصرى، ووقف محسن الخياط الشاعر ذو الصوت المبحوح يرتجل قصيدة تعبر عن شعور الانتصار يقول فيها:

«مستقتلين.. ولاعمرنا نرمى السلاح من يدنا، مستموتين!

«لا جلادين ولاسفاحين حيغيروا طعم الكفاح من بقنا، طعمه جميل، زيك يانيل»!

«والشمس رامية شعرها ورا ظهرها، زى الغدير اللى انسكب منه الدهب وانت تسيل.

وانت يانيل، تأخذ وتدى أرضنا»

على أن شهور التعذيب البدنى المبرح على هذا النحو الوحشى، كان لابد أن تترك آثارها على أبدان سجناء الرأى. فكما يقول الدكتور فتحى عبدالفتاح: عندما أصبح هناك وقت لالتقاط النفاس، اكتشفنا أن الكثيرين قد بدأوا يفيقون على أمراض غريبة، ربما كانت كامنة طوال الفترة الماضية، وربما كان الجسد يستوعبها باحساسه بالخطر الذى كان يهدده كل لحظة، ولكنها بدأت تظهر وتطفو على السطح حين توقفت المخاطر الخارجية التى تعرض لها الجسد.

ويستشهد الدكتور فتحى عبدالفتاح على ذلك بأنه كان قبل المعتقل معتادا على مغص ينتابه أحيانا، ولكن هذا المغص اختفى تماما فى المعتقل مع المخاطر الخارجية الداهمة التى كان يتعرض لها جسده على يد زبانية التعذيب، فلما توقف التعذيب، عاوده المغص بشكل عنيف!

«ولم تكن حالتى هى الوحيدة، فلقد كان هناك الكثير من الزملاء الذين بدأوا يسقطون تحت هجمات أمراض غريبة، كالإغماء المفاجىء، وآلام الأسنان،والهزال الشديد الناجم عن إنيميا حادة!»

ولم تلبث خطة التعذيب الروحى والنفسى أن بدأ تنفيذها! وقد بدأت بحقن سجناء الرأى بالأمل فى الافراج، حتى راهن البعض على أننا سنخرج فى فترة لا تتعدى شهرا واحدا، فى حين أن البعض الأكثر تشاؤما تصوروا أن المسألة تحتاج إلى عدة شهور.

وسرعان ما جاءت اللحظة المناسبة فى يناير ١٩٦١ حين استدعت إدارة المعتقل ٧٥ من سجناء الرأى وأبلغتهم بأن عليهم أن يرتبوا أنفسهم للرحيل فى الغد إلى الفيوم، تمهيدا للافراج عنهم. وكانت تلك هى الخديعة الكبرى، فعلى حد قول الدكتور فتحى عبدالفتاح كانت المجموعة التى اختبرت محيرة وغريبة، فقد كان بينهم البعض الذين لم يتحملوا قسوة الظروف

الماضيـة لسـبب أو لآخـر، وأرسلوا إلى السلطات عـدة بيـانات وتقـارير يستعطفونها فيها، ويعلنون استعدادهم للكف عن أى عمل سياسى.

وبدلا من أن يتلقى المعتقلون فى الواحات الأنباء بأنه تم الافراج عن هؤلاء الزملاء الـ ٧٥ معتقلا، إذا بهم يفاجئون فى يوم من أيام يناير الباردة بعودة هؤلاء الزملاء من الفيوم، بعد أن خلفوا وراءهم حوالى ٣٣ نزيلا ممن استسلموا تماما لكل ما طلب منهم نظام عبدالناصر!

وقد حكى العائدون ما جرى، فذكروا أنهم عندما ذهبوا إلى الفيوم فوجئوا بظروف مختلفة كل الاختلاف: سرائر نظيفة معدة، وأبواب مفتوحة طول النهار، والتغذية جيدة. ولكن بعد أسبوع وصل حسن المصيلحى ومعه زبانيته إلى المعتقل، ولكن فى ثوب جديد، وبدور جديد، لا يستهدف فى هذه المرة الجسد، وإنما يستهدف الروح!

فقد أخذ المصيلحى وزبانيته يستدعون سجناء الرأى، كل واحد على انفراد، ويسألونه: لماذا تبقى فى المعتقل؟ لماذا لاتخرج؟ يمكنك أن تخرج إلى أهلك فورا، فقط مطلوب منك ورقة صغيرة تعترف فيها بأنك كنت مخطئا فى أفكارك، وتتعهد بأنك لن تعمل بالسياسة بعد ذلك!

وقد خضع البعض لهذا الضغط النفسى، فبعد سنوات الصحراء والعذاب والتعذيب، هاهو الباب مفتوح، وثمنه مجرد اعتراف وتعهد! وقد سقط هذا البعض، ولكن الآخرين شعروا بأن الحرية التى سوف يحصلون عليها بهذا الثمن فيها تحطيم لإنسانيتهم وإهدار لآدميتهم كأصحاب رأى وفكر، وقد عبر نبيل زكى عن هذا الشعور بقوله: الموت فى الواحات أفضل ألف مرة من الحرية الملوثة التى تعرضها!

وسرعان ما عزل هؤلاء فى عنبر خاص، وسحبت منهم كل الامتيازات، وأخذوا يتعرضون لضغوط أخرى مختلفة! وعلى حد قول

الدكتور فتحى عبدالفتاح: جاءوا للبعض بخطابات من زوجة أو خطيبة، تهدد بطلب الطلاق أو بفسخ الخطبة، وجاءوا بأولاد صغار ليبكوا أمام أبيهم، ويشكوا مر العيش، واحتياجهم إليه.

على أن الأربعين معتقلا من سجناء الرأى صمدوا فى مواجهة تلك الهجمات الخبيثة، التى قام بها من أسماهم الدكتور فتحى عبدالفتاح: «سماسرة حرية الخوف والانهيار الإنسانى»، وآثروا العودة إلى المعتقل، وهو ما جعل معين بسيسو الشاعر الفلسطينى ينفعل ويلقى قصيدة يقول فى مطلعها:

أكتب! واركع للورقة! واغرس قلمك فى عينى طفلك! واكتب ماشاء لك السجان بأن تكتب!

وفى الفترة التى أعقبت عودة سجناء الرأى من رحلة «التعذيب النفسى»، تفتحت شهية أجهزة عبدالناصر للاستمرار فيما فشل فيه أسلوب التعذيب البدنى. ويشرح ذلك الدكتور فتحى عبدالفتاح فيقول:

«حينما يكون الجسد هو الذى يتهدده الخطر، تنحصر المعاناة فى القدرة على تحمل بعض الآثار والآلام الجسدية، ولكن إذا كان المستهدف روحك وعقلك كإنسان، هنا يكون الخطر فادحا، وتكون المعاناة قاسية ومريرة».

«لقد مررنا بفترة المعاناة والآلام الجسدية، وسقط ضحايا نتيجة الضرب والتعذيب، ولكنهم سقطوا كآدميين وكمفكرين ومناضلين، ولكن التعذيب الذى بدأ مع ترحيلة الفيوم، كان تعذيبا أشد خطرا وأقسى للنفس والعقل.. تعذيبا يطلق عليك وحشا داخليا، يعربد ويجول مع كل اندفاعة فى جسدك».

لم يشأ عبدالناصر أن يفرج عن سجناء الرأى ليعودوا إلى ما بدأوا، وإنما أراد أن يخرجهم بعد أن يكونوا قد تحولوا إلى أمساخ آدمية، وكفوا عن

التفكير فى استقلالية، وأصبحوا عبيدا للنظام، وترسا فى عجلته، وتآكلت ارادتهم.

وأخذت الخطابات ترد إلى سجناء الرأي من الأهل، أملاها زبانية النظام الناصرى، كلها تطلب من الابن أو الأب، سماع الكلام والخروج. وقد أورد الدكتور فتحى عبدالفتاح نماذج من هذه الخطابات، فبعضها من زوجات يطلبن الطلاق. وأخريات يكتبن يشرحن لأزواجهن «كيف ضاقت فى وجوههن الحياة حتى أصبحن على أبواب الانحراف!»، وطفلة تكتب لأبيها: «أخرج من أجلى ومن أجل ماما، قالوا لى إنك لا تريد أن تخرج لانك تكرهنا! أنا أكرهك»!. ووالد مسن يكتب لإبنه: «إننى على مشارف الموت، وكم كنت أود أن أراك قبل أن أموت. أخرج من أجلى، وكفاك عنادا».

ويستطرد الدكتور فتحى عبدالفتاح قائلا: أذكر هنا هنداوى الصادق، العامل بشبرا الخيمة، كان مناضلا صلبا ومصريا تعتز به الطبقة العاملة،تعرض مرات عديدة للضرب والجلد، ولكنه كان يخرج من كل «علقة» ساخرا يقول: أنا زى القطط، بسبع أرواح!

هذا المناضل الصلب وصله خطاب من زوجته، كتبه - كما يقول الدكتور فتحى عبدالفتاح - خبير فى التعذيب النفسى يقول: «ابنتك هدى أصيبت بالتهاب رئوى، أذهب بها كل يوم إلى القصر العينى، بعت كل شىء، ولم يبق عندى إلا أن أبيع نفسى لأنقذ هدى، أما أنت فالله يسامحك»!.

وعندما رآه الدكتور فتحى عبدالفتاح يبكى منهارا قال له: أكتب ما يريدون! ولكن الآخر رد عليه فى انفعال: أريد أن أخرج مواطنا شريفا، وليس خرقة بالية!

ولكن نظام عبدالناصر كان يريد من المواطنين أن يتحولوا إلى خرق بالية. ومع ذلك فان الكثيرين من هذه الخرق البالية مازالوا يروجون للنظام الناصرى ويدعون له، للدخول بمصر إلى القرن الواحد والعشرين.

وعقاب الرفض:
استئصال العين!

الوفد فى ٢٠/ ١/ ١٩٩٧

لم يقتصر تنكيل نظام عبد الناصر بالمعارضين من المفكرين والعلماء والكتاب والصحفيين والعمال على الرجال، بل تعداه إلى المعارضات من السيدات والفتيات، فلم يرحم ضعفهن، وعجزهن عن تهديد النظام بغير الكلمة المجردة، بل خصص لهن سجن القناطر الذى استضاف عددا ضخما بلغ أربعين معتقلة، انتزعن من بيوتهن وأبنائهن وبناتهن وأمهاتهن وآبائهن وأزواجهن، وقذف بهن إلى سجن القناطر ليدفعن ثمن الرأى المعارض، ويحرمن من كافة حقوق الإنسان التى كفلتها المواثيق السماوية والإنسانية!

وهذا يفضح تضليل الناصريين الذين يتزعمون اليوم جمعيات حقوق الإنسان فى مصر والبلاد العربية، وتذكيرا لهم بأن التاريخ شاهد عدل على جرائمهم، وعلى انتهاكاتهم لحقوق الإنسان المصرى، واجهاضهم لحرية الرأى، وتنكيلهم بأصحاب الرأى المعارض، وبصاحبات الرأى المعارض أيضا، مما لم يسبق له مثيل فى تاريخ مصر على مر العصور.

ويذكر الدكتور فتحى عبد الفتاح أنه كان يوجد من بين أربعين معتقلة فى سجن القناطر حوالى العشرين منهن، ممن كن زوجات أو شقيقات أو قريبات للزملاء المعتقلين!

ومعنى ذلك أن نظام عبد الناصر لم يكن يتردد فى اعتقال الأسرة بأكملها إذا كانت تعارضه فى الرأى؟ فقد كانت هناك من المعتقلات: أسماء حليم زوجة أسعد حليم، وثريا حبشى زوجة فوزى حبشى، وثريا أدهم زوجة حلمى ياسين، وثريا إبراهيم زوجة الدكتور مختار السيد، وفاطمة زكى زوجة نبيل الهلالى، وسعاد بطرس زوجة شكرى عازر وشقيقة سعد بطرس، وسميرة الصاوى زوجة أحمد طه، وانتصار خطاب زوجة صلاح خطاب، وزينات الصباغ زوجة اسماعيل المهداوى، وليلى شعيب خطيبة رجاء طنطاوى، وانجى أفلاطون خطيبة الدكتور فوزى منصور، ونوال المحلاوى زوجة عبد السلام مبارك، وليلى عبد الحكيم شقيقة طاهر عبدالحكيم، وعايدة بدر شقيقة أحمد بدر.

والمذهل حقا، ومما يؤكد فاشية النظام الناصرى، أنه لم يكن يبالى بمصير الأطفال الذين ينتزع منهم آباؤهم وأمهاتهم، ويتركهم بدون أى عائل! هكذا حدث مع أحمد طه الذى اعتقل وزوجته وتركا إبنا صغيرا عمره بضع سنوات، ولولا إنسانية الجيران الذين احتضنوا الطفل الصغير طوال سنوات اعتقال والديه، لما عرف أحد مصير هذا الطفل!

وكذلك فوزى حبشى وثريا حبشى اللذين انتزعا من حضن ولديهما وعمرهما بين عام وأربعة أعوام، وترك زبانية عبد الناصر الطفلين يصرخان عند الفجر وهم يتوجهون بهما إلى المعتقل، ليتولى أمرهما الجيران! كذلك أسعد حليم الذى انتزعت زوجته أسماء حليم الى المعتقل وهى حامل، فوضعت ابنها فى السجن، وقضى الطفل طفولته مع أمه فى زنازين سجن القناطر!

ويقول الدكتور فتحى عبد الفتاح إنه عندما أفرج عن سميرة الصاوى زوجة أحمد طه قبله، بعد أربعة أعوام قضتها فى السجن، سعد سعادة بالغة، وكان يحكى عن عبد القادر الصغير الذى حرم من الوالد والأم فى ليلة سوداء، ثم يسرح بفكره إلى شبرا، ويتصور لقاء عبد القادر مع أمه بعد غيبة طويلة، بعد أن أصبح شابا فى الثالثة عشرة من عمره»!

ومع ذلك فإن النظام الناصرى لم يتردد فى استخدام الأساليب القذرة التى كان يستخدمها زبانية صلاح نصر! فعندما سقط سجناء الرأى وسجينات الرأى مرضى بعد انتهاء عملية التعذيب البدنى، وأخذ النظام يخضعهم للتعذيب الروحى والنفسى، انتقل الكثيرون منهم إلى القصر العينى للعلاج، حيث أخضعوا لتعذيب من نوع آخر واختبار لايقل فظاعة!

فقد كان المفروض أن يوضع المعتقلون من الرجال فى عنبر، وتوضع المعتقلات من السيدات فى عنبر آخر، ولكن ادارة المعتقل شاءت الا أن تضع المعتقلين والمعتقلات فى عنبر واحد!

ويقول الدكتور فتحى عبد الفتاح، الذى كان قد عزل لاجراء عملية «كلوكوما»: إن السؤال الذى كان يثور فى ذهنه باستمرار «لماذا يوضع الجميع فى مكان واحد؟ وماذا يجرى داخل الغرف الثلاث المغلقة على ١٤ زميلا وزميلة»؟

«ولم يكن من الصعب أن أعرف السبب، بعد أن نزلت اليهم مرتين، وجلست إلى بعضهم عدة ساعات، «كان عنبر المعتقلين فى القصر العينى أحد الخطط الذكية لأساتذة «القتل المعنوى». فلم يكن يسمح بالبقاء فى هذا العنبر سوى لبعض من الزملاء الذين أبدوا استعدادا للتفاهم! بعضهم كان يعانى مرضا خفيفا، ولكن غالبيتهم كانوا من أصحاب الحظوة لدى الأجهزة!

«كذلك فإن إبقاء بعض الزميلات معهم يمكن أن يؤدى إلى قصص تصلح لأن تكون سلاحا يستخدم ضد الاشتراكية والاشتراكيين.

«حقيقة أنه حدثت بعض التجاوزات، ولكن الحقيقة الأكثر والمشرقة، أنه بالرغم من كل تلك الظروف الصعبة التى صنعت بإحكام لانزلاق الزميلات، إلا أن الغالبية استطاعت أن تتماسك، بل وتقدم القدوة والمثل العظيمة لكيف تكون أخلاقيات الفتاة الاشتراكية».

وقد كان على الدكتور فتحى عبد الفتاح أن يخوض تجربة أخرى من تجارب «القتل المعنوى»، عندما عهد إلى إحدى الممرضات باغرائه، وكانت التجربة أقسى من التعذيب البدنى، فعلى حد قوله: «لقد واجهت الشومة الغليظة وهى ترتفع ثم تهوى على الجسد تلهبه وتمزقه، وقاومت.. وواجهت الكرباج ينفرد ويطير ويلسع، وقاومت، وواجهت الجوع ثمانية عشر يوما بلا طعام وكسرة الخبز تعنى الحياة، وقاومت، وواجهت قلما وورقة يمكن أن يكتبا شيئا يخرج بى من السجن، وقاومت. ونظرت إليها مثلما كنت أنظر إلى أدوات التعذيب الأخرى، وصرخت فى وجهها: قولى لهم: أنا مش مراهق ساذج، أنا صاحب عقيدة ورأى!. وحين أتذكر تلك الليلة، أتذكر على الفور أقسى معركة دخلتها».

على هذا النحو كان النظام الناصرى يجرد كل أسلحته لتحويل سجناء الرأى إلى خرق بالية لارأى لها! ومن هنا كان على الدكتور فتحى عبدالفتاح أن يدفع ثمن الرفض، وكان الثمن هو استئصال عينه! ويروى القصة فيقول إنه فوجئ بأوراق علاجه تحال إلى طبيب من أطباء النظام الناصرى يدعى أمين زايد بدلا من الطبيب الذى كان يتبعه وهو الدكتور عصام توفيق، وقد قرر هذا الطبيب أن تشخيص الأخير خاطئ، على الرغم من أنه يفوقه فى الدرجة العلمية، اذ هو بدرجة أستاذ مساعد بينما الطبيب الناصرى بدرجة مدرس، وأمر بخروجه من المستشفى وعودته إلى معتقل

الواحات! بما يعنى أن يفقد بصره تدريجيا، إذ كان يعانى من «جلوكوما» حادة.

وعندما ما أعيد إلى القصر العينى بسبب سوء حالته، أحيل إلى نفس الدكتور أمين زايد، اصرارا على عقابه، وجاء تشخيص الدكتور الناصرى هذه المرة على النقيض! فقد قرر أن حالة عينه اليسرى ميئوس منها، ولابد من استئصالها! وصرخ الدكتور فتحى عبد الفتاح قائلا: سيادتك بتقول إن حالة عينى ميئوس منها، ومن ثلاث أسابيع قلت إن عينى سليمة! أنا مش فاهم!. ورد الطبيب الجزار فى برود غريب: «ولاعمرك حتفهم»! والتفت إلى الممرضة قائلا: «لازم يمضى على إقرار بموافقته على الاستئصال اليوم ويرفق بأوراقه»!.

وكان من الطبيعى أن يقاتل الدكتور فتحى عبد الفتاح حتى لاتستأصل عينه اليسرى، وأن يدخل فى صراع طويل أعيد فيه إلى الواحات، ولكن بعد أن أفلح فى تسريب خبر ما يراد بعينه إلى الخارج، وكتبت بعض الصحف والمجلات العربية والأجنبية عن موضوعه تحت عنوان: «انقذوا عين الصحفى الشاب»! وقامت حملة لإنقاذ عينيه. وفى الواحات أضرب أربعة من زملائه عن الطعام حتى يتم نقله وعلاجه فى القاهرة، وكان الأربعة من ذوى الأسماء المعروفة على المستوى العربى والعالمى، وهم الدكتور اسماعيل صبرى عبد الله، ونبيل الهلالى، وعبدالمنعم شتلة، وحلمى يسن.

وهنا اضطر النظام الناصرى إلى نقله إلى القاهرة، ولكن مع الاصرار على أن ينال عقوبته على عدم الخضوع، وهى استئصال عينه! فقد فوجئ الدكتور فتحى عبد الفتاح بعرضه مرة أخرى على الدكتور أمين زايد نفسه الذى أراد استئصال عينه! وجرت مساومته مرة أخرى بينما كان يوضع فى زنزانة مظلمة معتمة! ومضت به ستون يوما بعيدا عن العلاج وبصره

يتدهور يوما بعد يوم وهو قابع فى الزنزانة رقم ٣٠ فى الدور رقم ٦ فى سجن مصر!

وهنا آثر الانتحار على الاستسلام، بعد أن ترك إلى حسن المصيلحى كتابا يقول فيه: لقد انتصرت عليك حتى بالموت»! وتناول عشر حبات نوفالجين وعشر حبات لومينال، ورقد فى انتظار الموت.

على أنه أنقذ فى آخر لحظة، واهتز النظام الناصرى الذى خشى الفضيحة، ووصلت النيابة لاجراء التحقيق، ولتكتشف الصورة البشعة الحقيقية للنظام الناصرى كما يصورها الدكتور فتحى عبد الفتاح فى روايته الآتية:

«فقد سأله وكيل نيابة الخليفة عن التهمة التى دخل من أجلها السجن؟ وأجاب الدكتور فتحى عبد الفتاح دهشا: أى تهمة؟ ورد وكيل النيابة: الجريمة التى دخلت من أجلها السجن، ومدة الحكم؟ ورد الدكتور فتحى: لا أعرف! وتصور وكيل النيابة أنه يهزل، ونبهه إلى أنه يدلى باجابته «فى محضر رسمى»! وأجاب الدكتور فتحى: حقيقة لا أعرف! لست مسجونا، ولم توجه لى أى تهمة، ولم يصدر ضدى أى حكم»! وغضب وكيل النيابة لما اعتبره سخرية وأعاد سؤاله: ياأستاذ.. لاتضيع وقت النيابة.. ماهى مدة الحكم عليك؟ ورد الدكتور فتحى عبد الفتاح: «قلت إنه لم توجه لى أى تهمة حتى الآن، وأنا معتقل منذ أربع سنوات، ولم يجر معى أى تحقيق، وسيادتك أول مسئول قانونى ألتقى به طوال تلك الفترة»! وصاح وكيل النيابة مأخوذا: مش ممكن، أربع سنوات بدون تحقيق»!.

وتقدم مأمور السجن يشرح لوكيل النيابة، الذى كانت ملامحه تشى بأنه متخرج حديثا، الموقف، فأكد له أن الدكتور فتحى عبد الفتاح بالفعل معتقل وليس مسجونا! وصاح فيه وكيل النيابة: كيف ياحضرة المأمور يوجد فى سجنك إنسان لم يحقق معه، ولم يصدر ضده أى حكم، وليس على ذمة قضية؟ كيف؟ إفتح محضر حالا مع السيد مأمور سجن مصر!

وتقدم ضابط المباحث لانقاذ مأمور السجن، وشرح الأمر لوكيل النيابة قائلا: الأستاذ معتقل بقرار جمهورى وفقا لقوانين الطوارئ! أما مهمة سيادتك فهى التحقيق فى حادث الانتحار فقط!

على أن وكيل النيابة لم يستطع أن يستوعب الموقف، وأصر على إجراء تحقيق مع مأمور السجن! وأشفق الدكتور فتحى على وكيل النيابة، ورفع صوته «محاولا وقف المهزلة اللامعقولة التى تجرى» ـ حسب قوله ـ وقال:

«ياحضرة وكيل النيابة، بدلا من إضاعة الوقت فى قضايا لاتملك أن تحسمها، ولا السيد المأمور، فإنى أرجوك إذا كنت متحمسا لقضيتى أن تأمر: إما بعلاجى فى أحد المستشفيات الخاصة، وإما بنقلى إلى سجن الواحات»!

على أن وكيل النيابة المتحمس رد قائلا: لا، بل سأصدر أمرى بالافراج عنك فورا! واجتاحته موجة من الانفعال وهو يتكلم عن القانون وضرورة سيادة القانون، ومش ممكن أسكت على هذا الانتهاك! معقول؟ مسجون بدون تحقيق، أو اقرار اتهام، أو حكم محكمة؟ مش ممكن!

وخرج الفرسان الثلاثة من الغرفة ليواصلوا المعركة فى غرفة المأمور، وسط دهشة الدكتور فتحى عبد الفتاح لهذه المعركة الغريبة التى كانت تشترك فيها ـ على حد قوله ـ أجهزة السلطة، ولكن أى أجهزة؟ وأخذ يحلل الموقف على النحو الآتى:

«إذا قلنا إن وكيل النيابة الشاب يمثل السلطة القضائية، ومأمور السجن يمثل السلطة التنفيذية، فأى سلطة يمثلها ضابط المباحث؟ إنه كل شئ! إنه الخصم والحكم! والقانون والتنفيذ! إنه فرعون مصر! وإمبراطور روما! وقائد التتار! وهتلر ألمانيا! وسالازارالبرتغال! وكنت أعرف بالطبع من سينتصر فى تلك المعركة!».

هكذا لخص الدكتور فتحى عبد الفتاح نظام عبد الناصر: إنه فرعون مصر وإمبراطور روما وقائد التتار وهتلر ألمانيا وسالازار البرتغال! ولكن اليسار المصرى يزعم اليوم أنه كان نظاما اشتراكيا!.

تناقضات

د. عبدالعظيم أنيس

الوفد في ٢٧/ ١/ ١٩٩٧

أود أن أقول في بداية هذا المقال إنه لايجب على الناصريين في جريدة «العربي» أن يدافعوا عن معتقلات عبد الناصر بأن هذه الاعتقالات تلجأ إليها أكثر الدول الديموقراطية دفاعا عن نفسها، وأن أمريكا اعتقلت في الحرب العالمية الثانية ٩٠ ألفا ومائتي أمريكي من أصل ياباني، ثم الاستدلال بعدد المعتقلين في عهود عبد الناصر والسادات ومبارك وعقد المقارنة بينهما!

هذا كلام حق يراد به باطل! فما حدث في عصر عبد الناصر هو أمر مختلف تماما عما حدث في الحالات السالفة الفكر، فلم يكن ثمة خطر يهدد النظام الناصري من جانب الشيوعيين بأي حال من الأحوال، فلم يضبط الشيوعيون يدبرون قلب النظام بالقوة، ولم يضبط لديهم أسلحة أو متفجرات، وإنما كان كل ماضبط في بيوتهم هو مجرد كتب وأوراق عن نشاط حزبي، ومعنى ذلك أن الأمر يدخل في شكل خلاف في الرأي ولايدخل في شكل تآمر مسلح على النظام السياسي.

ثانيا، أن الأمر فى اعتقالات عبد الناصر لم يكن أمر اعتقال، وإنما كان أمر انتقام! لقد كان تعذيبا لم تعرفه سوى المعتقلات النازية والفاشية، وكما وصفه الدكتور عبد العظيم أنيس فلم يكن ينقصه سوى غرف الغاز ليصبح مطابقا لما يجرى فى معتقلات النازى. وهذا التعذيب بالذات هو الذى يميز أى نظام، فالنظم الديموقراطية تعتقل وفقا للقانون، وتعطى المعتقل كافة الحقوق الإنسانية، ولكن نظام عبد الناصر حرم مخالفيه فى الرأى من أية حقوق، وأكثر من ذلك سلمهم لزبانية تعذيب لم يعرفهم المجتمع المصرى طوال تاريخه.

وهذا الكلام ليس كلامى وإنما هو كلام إلهام سيف النصر. ففى كتابه «فى معتقل أبو زعبل» يقول: «سخرية أن يكون للمتهم بتسريح الغلمان والدعارة والمخدرات حقوق، وأن يحرم سجين بتهمة عقائدية من أى حقوق»!

ثالثا، أنه عندما استولى عبد الناصر على الحكم فى مصر فى يوليو ١٩٥٢، خدع الشعب خديعة كبرى عندما رفع لواء الدستور فى أول بيان للثورة، ولم يكد يتمكن من الحكم حتى داس الدستور بقدميه، وظل يحكم البلاد حكما دكتاتوريا حتى وفاته! وفى هذا الحكم لم يسمح لرأى مخالف بأن يرتفع، ولم يسمح له حتى بمحاكمة عادلة، وإنما زج بهم فى المعتقلات بدون أدنى محاكمة. فقد كان جميع من اعتقلوا فى أوردى أبو زعبل والواحات وسجن القناطر وغيرها ممن لم يعرضوا على أية محاكمة شرعية، ولم توجه لهم أية تهمة جادة، وإنما حرموا من أبسط حقوق الإنسان بارادة فرد هو عبد الناصر.

ومن هنا حين يتصدى الناصريون اليوم للدفاع عن حقوق الإنسان ويؤلفون الجمعيات هنا وهناك، فإنهم يضللون شعبنا، لأنهم لايؤمنون فى

قرارة أنفسهم بحقوق الإنسان، ولو كانوا يؤمنون بحقوق الإنسان لما ساندوا النظام الذى ولغت يده فى حقوق الإنسان، ولما أصبحوا اليوم المدافعين عن هذا النظام!

على كل حال، ففى هذا المقال نستعين بوثيقة تاريخية أخرى هى كتاب كاتب يسارى مرموق ومفكر معروف هو الدكتور عبد العظيم أنيس، الذى أصدرته مؤسسة روز اليوسف تحت عنوان: «رسائل الحب والحزن والثورة».

ونلاحظ أن الدكتور عبد العظيم لم يكتب هذا الكتاب للتشهير بعبد الناصر، فقد كان رغم ماتعرض له من تعذيب مروع لمجرد خلافه فى الرأى مع نظام عبدالناصر، يعتقد أن عبدالناصر هو استمرار حقيقى لعرابى ومصطفى كامل وسعد زغلول! بل إنه كان «استمرارا أرقى»! -حسب قوله- استنادا إلى أنه «لايوجد شخص واحد على قدر من الموضوعية يستطيع أن ينكر قيمة التحولات الاجتماعية الهامة التى قادها عبد الناصر فى المجتمع المصرى»!

واعتقادى أنه فى هذا الكلام كان مدفوعا بحملة التشهير التى تعرض لها عبد الناصر بعد وفاته، والتى دفعت فرق اليسار إلى مقاومتها من قبيل الدفاع عن النفس باعتبارها القوى المضادة للقوى الرجعية، وقد كنت شخصيا أحد الأقلام التى تصدت لهذا التيار الرجعى فى مجلة روزاليوسف وجريدة الجمهورية فى مقالات مطولة تضمنها كتابى: «مصر فى عصر السادات»، حتى جاءت مبادرة السلام للسادات لتعيد بعض فرق اليسار النظر فى التجربة الناصرية، بعد أن تبين أنها هى التى قادت باهمالها وأخطائها إلى كارثة هزيمة يونية ١٩٦٧، التى قادت إلى حرب أكتوبر وإلى مبادرة السلام، وكنت أحد هؤلاء الذين أعادوا النظر فى التجربة الناصرية بعد أن تبينت حجم أخطائها من خلال دراستى لحرب يونية ١٩٦٧ التى صدرت تحت عنوان: «تحطيم الألهة».

على أن الدكتور عبد العظيم أنيس بقى على رأيه فى عبد الناصر وثورة يوليو، على الرغم مما أدان به الثورة فى مقدمته لكتابه: «رسائل الحب والحزن والثورة»، ومانسبه إليها من فشل الوحدة المصرية السورية التى هى أول وحدة عربية فى العصر الحديث، وقوله: «إن المسئولية الأولى فيما حدث تقع - فى رأيى - على أكتاف القيادة السياسية فى مصر، بما تورطت فيه هى من أخطاء سياسية، وماتورطت فيه أجهزة أمنها من جرائم»!

ثم يؤكد هذه الإدانة مرة أخرى فيقول: «كيف تم الانقلاب على الوحدة بهذه السهولة؟ بل كيف انهار صرح الوحدة فى دقائق؟ إن الاجابة على هذا السؤال لاتكتسب أهمية تاريخية فحسب، وإنما ترتبط بمستقبل النضال من أجل الوحدة فى المستقبل، وفى رأيى أن المفتاح الرئيسى فى هذه الاجابة يتمثل فى عداء نظام عبد الناصر للديموقراطية السياسية والجبهة الوطنية، الذى أعطى أعداء الوحدة فرصتهم الذهبية».

هذا هو تقييم الدكتور عبد العظيم أنيس لموقف التجربة الناصرية من قضية الوحدة، وهى إحدى القضيتين الرئيسيتين فى تقييم التجربة الناصرية. أما القضية الثانية فهى قضية الديموقراطية، وقد جاءت فرصة اعتقاله وتعذيبه فى معتقل الأوردى لتتيح له فرصة أوسع للحكم فى هذه القضية الثانية - كما سوف نوضح فى هذه المقالات.

ولمعلومية القارئ فإن هاتين القضيتين - باعتراف الدكتور عبد العظيم أنيس - هما القضيتان اللتان كانت تقسمان صفوف الشيوعيين المصريين، ففى حين كانت الأغلبية، ومنها الدكتور عبد العظيم أنيس، «ترقب سياسة عبد الناصر فى حذر وتحفظ، وبنظرة نافذة لقضيتى الوحدة والديموقراطية»، كانت مجموعة شهدى عطية تتخذ مواقف التأييد شبه المطلق لسياسة عبد الناصر!

وقد دفع شهدى عطية حياته ثمنا لهذا التأييد المطلق لسياسة عبد الناصر فى أوردى أبو زعبل! ودفع الدكتور عبد العظيم أنيس الثمن أيضا عندما وقع الانقسام فى صفوف الأغلبية بعد أن وجدوا أنفسهم فى معتقلات عبد الناصر، ففى حين نزع قسم من هذه الأغلبية من نظام عبد الناصر الصفة الاشتراكية واعتبره رأسمالية دولة احتكارية، رأى قسم آخر فى النظام ملامح فئات البورجوازية الصغيرة بكل مافيها من مميزات ثورية كبيرة وتناقضات ومواقف معادية للديموقراطية!

وقد هاجم الدكتور عبد العظيم أنيس الفريق الذى اعتبر نظام عبد الناصرر رأسمالية دولة احتكارية. وهو مايفسر إشادته «بالتحولات الاجتماعية الهامة التى قادها عبد الناصر فى المجتمع المصرى» فى كلامه السالف الذكر.

وكان أجدر به أن يتبين أن هذه التحولات الاجتماعية ذاتها هى التى اتخذها عبد الناصر ذريعة لفرض دكتاتورية الدولة، وأنها لم تكن انطلاقا من فكر اشتراكى تقدمى، بدليل لايقبل الجدل، هو أنه فى الوقت الذى كان عبد الناصر يحدث هذه التحولات الاجتماعية التى تحدث عنها الدكتور عبد العظيم أنيس كان يعتقل الاشتراكيين الحقيقيين، ومنهم الدكتور عبد العظيم أنيس نفسه، ويذيقهم ألوان العذاب التى لم تعرفها سوى النظم النازية والفاشية!

فقد أعلن عبد الناصر قراراته التى سميت بالقرارات الاشتراكية فى يولية ١٩٦١، وكان الاشتراكيون الحقيقيون فى معتقلاته قبل عام ونصف! أى من يناير ١٩٥٩! ولو كانت هذه القرارات قد نبعت من فكر اشتراكى لأعقبها على الفور الافراج عن المعتقلين الاشتراكيين ليكونوا سندا لنظام عبد الناصر، ولكنه أبقى هؤلاء الاشتراكيين فى المعتقلات ثلاث سنوات أخرى! - أى إلى ابريل ١٩٦٤ - باعتراف الدكتور عبد العظيم أنيس!

بل إنه فيما عدا عدة شهور فى أواخر سنة ١٩٦٤، فإن معتقل القلعة وسجن طرة - كما يقول الدكتور فتحى عبد الفتاح - عادا من جديد يستقبلان نماذج من المعتقلين الشيوعيين! وذلك تحت دعاوى كثيرة بلغت حد اعتقال أحد هؤلاء، وهو فرانسيس لبيب بتهمة «أنه يلسّن» على النظام! كما اعتقل أيضا الذين سجلوا رأيهم فى المؤتمر الموسع للتنظيم الشيوعى وكانوا ضد قرار حل التنظيمات الشيوعية! بل إن عددا آخر من قيادات منظمة الشباب الاشتراكى وأساتذة المعهد العالى للدراسات الاشتراكية قد اعتقلوا سنة ١٩٦٦ - كما يقول الدكتور فتحى عبد الفتاح - تحت دعوى الترويج للمذهب الماركسى!

ومن هنا فلست أدرى كيف اعتبر الدكتور عبد العظيم أنيس نظام عبد الناصر نظاما اشتراكيا ونفى عنه صفة رأسمالية الدولة، اللهم الا إذا كان ينفى عن نفسه شخصياً صفة الاشتراكية ويخلعها على عبد الناصر! أو كان يعترف بإمكان قيام الاشتراكية على أيدى غير اشتراكيين! وفى هذه الحالة مافائدة وجود الاشتراكيين أصلا، ومافائدة دورهم، ومافائدة بقائهم؟

ثم إن الدكتور عبد العظيم أنيس يعتبر عبد الناصر «استمرارا أرقى» لعرابى ومصطفى كامل وسعد زغلول! ويرى أنه كان أحد القادة المرموقين للنضال العربى، مع أنه يعترف بأنه يتحمل «المسئولية الأولى» عن انهيار أول وحدة عربية فى العصر الحديث! فكيف يتفق هذا مع ذاك؟ إن قادة النضال العربى هم الذين يحققون الوحدة، وليسوا هم الذين يستهينون بالوحدة ويتورطون فى أخطاء سياسية وجرائم تؤدى إلى انهيارها - إنهيارها إلى الأبد!

ثم إن الدكتور عبد العظيم أنيس يعترف فى كتابه بأن الذين أشرفوا على تعذيبه فى أوردى أبو زعبل «لابد أن يكونوا قد دربوا على يد بعض

النازيين من الألمان»! ويقول إنه عندما زار معتقل «بوخنفالد»* فى ألمانيا عام ١٩٦٩ ، واستمع إلى شرح الدليل، وجد تشابها غريبا بين ماكان يجرى فيه من أساليب تعذيب وبين ماجرى فى معتقل أوردى أبو زعبل»! بل يعترف بأن المسئولين عن قتل شهدى عطية، ومن قبله الدكتور فريد حداد «لايزالون حتى الآن دون جزاء»!

والسؤال الآن: إذا كان هؤلاء النازيون هم أدوات نظام عبد الناصر فى محاربة الشيوعيين المصريين، وإذا كان عبد الناصرقد فشل فى أهم قضيتين وهما قضية الوحدة وقضية الديموقراطية، فما هو الخطأ فى وصفنا نظام عبد الناصر بأنه رأسمالية دولة احتكارية وليس اشتراكية؟ وماهو الخطأ فى وصف نظام عبد الناصر بأنه كان نظاما نازيا وفاشيا؟

اعترافات :
د . عبدالعظيم أنيس !

الوفد فى ٣/ ٢/ ١٩٩٧

فى مقالنا السابق عرضنا رأى الدكتور عبد العظيم أنيس فى جمال عبدالناصر، وكيف اعتبره استمراراً «أرقى» لعرابى ومصطفى كامل وسعد زغلول! وناقشنا هذا الرأى فى ضوء فشل التجربة الناصرية فى قضيتى الوحدة العربية والديموقراطية، وهما القضيتان اللتان اعتبرهما الدكتور عبد العظيم أنيس أساسا لتقييم التجربة الناصرية. وفى هذا المقال نسوق اعترافات الدكتور عبد العظيم أنيس الخاصة بتجربته الشخصية مع نظام عبد الناصر، وهى تجربة غنية.

فقد اعتقل فى فجر أول يناير سنة ١٩٥٩ ، وظل معتقلا حتى أبريل ١٩٦٤ ، أى أن اعتقاله طال خمس سنوات وثلاثة شهور، وفى ذلك يقول: «وقد قضيت هذه الفترة الطويلة فى عدة معتقلات مختلفة، بدأت بمعتقل القلعة، ثم معتقل الواحات، ثم عدت إلى سجن مصر استعدادا لتقديمى، مع ستين آخرين، إلى المحاكمة أمام مجلس عسكرى يرأسه مدير سلاح المدفعية اللواء هلال عبد الله هلال، فى أكتوبر سنة ١٩٥٩ ، بالإسكندرية،

وبعد المحاكمة عدنا من الإسكندرية إلى سجن مصر مرة أخرى، حيث نقلنا فى ٧ نوفمبر ١٩٥٩ إلى معتقل أوردى أبو زعبل.

«وفى أوردى أبو زعبل - كما يقول - «جرت أول تجربة تعذيب جماعية، على يد جهاز المباحث العامة وضباط مصلحة السجون. وليس لدى شك فى أن هؤلاء الذين أشرفوا على هذه التجربة البربرية لابد أن يكونوا قد دربوا على يد بعض النازيين من الألمان، لأننى عندما زرت بقايا معتقل «بوخنفالد» فى ألمانيا عام ١٩٦٩، واستمعت إلى شرح الدليل، وجدت تشابها غريبا بين ماكان يجرى فيه من أساليب تعذيب وماجرى فى معتقل أوردى أبو زعبل!

«وقد تولى قيادة هذا العمل الوحشى - الذى سوف يرد وصفه فى صفحات الكتاب - العميد حسن مصيلحى من جهاز المباحث العامة، واللواء اسماعيل همت، وكيل مصلحة السجون، وانتهت هذه التجربة بفاجعة قتل الصديق العزيز شهدى عطية فى يونيو سنة ١٩٦٠ . وعندئذ تحركت الدولة لوقف التعذيب، وإبعاد المسئولين عن هذا العمل الاجرامى.

«ومع ذلك فلا يزال المسئولون عن قتل شهدى عطية، ومن قبله الدكتور فريد حداد، حتى الآن دون جزاء!

«وبعد توقف سياسة التعذيب فى الأوردى، نقلنا فى يوليو سنة ١٩٦١ إلى معتقل الواحات الخارجة، وبقينا هناك فى ظروف معقولة نسبيا حتى أفرج عنا فى أبريل سنة ١٩٦٤ على أثر الغاء الأحكام العرفية، وإقرارسياسة تصفية المعتقلات».

على هذا النحو اقتطع عبد الناصر من حياة الدكتور عبد العظيم أنيس خمس سنوات وثلاثة أشهر، قضاها بعيدا عن زوجته التى كان قد تزوجها قبل عام واحد بعد قصة حب، وهى السيدة عايدة ثابت التى كانت تعمل

صحفية فى جريدة المساء، وقد فصلها عبد الناصر من عملها، كما فصل الدكتور عبد العظيم أنيس، «وأصبحنا نحن الاثنين نواجه الحياة بلا مورد: أنا فى المعتقل، وهى فى الخارج!».

على هذا النحو كانت إنسانية عبدالناصر: اعتقال خصومه فى الرأى، وحرمانهم من أية موارد يواجهون بها الحياة! ومع ذلك فإن السيدة عايدة ثابت كانت محظوظة، لأن عبدالناصر لم يعتقلها كما اعتقل زوجات المعتقلين الشيوعيين الآخرين! ربما لأن زواجها بالدكتور عبدالعظيم أنيس لم يكن قد مضى عليه أكثر من عام، إذ اكتفى بفصلها من عملها بجريدة المساء، وتشريدها لمدة خمس سنوات!

وقد كانت صلة السيدة عايدة ثابت بالمناضلة الوفدية الشهيرة فهيمة ثابت، التى تطوعت لمرافقة أم المصريين عند نفيها مع سعد زغلول إلى جبل طارق، صلة قرابة وثيقة، إذ كانت فهيمة ثابت عمتها ومربيتها.

ومن المحقق أن خسارة تلك السنوات الخمس والأشهر الثلاثة، التى اقتطعت من حياة الدكتور عبد العظيم أنيس الزوجية، كانت أفدح من غيرها، لأن السيدة عايدة ثابت ماتت بعد عشر سنوات فقط فى أنضج سنوات حياتها إثر فاجعة مروعة! فكأن الدكتور عبد العظيم أنيس خسر خسارة مضاعفة بتلك السنوات التى اقتطعت من عمر حياته الزوجية.

ولم تكن تلك الخسارة الفادحة التى منى بها الدكتور عبد العظيم أنيس بسبب اعتقال عبدالناصر له، ناتجة عن مؤامرة دبرها للإطاحة بهذا النظام، أو بسبب متفجرات زرعها فى الأحياء الشعبية، وإنما كانت فقط بسبب خلاف بسيط فى الرأى حول شكل الوحدة المصرية السورية، وهل تكون اندماجية كما أراد حزب البعث السورى وجمال عبد الناصر، أو تكون فيدرالية يكون لكل قطر فيها حق تنظيم شئونه الداخلية وفق ظروفه الخاصة، كما أراد الحزب الشيوعى السورى الذى ساندته الأحزاب الشيوعية الأخرى فى العالم العربى!

هذا الخلاف فى الرأى، الذى يقع عادة فى البلاد الديموقراطية فلا يحرك ساكنا للنظام السياسى السائد، كان هو الذى فجر بركان غضب عبدالناصر ودفع به إلى شن حملته الهتلرية ضد الشيوعيين المصريين فى أول ينايرسنة ١٩٥٩ ، ولم يكتف بذلك، بل عمد إلى التنكيل بهم، فقذف بهم فى ٧ نوفمبر ١٩٥٩ إلى معتقل أوردى أبو زعبل، وعهد بتعذيبهم إلى فرقة مختارة تلقت تدريبها على أيدى أساتذة التعذيب النازيين، حيث جرت أول تجربة تعذيب جماعية لم يشهد لها تاريخ مصر مثيلا، مات فيها مفكرون من التعذيب مما لم يسبق له مثيل!

وكل ذلك بسبب خلاف فى الرأى لاغير! لم يترتب عليه أى تهديد لنظام عبد الناصر العسكرى القائم، الذى كان يرفع وقتذاك شعارات الحرية! ويطلق صيحة: «إرفع رأسك ياأخى فقد مضى عهد الاستعباد»! ويندس فى صفوف حركة التحرر الوطنى العالمية وهو يعرّض سيناء للاحتلال الإسرائيلى! ويفتح أمامها خليج العقبة لتنفذ منه إلى البحر الأحمر وأسواق أفريقيا وآسيا حتى اليابان! ويتبجح فيسمى ذلك انتصارا! ثم يكمل «جميله» فيرتكب هزيمة ١٩٦٧ ، ويسلم سيناء مرة أخرى للاحتلال الإسرائيلى ومعها الجولان والضفة الغربية وغزة!

لقد روى الدكتور عبد العظيم أنيس تجربته مع نظام عبد الناصر من خلال خطاباته إلى زوجته. وهى خطابات تاريخية ووثائق مهمة من الدرجة الأولى لأنها تروى الحقيقة دون مبالغة أو تزويق أو تبرير. ففى خطابه الأول من معتقل القلعة يوم ٢٣ يناير ١٩٥٩ ، كتب يقول:

«أكتب لك من داخل أسوار معتقل القلعة، الذى مضى علينا فيه ثلاثة وعشرون يوما. إن هذا هو نفس المكان الذى كان المستعمرون الإنجليز يعتقلون فيه الوطنيين من المصريين عام ١٩١٩ ! فما أغربها من مفارقة ؟ أن نكون نحن هنا، وبأمر حكومة وطنية!

«أما عن التحقيق معى، فالحقيقة أن النيابة لم تظهر غير مرة واحدة، والأسئلة كانت عادية تماما:

ـ مارأيك فى الحكومة؟

ـ حكومة وطنية!

ـ مارأيك فى الوحدة بين مصر وسوريا؟

ـ إنى أؤيد الوحدة، غير أنى أخشى على مستقبلها، لأنها ولدت غير ديموقراطية، وأعتقد أن فكرة إلغاء الأحزاب الوطنية فى سوريا خاطئة، لقد كنت أفضل أن تكون الوحدة فدرالية وليست اندماجية ـ على الأقل لفترة من الزمن.

«هذه كل الأسئلة تقريبا، ثم اختفت النيابة بعد ذلك!».

وفى خطاب يوم ٣٠ يناير ١٩٥٩ كتب قائلا: «إن موقفنا القانونى هو أننا معتقلون بأمر الحاكم العسكرى، ولسنا محبوسين على ذمة قضية»!

وفى يوم ٢ أبريل ١٩٥٩ كتب الدكتور عبد العظيم أنيس من سجن الواحات يقول:

«هاأنذا أكتب إليك من سجن الواحات الخارجة، بعد أن نقلنا من معتقل القلعة يوم ٢١ مارس، فوصلنا الواحات بعد رحلة مجهدة دامت أكثر من أربع وعشرين ساعة بالقطار».

«لقد كانت الرحلة كلها مهانة لإنسانية جميع المعتقلين. تصورى! إننا ربطنا من أذرعنا فى جنزير حديدى واحد، بحجة أنه ضمان ضد الهرب خلال الرحلة! ولكن الأسوأ والأبشع كان فى انتظارنا عند وصولنا إلى السجن!

«هناك فوجئنا بوجود فرقة اللواء اسماعيل همت المتخصصة فى إرهاب المسجونين والبطش بهم، ولم نكد نصل إلى باب السجن حتى وجدنا المدافع الرشاشة مصوبة إلى صدورنا، دون أن يصدر منا مايدعو إلى ذلك!

«وقد اختار همت عددا قليلا من المعتقلين لجلدهم على «العروسة» التى كانت معدة فى فناء السجن، ويبدو أن الهدف الحقيقى هو اشاعة جو الفزع والرعب بيننا!

«مازال وضعى القانونى كما كان فى القلعة، وهو أننى معتقل سياسى فى سجن الواحات الخارجة. الجديد أن وجودنا هنا أعطانا الفرصة لتجديد علاقات قديمة مع عدد من الكتاب والفنانين التقدميين، المحكوم عليهم بأحكام منذ أعوام ١٩٥٣ ـ ١٩٥٤! ومنهم الصحفى صلاح حافظ، والرسام داود عزيز، وغيرهما كثير!

«أرجو أن تقدمى، باسمى واسمك، طلبا إلى نقابة الصحفيين، تطلبين إعانة شهرية لنا نحن الاثنين! أرجو ألا تخجلى من ذلك، فهذا حقنا. لقد كان جديرا بالنقابة أن تقف موقفا حازما من فصلى وفصلك من صحيفة المساء، وهو فصل تعسفى أصبحنا نحن الاثنان بعده بلا مورد نعيش عليه!

«ماأروع هذا الفصل من مكافأة على مواقفنا الوطنية! وعلى استقالتى من وظيفتى كمدرس بجامعة لندن عام ١٩٥٦ احتجاجا على العدوان البريطانى الغاشم على بلادنا!».

انتهت رسالة الدكتور عبد العظيم أنيس المؤثرة. ولكن لم يكن من حقه أن يعجب أن كافأه عبد الناصر على موقفه الوطنى المساند له وقت العدوان الثلاثى بالاعتقال والتعذيب، فقد أدت مساندته وغيره من أبناء الشعب لعبد الناصر إلى ارتفاع نجم مجده، والظهور أمام العالم بمظهر البطل الوطنى الذى تحدى الاستعمار واسرائيل، وكان ذلك فى الوقت الذى كان يسلم لاسرائيل مفاتيح البحر الأحمر فى خليج العقبة وهى مضايق تيران!

وكان هذا كافيا لعبد الناصر للانقلاب على من ساندوه أو مكافأتهم بما يستحقون، فقد كافأ عبد الناصر الدكتور عبد العظيم أنيس بالاعتقال

والتعذيب، وهى نفس المكافأة التي كافأ بها كل من أيدوه وساندوه وساعدوه على الاستقرار فى الحكم، وكافأ الشعب المصرى، الذى سانده فى حرب ١٩٥٦ ، بالهزيمة الساحقة أمام الجيوش الإسرائيلية فى يونية ١٩٦٧!

والمهم هو أنه فى سجن الواحات كان على الدكتور عبد العظيم أنيس أن يخوض تجربة جديدة وصفها لزوجته فى خطاب مايو ١٩٥٩ بقوله:

«الحياة فى الواحات سيئة، والطعام المكون من العسل الأسود صباحا، والفول النابت ظهرا، ثم العسل الأسود مساء - سئ للغاية.

«ولقد عشنا هناك فى زنازين طوال اليوم، إلا نصف ساعة! نخرج فيها لقضاء الحاجة. وليس لدينا كتب أو أية وسيلة تسلية.

«وكنا ننام على «الأبراش» على الأرض، بالرغم من أننا معتقلون سياسيون ولسنا مجرمين أو قتلة»!

هكذا كانت معاملة النظام الناصرى لمفكرى مصر وعلمائها. والغريب أن هؤلاء المفكرين والعلماء بالذات هم الذين يسبحون اليوم بحمد النظام الناصرى، وهم الذين يساندون الناصريين فى فريتهم وأكذوبتهم التى يتظاهرون فيها بالدفاع عن حقوق الإنسان، ليخفوا جرائمهم التى ارتكبوها فى حق الإنسان!

ضرب سجناء الرأى عرايا كما ولدتهم أمهاتهم

الوفد فى ١٠/ ٢/ ١٩٩٧

رأينا فى مقالنا السابق كيف أن مجرد الخلاف بين عبد الناصر والشيوعيين حول شكل الوحدة المصرية السورية قد دفع عبد الناصر إلى التنكيل بهم! فقد كان الشيوعيون يفضلونها فدرالية، بينما فضلها عبد الناصر اندماجية! وكان هذا كافيا فى نظر عبد الناصر لاذاقة الشيوعيين سوء العذاب! بل من الطريف أنه بعد أن ثبتت صحة وجهة نظر الشيوعيين، وسقطت الوحدة المصرية السورية، أصر عبد الناصر على اعتقال الشيوعيين واستمرار التنكيل بهم، ولم يفرج عنهم إلا بعد سنتين ونصف! وهو مايوضح نوعية النظام الذى أسسه عبد الناصر، وبعده عن المبادئ التى كان يرفع شعاراتها ويخدع بها الجماهير المصرية للبقاء فى الحكم!

لقد رأينا كيف انتقل الدكتور عبد العظيم أنيس من سجن القلعة يوم ٢١ مارس ١٩٥٩ إلى سجن الواحات، حيث عاش مع زملائه فى الزنازين طول اليوم، فيما عدا نصف ساعة فقط لقضاء الحاجة، وكيف كانوا ينامون

على «الأبراش» على الأرض على الرغم من أنهم كانوا معتقلين سياسيين، وليسوا مجرمين أو قتلة! وكيف كان طعامهم الوحيد هو العسل الأسود صباحا ومساء وكانت وجبة الغداء هى الفول النابت! ورأينا كيف كتب إلى زوجته الصحفية عايدة ثابت يطلب منها أن تقدم طلبا لنقابة الصحفيين، باسمها واسمه، لطلب إعانة شهرية! بعد أن فصلا من عملهما فى جريدة المساء، وتركهما عبد الناصر بلا معين بعد اعتقال الدكتور عبد العظيم أنيس!

وسرعان ما أعيد الدكتور عبد العظيم أنيس إلى سجن القلعة لاستجوابه بواسطة النيابة، ومن معتقل القلعة كتب إلى زوجته فى مايو ١٩٥٩ يقول:

«لست أدرى كم سأظل هنا، ربما أسبوعا أو أسبوعين أو أكثر! ولكن يبدو أننا سنعود إلى الواحات مرة أخرى، فهنا لايوجد غير أربعة عشر معتقلا، منهم الصديق محمود العالم، وفى الفيوم ٤٠٠ معتقل، وفى الواحات ٢٠٠، وفى سجن القناطر حوالى ١٥٠ كما يقال!

«ولقد وقعت فى الفيوم حوادث اعتداءات مؤسفة، بالضرب على عدد من المعتقلين، منهم الدكتور فايق فريد والدكتور عبد الرازق حسن»!».

على أن الدكتور عبد العظيم أنيس لم يلبث أن نقل من معتقل القلعة إلى سجن مصر فى يونية ١٩٥٩ بعد أن تقرر تقديمه - مع آخرين - إلى المحاكمة، بتهمة دبرها النظام الناصرى، وهى تهمة العمل على قلب نظام الحكم! حيث بقى على ذمة القضية عدة أشهر.

ولم تلبث رحلة السجون والمعتقلات أن قادت الدكتور عبد العظيم أنيس إلى سجن الحدرة بالإسكندرية، وكان معه ستون معتقلا. وقد فوجئ بأنهم سوف يقدمون للمجلس العسكرى وليس إلى محاكمة مدنية! وكتب إلى زوجته من سجن الإسكندرية فى أكتوبر ١٩٥٩ يقول: «إننى لا أخفيك

تشاؤمى من هيئة المحكمة! فما معنى أن يقدم سياسيون إلى مجلس عسكرى يرأسه مدير سلاح المدفعية، إلا إذا كان البطش بهؤلاء السياسيين مقصوداً؟

«وماهى الجريمة التى ارتكبناها والتى تتصل بالناحية العسكرية؟ وأين هو القضاء المدنى ياترى؟ هل هو فى أجازة أم ماذا؟».

وهذه القصة التى يرويها الدكتور عبدالعظيم أنيس نهديها إلى الناصريين الذين تظاهروا بأنهم قوى المناضلين ضد القانون رقم ٩٣ فى العام الماضى - وإن فضحهم تسللهم خفية إلى صدام حسين للحصول على مباركته فى عز النضال ضد نظام مبارك! بل إنهم زايدوا على الليبراليين الحقيقيين الممثلين فى الوفديين!

على كل حال فقد كان بعد هذه المحاكمة الصورية الهزلية، التى فضحها سجناء الرأى وفضحوا افتعالها، أن قرر عبدالناصر تلقين الشيوعيين درسا لاينسى!

فقد نقلهم على الفور إلى أوردى أبو زعبل ليكونوا شهودا على وحشية النظام الناصرى وفاشيته، وليسجلوا للتاريخ هذه الفضيحة التى لم يشهدها عصر من عصور مصر على مر التاريخ، فضيحة التعذيب الجماعى لسجناء رأى كانت كل جريمتهم إبداء رأى يخالف رأى النظام الناصرى فى قضية تتصل بالوحدة والديموقراطية!

ولندع الدكتور عبد العظيم أنيس يسجل هذه الإدانة بنفسه فى خطابه إلى زوجته المرحومة السيدة عايدة ثابت من معتقل أوردى أبو زعبل فى سبتمبر ١٩٦٠، وهو وثيقة من أخطر وثائق حكم عبد الناصر، وأكثرها مصداقية، لأنها لم تكتب للنشر حتى يفترض فيها الصدق أو الكذب، وإنما كتبت فى رسالة خاصة فى أعقاب المحنة، ومن نفس مكان الجريمة، وهو

معتقل أوردى أبو زعبل، ولم أتدخل فيها بأى شرح أو تفسير أو تلخيص. وتمضى على النحو الآتى:

«زوجتى الحبيبة: هأنذا أرسل لك هذه الرسالة بعد غيبة طويلة منذ أن أرسلت لك خطابى خلال المحاكمة أيام المجلس العسكرى بالإسكندرية فى أكتوبر الماضى.

«لقد مضى على خطابى هذا نحو عشرة أشهر، اجتزنا فيها تجربة طالت وكأنها عشر سنوات! أعنى تجربة الأوردى، بما تعنيه من عذاب يومى، وإهدار لآدمية المعتقلين، وعمل كالسخرة فى جبل أبو زعبل، ثم قتل لعدد من زملائنا!

«إنها - باختصار - تكرار لما صنعته النازية فى خصومها السياسيين فى معتقلات أوروبا المشهورة، ولم يكن لينقصها لتصبح الصورة مطابقة تماما، غير غرف الغاز!

«لقد انتهت هذه التجربة الآن، وعدنا إلى آدميتنا! من جديد. ولعلك أدركت من خلال زيارتك لى فى الشهور الأخيرة مبلغ السوء الذى وصلت إليه حالتى الصحية، غير أنى اليوم أسترد صحتى بالتدريج، فلا تقلقى.

«ولكن مايقض مضجعى حتى اليوم، هو أن شهدى عطية، بمصرعه الفاجع فى الأوردى تحت سياط التعذيب، هو وحده الذى فدانا جميعا! ولولا مصرعه، وماأثار من ضجةخارجية، لاستمر التعذيب حتى اليوم، ولاستطاب كثير من المسئولين هذا الحال!

«ومن قبل قتلوا الدكتور فريد حداد ببساطة، وكأنهم يؤدون عملا عاديا! وهؤلاء القتلة معروفون، ويعيشون بينكم، لايعذب أحد منهم ضمير، ولاتمتداليه يد قانون!

«إن قتلة شهدى عطية وفريد حداد هم: اللواء اسماعيل همت وكيل مصلحة السجون، والعميد اسماعيل طلعت مدير سجن أبو زعبل، ثم أولا

وأخيرا الضباط: حسن منير، وعبد اللطيف رشدى، ويونس مرعى. هؤلاء الثلاثة هم الجلادون المباشرون، ولكنى لاأشك أن وراء هؤلاء يقف رجال المباحث العامة بقيادة حسن المصيلحى، وبعض رجال الداخلية.

«ولست أستطيع أن أصدق أن المسئولين فى مصر، لم يكونوا يعرفون مايجرى فى أبو زعبل، خلال الفترة من نوفمبر سنة ١٩٥٩ إلى يونيو ١٩٦٠!!

«لا أدرى كيف أبدأ فى رواية القصة الاجرامية التى وقعت هنا!

«خلال هذه الفترة أرسلت لك عددا من الخطابات بمعرفة ادارة السجن، ولعلك لاحظت أن كل خطاب لم يزد على ثلاثة سطور، أسال فيها عن أحوالك وأحوال منى ووفاء واخوتى، وأطلب إرسال بعض النقود. لقد تعمدت هذا لان الخطابات كتبت خلال أسوا ظروف، وإبان فترة التعذيب، ولم يكن لدى ماأقوله، أو بمعنى أصح: لم يكن ممكنا كتابة ماأريد أن أقوله!

«لقد رحلنا من سجن مصر يوم ٧ نوفمبر، ولا أدرى هل كان لاختيار هذا التاريخ معنى خاص عند رجال المباحث؟ (يوم ٧ نوفمبر هو عيد الثورة السوفيتية التى يطلق عليها اسم ثورة اكتوبر ١٩١٧، وكان هذا اليوم يوافق يوم ٢٥ أكتوبر فى روسيا فى ذلك الحين قبل أن تأخذ بالتقويم السائد فى العالم الغربى)

«ولكنى أعلم أن الإعداد لما كان ينتظرنا فى أوردى أبو زعبل، قد بدأ ونحن واقفون فى فناء سجن مصر ننتظر الترحيل!

«فقد أخذ مأمور سجن مصر، شوقى القطشة، فى استفزازنا بدون مبرر! وكسر بنفسه أشياء كثيرة من لوازمنا المتواضعة التى نحملها من سجن إلى سجن!

«وعندما وصلت العربة التى حشر فيها الواحد والستون، إلى أوردى أبو زعبل، فوجئنابفرقة من الخيالة على جيادهم، ثم صفين من الجنود يحملون العصى الغليظة، على باب الأوردى وداخله!

«وكانت التعليمات أن ينزل كل واحد منا بسرعة، وأن يخلع ملابسه على باب الأوردى - كل ملابسه حتى يصبح عاريا كما ولدته أمه! - وأن يأخذ بسرعة «برشا» وبدلة سجن بيضاء، ويهرع إلى العنبر!

«وكان أساس العملية هو المفاجأة الكاملة، وشل الذهن عن التفكير حتى لايجد إنسان فرصة ليحتج أو يناقش! وبطبيعة الحال لم يستطع معظم المعتقلين أن ينجزوا هذه المهمة فى سرعة، وكانت النتيجة أن قام الجنود بضربهم - وهم عرايا! - بالعصى الغليظة، فضلا عن الإهانات اللفظية!

«وكانت مهزلة، وما أبشعها من مهزلة!

«ومع ذلك فإن «حفلة الاستقبال» كما واجهناها، لم تكن شيئا بالمقارنة بـ «حفلة الاستقبال» التى أعدت لدفعة شهدى عطية فى يونيو الماضى، والتى مات فيها هذا الصديق العزيز، فضلا عن الزملاء الآخرين الذين ظلوا فى حالة خطرة لعدة أيام بعد ذلك!

«وفى اليوم التالى لوصولنا، بدأ روتين الحياة المعدة لنا: نقوم فى الصباح، ونذهب فى طابور إلى جبل أبو زعبل لتكسير الأحجار. ويستمر العمل حتى الظهر، حيث نعود إلى الأوردى، ويقفل العنبر. والطعام الذى يقدم لنا هو أسوأ مايتصوره إنسان فى حياته! عسل أسود فى الصباح، فول نايت فى الظهر، ثم خضار لاطعم له، وقطعة لحم تثير القرف فى المساء!

«وخلال كل يوم تقريبا، ينتقى عدد من المعتقلين لاستفزازهم، وضربهم ضربا مبرحا! ووضعهم فى زنزانة انفرادية، مغطاة بالماء البارد! وبلا أغطية! لمدة يومين أو ثلاثة!

«وكثيرا مايفتح العنبر فى الصباح، أو بعد الظهر، وفجأة تدخل فرقة من الجنود، بحجة تفتيش العنبر، وكان علينا أن ندير وجوهنا إلى الحائط أثناء التفتيش، ثم فى ختامه كان علينا أن نحنى ظهورنا كأننا راكعون فى

صلاة، ثم يدور كل واحد منا حول نفسه مرات ومرات، حتى يأمر الضابط بالتوقف! وبالطبع خلال هذه العملية الهزلية، يضرب الجنود عددا من المعتقلين كيفما اتفق! إنها عملية تثير الضحك، وحتى الآن لم أفهم المقصود من هذه التعليمات!

«كان الجو الظاهرى أننا نعيش فى أبو زعبل حياة عسكرية، والجو الحقيقى المقصود هو التنكيل»!

إنسانية عبدالناصر: قتل المعتقلين وتشريد الزوجات!

الوفد فى ١٧/ ٢/ ١٩٩٧

فى مقالنا السابق كنا نتابع التجربة البشعة التى عاشها أستاذ جامعى مرموق ومفكر كبير هو الدكتور عبد العظيم أنيس فى معتقلات عبد الناصر، واقتياده من بيته بليل إلى معتقل القلعة، ليقوم بسياحة طويلة بين معتقل القلعة وسجن الواحات وسجن مصر وسجن الحدرة ثم إلى معتقل أوردى أبو زعبل، وهو يتعرض بينها للضرب والاهانات والتعذيب، لمجرد أنه اختلف وزملاؤه من سجناء الرأى مع عبد الناصر حول شكل الوحدة المصرية السورية وحول الديموقراطية! وليس لأنهم لم يكونوا يعترفون بنظام عبد الناصر أو أنهم كانوا يتآمرون لإسقاطه! فلم يكفوا فى كل مراحل اعتقالهم وتعذيبهم عن اعلان تمسكهم بنظام عبد الناصر! بل إن فريقا منهم، وعلى رأسه شهدى عطية، لم يكونوا يخفون تأييدهم شبه المطلق لسياسة عبد الناصر آنذاك، ولم ينقذه ذلك من التعذيب والضرب حتى فاضت أنفاسه!

وكان الدكتور عبد العظيم أنيس قد روى فى خطابه لحرمه المرحومة عايدة ثابت تجربة الأوردى، وحفل الاستقبال الذى أعد له ولزملائه الواحد والستين، وكيف طلب إليهم خلع ملابسهم كما ولدتهم أمهاتهم، وضربهم عريا! ثم أخذوا ينخرطون فى روتين الحياة التى أعدت لهم: وهو القيام صباحا، والذهاب فى طابور إلى جبل أبو زعبل لتكسير الأحجار، حتى العودة إلى العنبر الذى يقفل عليهم إلى صباح اليوم التالى، ليفاجئوا فى الصباح بفرقة من الجنود تقتحم عليهم العنبر بحجة التفتيش، وتطلب إليهم احناء ظهورهم فى وضع الركوع، والدوران حول أنفسهم على هذا الوضع بينما الهراوات تهوى على ظهورهم كيفما اتفق!

ويمضى الدكتور عبد العظيم أنيس فى روايته لزوجته على النحو الآتى:

«مازلت أذكر أننا خرجنا مرة لطابور «رياضة»! وخلال هذا الطابور طلب منا حسن منير (مأمور الأوردى) أن نهتف باسم عبد الناصر، وأن نغنى أناشيد وطنية! فلما اعترض الدكتور اسماعيل صبرى عبد الله قائلا: إننا لانفعل هذا بناء على أوامر! انهالوا عليه بالعصى، حتى فتحت رأسه!

«وبطبيعة الحال كان لابد أن يأتى دورى ودور محمود أمين العالم!

«وفى المرة الأولى، عندما رفعت صوتى مبديا ملاحظات متواضعة على بعض مايحدث، أخذت أنا وزميل آخر إلى الغرفة الانفرادية! وبقينا هناك حتى جاء حسن منير مأمور الأوردى، فإذا به يعيدنا دون عقاب! وكان لهذا الموقف فرحة وأية فرحة فى كل العنبر، فقد بدا وكأنه نصر لنا!

«وفى المرة الثانية لاحتجاجى، أخذنا إلى جبل أبو زعبل! وبدأ العدوان علىّ بشكل مكثف، على يد فرقة من الجنود، يقودها الصول مطاوع. واستمر الحال على ذلك حتى أغمى علىّ من شدة الضرب!

«وحملنى زملائى على أكتافهم وأنا فى شبه غيبوبة، إلى العنبر. ثم نقلت إلى غرفة «الملاحظة الانفرادية» المخصصة للمرضى. وبقيت بها عشرة أيام بين الحياة والموت فى الأيام الأولى!

«ولقد كان من حسن حظى أن الطبيب الذى جاء لعيادتى كان زميلا لى فى المدرسة الثانوية. وهالته حالتى فى اليوم الأول، حتى اغرورقت عيناه بالدموع تأثرا. وظل يواظب يوميا على التردد على مرتين، ويحضر أدوية خاصة من عنده، حتى اطمئن على حالتى.

«وبطبيعة الحال، لم تكن الإدارة تدرى أن الطبيب زميل سابق لى فى الدراسة، وأن هذا هو مصدر اهتمامه الكبير بى. وأحيانا كثيرة أحس أننى مدين بحياتى لهذا الرجل النبيل.

«لن أطيل عليك أكثر من هذا، يكفى أن أقول لك إن مبررات هذه المعاملة الوحشية - التى قيلت آنذاك على لسان بعض الضباط - هو موقف الزملاء الجرىء أثناء المحاكمة بالاسكندرية! فنحن - كمجموعة - لم نخف انتقادنا السياسى للحكومة ولسياسة عبد الناصر فى قضيتى الوحدة والديموقراطية.

«ولكننى لا أستطيع قبول هذا التبرير بسهولة! لأن قضية شهدى عطية (وكان من المعروف أن زملاء هذه القضية - على عكسنا - لايخفون تأييدهم شبه المطلق لسياسة عبد الناصر آنذاك) قد لقوا على باب الأوردى استقبالا أتعس بكثير من استقبالنا! وأن شهدى نفسه قد ضرب حتى الموت!

«ولقد كنا داخل عنابرنا عندما وصلت دفعة شهدى، وبطبيعة الحال لم نر شيئا يذكر بأعيننا، ولكننا سمعنا كل شىء!

«فقد كان المطلوب من كل واحد منهم أن يهتف بسقوط الشيوعية، وأن يذكر اسمه بصوت عال، وأن يقول: «أنا مرة!».. إلى آخره، وعندما رفض

شهدى وآخرون كثيرون، تنفيذ هذه التعليمات المخزية، انهالوا على رأسه بالضرب حتى الموت!

«ويبدو أن موت شهدى كان مفاجأة لاسماعيل همت وحسن منير والآخرين، وإذا بهمت يستقل سيارته ويمضى هاربا إلى القاهرة! وإذا بحسن منير يضع الجبس على ذراعه مدعيا - أمام النيابة - أن المعتقلين هجموا عليه وضربوه وكسروا ذراعه، وأنه وجنوده كانوا يدافعون عن أنفسهم»!

«وبعد وفاة شهدى، وما أحدثته من ضجة، جاءت النيابة بأعداد كبيرة، وتولت التحقيق صباحاً ومساء. وفجأة تغير جو المعتقل تماما! وقد طلبت أنا والدكتور اسماعيل صبرى عبد الله سماع أقوالنا فى مقتل شهدى عطية، وأجابت النيابة طلبنا. وكان منظرا مخزيا للضابط حسن منير عندما أتوا به لتقوم النيابة بتجربة التعرف على صوته وأنا داخل العنبر، كما ذكرت فى التحقيق.

«لقد رأيته كالفأر المتهالك، ولم يجرؤ على أن ينظر إلى، بل كان مطرقا برأسه إلى الأرض طول الوقت. وقد وضعتنى النيابة فى غرفة مقفلة، وطلبت منه، ومن ضباط آخرين، أن يرفعوا أصواتهم بجمل من التى كانوا يقولونها للمعتقلين فى «حفلة الاستقبال»! وفى كل مرة تعرفت على صوته فى يسر دون أراه. وبطبيعة الحال نقل حسن منير فى اليوم التالى لوفاة شهدى عطية حتى لايفتك به المعتقلون.

«إن الضجة التى حدثت عند وفاة شهدى كانت أمرا طبيعيا، ولكن الغريب أن الدكتور فريد حداد قد قتل داخل الأوردى قبل شهدى بشهور، ولم تحدث وفاته ضجة ما!

«إنك تذكرين - بالطبع - الدكتور فريد حداد، هذا الطبيب الشهم، الذى تولى علاجى وعلاجك وعلاج عمتك قبل اعتقالى أكثر من مرة. كم كان وديعا، طيب القلب، عظيم الإنسانية! تستطيعين أن تتصورى صدمتى

عندما أخرجنا من العنبر ذات يوم عند الغروب، لاستلام طعامنا - ونحن نجرى - كالعادة.

ولمحت أمام الزنزانة الانفرادية رجلا فى ملابس السجن ملقى على الأرض، وهو يبدو فى حالة اغماء! لم أتيقن فى أول الأمر من هو هذا الإنسان، وإن كنت واثقا أننى أعرفه. ثم بدأت أعى أن هذا هو فريد حداد!

«ومع ذلك لم أتيقن آنذاك إن كان قد مات عندما رأيته، أو أنه مغمى عليه فحسب. فلما سمعنا فى اليوم التالى أن أحد المعتقلين قد مات، كانت الصدمة بالنسبة لى فظيعة! وبقيت فى حالة نفسية سيئة عدة أيام.

«ولست أشك لحظة أن يونس مرعى هو المسئول عن قتل فريد حداد، فقد كان الضابط الوحيد الموجود بالأوردى عصر ذلك اليوم! وقد سمعنا - ونحن فى العنبر - صوته وهو يعتدى بالضرب على قادم جديد لم نكن نعرف من هو!

«إلى جانب هذا القتل والتعذيب، ساءت أحوال المعتقلين الصحية، بسبب سوء التغذية. وكثيرون مرضوا وأوشكوا على الموت بسبب انتشار الأمراض! ولم يتحرك أحد رغم كل هذا!

«لقد عشنا فى حالة مجاعة كاملة لمدة ثمانية شهور، لايعطونا الا مايكفى للابقاء علينا على قيد الحياة فحسب!

«أما مهانات العمل فى جبل أبو زعبل، فهى عديدة: صفوة من مثقفى مصر، مثل الدكتور لويس عوض، والدكتور عبد الرازق حسن، والكاتب المسرحى ألفريد فرج، والرسام حسن فؤاد، والناقد محمود أمين العالم، والدكتور فؤاد مرسى، والدكتور فوزى منصور، والدكتور اسماعيل صبرى عبد الله، إلى آخره، وغيرهم كثيرون، يساقون كل يوم إلى الجبل، حفاة شبه عراة، فى أقسى أيام الشتاء، لكسر حجارة أبو زعبل! بالإضافة إلى عشرات من القادة النقابيين وقيادات الطلاب!

«ومع ذلك، يجب أن أقول إننا تعلمنا حرفة مفيدة! وإننى فى نهاية الأمر أجدت قطع الأحجار إلى قطع صغيرة - كما كان مطلوبا - لرصف الشوارع. وكنت أحيانا أقول ضاحكا «صنعة فى اليد أمان من الفقر»!

«لقد انتهت هذه المرحلة، بكل مافيها من مهانات وتعذيب، وإذا كنت قد صممت على كتابتها لك، فلكى تعرفى كيف وصل الحال فى مصر فى معاملة المعتقلين السياسيين!! وكيف كان على - أنا وزملائى - أن نتحمل هذه التجربة البشعة، فى صبر وتماسك! وأحمد الله على أن كل هذا قد انتهى، وأرجو أن يكون إلى غير رجعة!

«ولكنى أظل أفكر فى شهدى وفريد كثيرا، وأفكر فى زوجتيهما وأولاد هما!

«ما أعظمها من خسارة، وما أروعه من مثل!».

* * *

على كل حال فلم تلبث وجهة نظر الشيوعيين الذين سجنوا وعذبوا وقتلوا من أجلها، أن بانت صحتها عندما وقع الانفصال فى سوريا، وقضت ثورة يوليو على الوحدة الثانية بعد وحدة مصر والسودان، بسوء سياستها ودكتاتوريتها وحكمها العسكرى!

وبدلا من أن يعترف عبد الناصر بخطئه، ويفرج عن سجناء الرأى، خرج محمد حسنين هيكل بمقال فى ملحق الأهرام يوم ١٩٦٢/٣/٢ تحت عنوان: «تيار التاريخ لم يتوقف»، ينسب فيه أسباب الانفصال إلى عدم اتصال الاقليمين جغرافيا، وعدم نضج الوطنية المحلية، وقوة مركز الاقطاعيين والرأسماليين فى سوريا!

وقد وصف الدكتور عبد العظيم أنيس هذا المقال «بالتخلف والانعزالية على أقل تقدير» لأنه تجاهل السبب الأساسى للانفصال، وهو تصدع الجبهة الوطنية فى سوريا إثر الوحدة بسبب الدكتاتورية، وتحول هذه القوى - التى

حمت استقلال سوريا - بعضها ضد بعض»، «وأخطاء وجرائم الأجهزة البوليسية، وتضييق الخناق، وكبت آراء الناس، ومأساة الديموقراطية فى سوريا»!

ونسى الدكتور عبد العظيم أنيس أن يقول إن اعتراف عبدالناصر بصحة وجهة نظر الشيوعيين فى الوحدة السورية والديموقراطية يتطلب بالضرورة - إطلاق سراحهم. ولم يكن هذا فى نية عبدالناصر، فقد حدث الانفصال السورى فى سبتمبر ١٩٦١، وأبقى عبد الناصر سجناء الرأى فى المعتقلات إلى أبريل ١٩٦٤!

وفى أثناء مدة الاعتقال التى استمرت خمس سنوات تقريبا (يناير ١٩٥٩ - أبريل ١٩٦٤) ظهرت إنسانية نظام عبد الناصر فى أنه ترك أسر سجناء الرأى بدون أى مورد رزق يعتمدون عليه! لقد ترك هذه الأسر لأهل الصدقة، بعد أن كانوا يعيشون أعزة، الأمر الذى ندرك أثره فى هذا الخطاب المؤثر للدكتور عبد العظيم أنيس لزوجته يوم ١٩٦٣/٧/١٧، بعد أول زيارة سمح بها هذا النظام الفاشى للمرحومة عايدة ثابت لزيارته، وكانت هذه أول مرة يراها منذ أربع سنوات ونصف. فقد كتب يقول:

«ينبغى أن أعترف لك أنى فزعت من حالتك الصحية! ولقد دهش الكثيرون أيضا عند رؤيتك، وإن تجنبوا قول ذلك لك خوفا من إفزاعك! ولقد ساءنى أنك أخفيت عنى ظروف مرضك وترددك على الأطباء! لاأخفى عليك قلقى الشديد من حالتك الصحية، ومازلت ألح على أخى محمد (الدكتور محمد أنيس) أن يتدخل فى هذا الموضوع فورا، ويبحث إمكانية تعيينك فى أية صحيفة أو مجلة بشكل دائم، وأنا أعرف أنه ليس بالرجل ذى النفوذ الكبير. إن بقاء وضعك فى هذه الحالة بلا عمل ثابت، هو جرح عميق ينزف فى قلبى!».

وفى يوم ١٩ يونيه ١٩٦٣ كتب الدكتور عبد العظيم أنيس إلى زوجته من معتقل الواحات يقول:

«علمت أن هيئات عالمية تختص بالدفاع عن حقوق الإنسان، قد أرسلت خطابا إلى المسئولين فى مصر بخصوصى، وهى تسأل: لماذا لم يفرج عنى مادامت المحكمة العسكرية قد حكمت ببراءتى؟ وقال الخطاب: إن الشعب البريطانى يعرفنى كوطنى مصرى دافع عن مصر وتأميم القناة، وهاجم حكومة ايدن بشدة أيام العدوان. وإنه لمما يأسف له الرأى العام البريطانى أن يعرف أن هذا هو مصير الذين يدافعون عن بلادهم»!

* * *

والغريب أن كل هذا كان يحدث فى مصر، فى الوقت الذى كان النظام الناصرى يضلل العالم الاشتراكى، ويوهمه بأنه نظام اشتراكى تقدمى! والأغرب من ذلك أن هؤلاء الذين اكتووا بنظام عبد الناصر أكثر مما اكتوى أحد آخر، وتلقوا على يديه الإهانات والتنكيل والتعذيب، وضربوا عرايا كما ولدتهم أمهاتهم، هم اليوم أقوى المدافعين عن هذا النظام!

ولو تخلى اليسار المصرى عن مجموعة النصابين الدين يتاجرون بقميص عبد الناصر لحساب الأنظمة الفاشية العربية فى المنطقة، لسقط هؤلاء النصابون التجار فى الهوة التى خرجوا منها والتى تليق بهم، ولكن اليسار المصرى يأبى الا الاصرار على خطأ رؤيته للنظام الناصرى.

فلا حول ولا قوة الا بالله، ولا غفر الله للمركيز دى ساد!

وقتلوا شهدى عطية !

الوفد فى ٢٤/٢/ ١٩٩٧

فى كتاب الدكتور رفعت السعيد الصادر عام ١٩٨٤ بعنوان: «الجريمة، وقائع التحقيق فى اغتيال شهدى عطية»، قدم دراسة عن أنواع التعذيب التى شهدها المجتمع البشرى منذ نشأته حتى اليوم، فأورد سببا لكل نوع من أنواع التعذيب، إلى أن وصل إلى التعذيب الذى حدث لسجناء الرأى فى ليمان أوردى أبو زعبل، فاعترف بأن سببه يعد أغرب الأسباب فى التاريخ، لأنه - ببساطة شديدة - بدون سبب!

فقد كتب يقول: «شهدت مصر عبر عصورها الممتدة فى ظلال الأزمنة الرديئة أنواعا غريبة من تجبر الحكام، ومن تسلطهم على الرعايا، وأنواعا أغرب من انتهاك حرمة الإنسان وحريته وجسده، أنواعا اختفت من ذاكرة الناس بمضى الزمن، مثل: التوسيط - أى الضرب بالسيف فى الوسط - بلغة عصر المماليك، والتعصير (أن عصر جسد الإنسان داخل معصرة!)، وتعصير الأكعاب، وتقطيع الأعضاء، والتعطيش (بأن يعطى الإنسان ماء الجير المملح، ثم يترك بلا ماء حتى يجف جلده، ويتشقق، ثم يبدءون فى

تقطيع جلده الجاف بمنشار!) كما وصفت لنا كتب التاريخ رءوسا محشوة بالتبن، وأجسادا مسمرة بالمسامير على الجدران!

ولكن كان هناك دائما سبب لكل جريمة من جرائم التعذيب، صحيح أنه سبب غير مقبول وغير مبرر ولكنه سبب على أية حال! ومن هذه الأسباب: «التقرير»، أى تعذيب السجين كى «يقر» بما هو مطلوب منه - أى «يعترف» بلغة عصرنا. وهناك «الانتقام» من الخصوم، وهناك «إقامة الحد»، وهناك العقاب على جريمة ارتكبت، أو إبعادا لخصم من ساحة المنافسة.

لكن الذى يتفوق فى بشاعته على ذلك كله - كما يقول الدكتور رفعت السعيد - هو ذلك النوع من التعذيب الذى لم تعرف له مصر مثيلا، لا من قبل ولا من بعد، وهو المتجسد فى «مأساة أوردى أبو زعبل»!

«وإذا كان غريبا أن يتواجد هذا النوع من التعذيب المكثف، والمستمر لفترة طويلة، فإن الأغرب هو أن يقع كل ذلك الإثم بلا مبرر حقيقى!

«هل سمع أحدكم بهواية «التعذيب من أجل التعذيب»؟

«إنه التعذيب بغير منطق إلا منطق التسلط! وبغير هدف الا التشفى من الخصم!

«ولقد تعرض شهدى عطية ورفاقه لتعذيب من هذا النوع.. لايمتلك أى منطق غير التشفى!«فشهدى ورفاقه لم يكن مطلوبا «تقريرهم» - بلغة عصر المماليك - أى لم يكن مطلوبا اجبارهم على الإدلاء بأية اعترافات، فقد تم التحقيق معهم، وتمت محاكمتهم أمام محكمة عسكرية يرأسها قائد سلاح المدفعية. «كما أنه هو ورفاقه كانوا يؤيدون الحاكم فى كثير من خطواته ومواقفه، ولكنهم فقط أصروا على حقهم فى الاحتفاظ بحزب مستقل، وامتلكوا انتقادات أساسها افتقاد الحرية للمواطنين»!

ثم يصف الدكتور رفعت السعيد ماحدث فى أوردى أبو زعبل بأنه «إجرام منظم»!

وأنه «يثير من التقزز أكثر مما يثير من الدهشة! وأنه بشع إلى درجة لاتحتمل» ! ويدعو القارئ أن يتحمل معه ألم متابعة أحداث الجريمة التى تمت، «من أجل أن يعرف كم هى عزيزة تلك الحرية التى ندافع عنها، وكم من الثمن ندفع عندما نفقدها، ولكى يتحصن ضد الخوف، ويتعلم أن الحرية لايمكن تجزئتها، ومن أجل ألا تتكرر المأساة لأى سبب، وتحت أية حجة، وخلف أى ستار» !

ويورد الدكتور رفعت السعيد النعى الشجاع الذى نشرته الأهرام يوم ٢٠ يونيو ١٩٦٠، والذى أنقذ حياة سجناء الرأى بعد تعذيب جماعى لم يشهده عصر من عصور الهمجية فى المشرق أو المغرب، «تعذيب جماعى» استمر من نوفمبر ١٩٥٩ إلى يونيو ١٩٦٠، ليكون شاهدا على فاشية النظام الناصرى.

ويمضى النعى على النحو الآتى:

«عطية الشافعى وأسرته ينعون، بعد أن واروا عزيزهم فخر الشباب الأستاذ شهدى عطية، مقره الأخير. ويقولون لمن واساهم فيه:

«لن نشكركم، فالشكر لكم فى هذا الموقف نكران لوفائكم، وشهدى وذكراه ملك لكم وأمانة فى ضمائركم.

«أما أنت ياعزيزنا الغائب، فإننا نرثيك بهذا:

«فتى مات بعد الطعن والضرب ميتة.

تقوم مقام النصر إن فاته النصر

«تردى ثياب الموت حمرا، فما دجى

لها الليل إلا وهى من سندس خضر

«وقد كان موت الموت سهلا، فرده

إليه الحفاظ المر والخلق الوعر

«ونفس تعاف العار حتى كأنما

هو الكفر يوم الروع أودونه الكفر» !

كان هذا النعى البارع الذى نشرته السيدة راوية شهدى بتريد يس بشجاعة فى جريدة الأهرام، هو الذى أنقذ حياة سجناء الرأى وأعفاهم من التعذيب أربع سنوات أخرى. فقد سبق مصرع شهدى عطية ببضعة شهور مصرع الدكتور فريد حداد فى تشريفة أبريل فى نفس أوردى أبو زعبل، ولم تحدث وفاته ضجة ما، لأن خبر وفاته لم يظهر خارج الليمان، ولم تتمكن زوجته من نشر هذا الخبر فى جريدة من الجرائد، فبقى فى طى الكتمان، ولكن نجاح زوجة شهدى عطية فى نشر خبر مصرعه، مع شهرة شهدى فى العالم الاشتراكى، أحدث فضيحة كبيرة للنظام الناصرى، ومما زاد فى حجم الفضيحة أن عبد الناصر وقتذاك كان فى زيارة لليونان ويوغوسلافيا، فتعرى أمام العالم الاشتراكى.

ولذلك يقول حسن المصيلحى، مهندس التعذيب الذى أفلت من العقاب، فى كتابه الذى أصدره عام ١٩٧٩ تحت عنوان: «قصتى مع الشيوعية»، أنه عند عودة الرئيس عبد الناصر ومعه وزير الداخلية فى اليوم الرابع لمصرع شهدى عطية، صدر الأمر باحالة اللواءين مدير مصلحة السجون ووكيل المصلحة إلى التقاعد. وتولت النيابة والداخلية التحقيق. وكان نصيب المصيلحى فيما بعد النقل إلى مصلحة الجوازات، وهرب بعد ذلك إلى جنيف!

ويسجل الدكتور رفعت السعيد بعد ذلك شهادات سجناء الرأى من واقع محاضر تحقيق النيابة الرسمية، على النحو الآتى:

شهادة الشاعر إبراهيم عبد الحليم، مدير دار الفكر وعضو جمعية الأدباء.

«اللى حصل أننا قضينا أربع شهور فى المحاكمة، وكلنا أعلنا أننا نؤيد السيد الرئيس جمال عبد الناصرتأييدا كاملا، وبالذات شهدى عطية الشافعى، الذى كان المتهم الأول فى هذه القضية. وقد ألقى أربع كلمات أمام المحكمة فى هذا المعنى.

«وبعد انتهاء المحاكمة، صدر أمر بترحيلنا إلى أبو زعبل يوم الأربعاء الصبح بدرى، وكنت مع شهدى فى نفس العربية، وكان فى أحسن صحة.

«ونزلونا، ورصونا على الأرض، ووشنا فى الأرض واحنا قاعدين!

«واشتغلت عملية الضرب والشتيمة! وبعدها بدأوا يجرونا ـ ثلاثة ثلاثة ـ نحو الأوردى، وخلفنا الضابط مرجان، وضابط بشنب يركب حصان، وعساكر كانوا يقومون بالضرب!

«وعندما وصلنا، كان هناك شخص يكتب الأسماء، وأثناء الكتابة كان الضرب شغال! وكان خلع الملابس بالضرب! والحلاقة بالضرب! وكان فى الحتة دى الضابط يونس مرعى!

«وبعد ين جرونى على ظهرى على الأرض، وأنا عريان! لغاية الباب، وتولى الضابط عبد اللطيف رشدى عملية الاجهاز الأخيرة: كل واحد يضرب على وشى، والعساكر بتضرب بالعصى، وضربنى على صدرى بالحذاء! وبعدها رحت العنبر، وقام الصول بضربى!

«وأنا كنت فى الترتيب بعد شهدى بحوالى صفين، ونادوا على شهدى، وضربوه، ومقدرتش أشوف لأن وشى كان فى الأرض، وماشفتش مين اللى ضربه، إنما لازم مر بمراحل الضرب اللى أنا مريت بيها، لكن هم كانوا متوصين به! لأنه المتهم الأول فى القضية، ومشهور!».

* * *

وجاء دور سعد الدين عبد المتعال، وهو مدير نشر، ليدلي بشهادته على النحو الآتى:

«وصلنا الصبح بدرى يوم الأربعاء، ونزلنا من العربة، وقعدونا، ورصونا واحنا قاعدين، وخلونا باصين فى الأرض! ووقفوا يضربونا بالعصى الغليظة على ظهورنا! واستمر الضرب فترة طويلة. وصفونا ثلاثات، ووراء كل ثلاثة منا حصان عليه ضابط، وعساكر تضرب بالعصى!

«وعندما يصل الثلاثة للأوردى، يتم ضربهم أمام الباب وداخل الباب!

«وكان معى شهدى، ونور سليمان. وجاء علينا الدور، وقال ضابط لا أعرفه: فين شهدى؟ فرد قائلا: أنا يافندم! فضربه هو واللى راكب الحصان، «وبعد كده ماشفتوش!

«واستمريت أجرى، تحت الضرب! حتى وصلت قرب الباب، وهناك كان الضابط يونس مرعى، فضربنى بالشومة أنا والاثنين اللذين معى!

«وبعد أن حلقت، جرونى على الأرض، وأدخلونى عند ضابط اسمه عبد اللطيف رشدى، فضربنى علقة بمعرفته! وأدخلونى العنبر.

س - من الذى اعتدى على شهدى وهو بالصف؟

جـ - معرفش

س - من الذى ضربه بعد ذلك؟

جـ - هو كان ورايا، ولازم اللى ضربونى ضربوه».

* * *

واستدعى عثمان فهمى للشهادة، وسئل عما حدث، وأجاب كالآتى:

«نزلنا من العربات، بعيدا عن الأوردى، وقعدونا على الأرض مدة ساعتين! وأثناء ذلك كان فيه ضرب! وماكناش نقدر نرفع وشنا!

«واحنا قاعدين، واحد ضرب شهدى عطية عدة مرات على رأسه، وهو يقول له: وطى! وسمعت واحد يقول له: كفاية كدة يامرجان بك!

«وبعدين جريت مع الثلاثة بتوعى، والضرب شغال! حتى وصلت إلى كتابة الأسماء!

«وكانت كتابة الأسماء بالضرب! والحلاقة بالضرب! وقلع الهدوم بالضرب! حتى إذا ماوصلت مابقتش عارف أمشى!

«وواحد ضابط وقعنى فى قناية قدام السجن، وحط رأسى فى المية عدة مرات! وكان قاعد قصادى اللواء همت، ومعه جماعة لا أعرفهم.

«وبعدين سحبونا على الأرض حتى داخل الباب، فاستلمنى ضابط اسمه عبد اللطيف رشدى، وطلب منى أن أقول: «أنا امرأة!

«وضربنى بقسوة على ظهرى، وأنا بزعق! وضربنى بالجزمة!

«ورحت على العنبر، وكان فيه صول ضربنى، ودخلت!».

س ـ من شاهدته يعتدى على شهدى؟

جـ ـ قدامى واحنا قاعدين ضربه مرجان! وواحد اسمه صلاح طه نادى على شهدى وقال: تعال! وأول ماوقف استلموه ضرب بالشوم! وأنا كنت من الناس اللى بعده.

س ـ هل وقع عليكم الكشف الطبى؟

ج ـ واحد دكتور أسمر جاء يكشف علينا، وماكشفش علينا! وماشفش الاصابات! ولكن حوّل أربعة كانوا فاقدى الوعى إلى المستشفى! وكان العساكر يضربوننا أمامه فى العنبر!».

والضرب بالشوم « لفتح الشهية » !

الوفد فى ٣ مارس ١٩٩٧

عرضنا فى المقال السابق أقوال بعض سجناء الرأى الذين خاضوا تجربة أوردى أبو زعبل الوحشية، ورأينا مدى احترام النظام الناصرى للمثقفين والمفكرين والأدباء والكتاب والعلماء، وكيف استخدم زبانيته فى ضربهم بالأحذية لتأديبهم، لمجرد خلافهم فى الرأى مع عبد الناصر حول الديموقراطية والوحدة المصرية السورية، وليس لأنهم تآمروا لاسقاط النظام!

ونواصل فى هذا المقال تسجيل اعترافات هؤلاء السجناء، من واقع تحقيقات النيابة الرسمية، التى اضطر عبد الناصر إلى الأمر باجرائها بعد الفضيحة التى تعرض لها عقب نشرنعى شهدى عطية الشافعى فى الصحف ، وقد أورها الدكتور رفعت السعيد فى كتابه «الجريمة، وقائع التحقيق فى اغتيال شهدى عطية».

وفيما يلى أقوال جمال الدين محمد غالى، وهو دكتور كيماوى، وكان مصابا:

«احنا ركبنا اللوريات من اسكندرية بالليل، لكى ترحلنا إلى ليمان أبو زعبل. وقد وصلنا فى الساعة الخامسة صباحا، ونزلنا من اللوريات، فقعدونا أربع طوابير، على أطراف الأرجل، ورءوسنا فى الأرض! وبقينا على الحالة دى حوالى ساعة ونصف.

«ثم جاء واحد من حضرات الضباط أعرف شكله، وقال لى: انت عارف الحتة دى؟ قلت: دا الأوردى! قال: أنا حربيك هنا! وانهال على بالضرب بعصا على ظهرى، وسبنى.

«ثم امسك من بجوارى فى الطابور، وهو أحمد خضر، وضربه أيضا!

«وبعد ما انضربنا، ومضت مدة حوالى نصف ساعة، خلونا طوابير: ثلاثة ثلاثة، وجاء الدور على الثلاثة اللى أنا فيهم، فأوقفوا وراءنا عساكر معهم عصى، وقالوا لنا: اجروا! فجرينا والعساكر اللى ورانا يضربونا! وكان هناك ثلاث مجاميع عساكر نمر عليهم، فأول ما نوصل يضربونا! واللى يقع يضربوه على رأسه! لغاية ما وصلنا للأوردى.

«وهناك عند الباب كان فيه واحد بيكتب الأسماء، فكنا نملى أسماءنا والضرب شغال بالشلاليت!

«وبعدين قدمونا للحلاقة، وأثناء الحلاقة ضرب بالاقلام»!

«وبينما كنت أدور وشى، شفت السيد وكيل السجون اللواء اسماعيل همت، والقائمقام الحلوانى مأمور سجن الحضرة بالاسكندرية، وكان حضر معنا من الاسكندرية.

«وبعدين بدأ قلع الهدوم! وأخذ الضرب ينهال علينا ونحن قالعين ملط»!

«وهنا دخت، وجالى اضطراب، فقالوا لى: اقف وامشى! وقابلنى صول ضربنى، وقال لى: اجرى!

«فدخلت عنبر، وجت واقع جوه العنبر. وجاء عسكرى صغير معاه عصاية، وقال لى: البس الهدوم دى . وبعد شوية، جه واحد عسكرى تمرجى، وحط صبغة يود على الجرح. وبعد شوية مر واحد دكتور، شاف الناس التعبانين خالص، وأمر بنقلهم الى المستشفى، فوجدت الثلاثة: مبارك ونور ومحمد عباس، وكانوا مضروبين أكثر منى! وبعدين ادونا علاج»

س ـ بأى شىء وقع عليكم الاعتداء؟

جـ ـ شوم، وكرابيج، وعصى، وأفرع شجر، وجريد!

س ـ ماسبب الاعتداء عليكم؟

جـ ـ معرفش ليه! سمعنا فى الاسكندرية بعد المحاكمه أنه عندما نصل الأوردى حنضرب علقة! فطلبنا من المحكمة فى آخر الجلسة انها تحافظ علينا لغاية صدور الأحكام. واحنا كلنا قررنا فى المحكمة وأثناء الجلسة أننا مؤيدين للرئيس جمال عبد الناصر!

س ـ هل كان شهدى عطية بسيارتك؟ وما الحالة التى كان عليها؟ وهل وقع عليه اعتداء؟

جـ ـ أيوه، وكان كويس جدا، وهو كان عليه الدور بعدى، وأنا كنت دايخ فى العنبر، والناس اللى وصلوا بعدى سمعتهم يقولون إن شهدى اتبهدل من الضرب، وهو رجل كبير فى السن مش زينا، ما يتحملش!

* * *

ثم جاء دور محمد عباس فهمى، بدار الفكر للترجمة والنشر، وأدلى بأقواله على النحو الآتى:

«ركبنا العربيات من الاسكندرية، ووصلنا الصبح بدرى يوم الاربعاء، والقوة اللى كانت جايبانا انصرفت.

«وبعدين قعدونا على الأرض فترة طويلة، وكان فيه عساكر ماسكين شوم، وواحد ضابط راكب حصان،وأخذوا يضربونا واحنا قاعدين، وهم يقولون: دى حاجة لفتح الشهية! ومقدرتش أشوف الضباط دول لأن وشنا كان فى الأرض!

«ووقفنا ثلاثة ووشنا فى الأرض. وطلبوا منا أن نجرى، وطول السكة كانت عساكر تجرى ورانا، ويضربونا، وفى السكة أيضا كان هنالك عساكر يضربونا كل ما نفوت عليهم! لغاية ما وصلنا الأوردى.

«وبعدين أخذونا إلى ترابيزة عليها واحد بيكتب الأسماء، وهنا ضربنى واحد عسكرى بالقلم، وواحد تانى ضربنى بشومة.

«وبعدين رحت عند حلاق، وكان فيه ضرب أيضا!

«وبجوار الباب كان الضابط يونس مرعى واقفا، فخلانى نمت على الأرض، ووشى على الأرض، واثنين عساكر جرونى لغاية جوة!

«واستقبلنى الضابط عبد اللطيف رشدى، وضربنى بالبوكس فى وجهى وظهرى وقلبى ورقبتى. وغالبا الاصابة اللى فى رقبتى من هذا الضابط .

«وبعدين قالوا لى: قوم على العنبر. وهناك قابلنى واحد صول، ونزل فىّ ضرب!

«وبعد شويه جه الدكتور للكشف علينا، فأنا وقعت، وأغمى على، ونقلنى للمستشفى!

س ـ هل شاهدت اعتداء وقع على شهدى؟

جـ ـ هو كان فى الدفعة اللى قدامى، وواحد ضابط جاء وقال: فين شهدى عطية؟ ونزلوا عليه ضرب! وما قدرتش أرفع وشى من على الأرض علشان أبص! وبعدين قام فى الدور بتاعه، وما عرفتش ايه اللى حصل له!».

* * *

ثم جاء دور المناضل مبارك عبده فضل، من مكتب الثقافة والنشر العمالية، وأدلى بمعلوماته كالآتى:

«اللى حصل هو أننى جئت مع زملائى ووصلنا لغاية أوردى أو زعبل، ونزلنا بعيد عن السجن، ثم مشيت القوة اللى جابتنا، وقعدونا، مع الشتيمة!

«وكان فيه تقريبا ثلاثة ضباط: «واحد راكب حصان، واثنين ماشيين، عرفت منهم مرجان، لأنى أعرفه من أيام سجن الاستئناف. وضربنى عدة مرات فى مواضع مختلفة من جسمى. وشفته ببضرب كثير من زملائي بعصا وشوم!

«وبعد مدة طويلة استمرت حوالى ساعتين، خلو كل ثلاثة يجروا مع بعض، وعلى طول الفناء كنا نجرى ونقع، فيضربونا! وأنا كنت فى آخر ثلاثة.

«وكانوا حاطين ترابيزة، وفيه واحد بيكتب الأسماء، وساعتها كان الضرب مستمرا، حتى أغمى على!

«وبعدين ودونى عند الحلاق، وكان فيه ضرب برضه! حتى وصلنا قرب الباب، وكان فيه ضابط اسمه عبد اللطيف رشدى، فأمر بأن نقلع عريانين خالص!

«وكان مع الضابط عبد اللطيف رشدى فرقة، كفونى على بطنى ووشى، واشتغل الضرب على ظهرى لغاية ما أغمى على مرة ثانية!

«وبعدين أعطونى برش ملفوف، والصاغ حسن منير وقف على ظهرى لغاية ما أغمى على! لكن ما ضربنيش شخصيا.

وأنا حصلت لى صدمة عصبية، وشالونى إلى المستشفى، وادونى علاج».

* * *

ثم استدعى محمد نور الدين سليمان جاسر، سكرتير مكتب النشر والثقافة العمالية، وقال:

«وصلنا هنا يوم الأربعاء الصبح بدرى، وقعدونا على الأرض لمدة أكثر من ساعة، وفى طول هذا الوقت كانوا بيضربونا أيضا فى الوقت ده!

«وبعدين طلبوا منا أن نجرى، ثلاثة ثلاثة. وكنت مع شهدى الذى توفى، والثالث مش متذكره.

«وجرينا مسافة حوالى ألف متر، وأنا كانت شيلتى ثقيلة: كيس وبطانية. وماكنتش قادر أجرى، وكان الضرب شغال أثناء الجرى! وأثناء الجرى وقعت منى البطانية، ووقعت ست مرات!

«ووصلنا البوابة، وقلعونى الملابس، وحلقوا شعرى، وكتب اسمى - وكل ده بالضرب!

«وشفت شهدى، كان قدامى، وحطينه فى حفرة فيها ماء، وعسكرى يملأ مية ويدلق عليه!

«وبعدين جرونى من رجلى! وأدخلونى من الباب، فاستلمتنى فرقة ثانية بقيادة اليوزباشى عبد اللطيف رشدى، وكان الضابط يضرب مع العساكر، فدخت ووقعت، وقلت: «أنا عيان بالقلب والصدر! ولكنه كان يضرب ويقول:

«قل: أنا مرة! وشالونى ورمونى فى العنبر. وجت لى الصدمة العصبية، والدكتور كمال شافنى، وحولنى على المستشفى.

س - بماذا كانوا يضربونك؟

جـ - بشوم وعصى، والرجلين واليدين!

س - من الذى شاهدته بخصوص الاعتداء على شهدى عطية؟

جـ ـ بره واحنا بنجـرى، مـخـدتش بالى مين الى ضـربه، لأن أنا كنت عيان، ولكن شفته لما داخ، وحطينه فى الماء!

«وجوّه شفت الضابط عبد اللطيف رشدى هو اللى بيضربه! وعريان ملط! ونايم على وشه، والضرب على الظهر من الضابط والعساكر اللى معه!

س ـ هل وقع اعتداء على شهدى أثناء جلوسكم قبل الجرى؟

جـ ـ أيوه، كـان فيه راكب حصان جه وقال: تعال هنا ياشهدى! ونزل فيه ضرب! ولكن ما عرفش اسمه، وأعرف شكله. ولو عرض على ضباط قوة السجن أقـدر أقدّر اللى كانوا بيضـربوا فيه. لقد كانت هناك فرقتان: واحدة بالداخل وواحدة بالخارج!

وأعتقد أنهما اشتركتا فى ضربنا معا.

س ـ هل لديك أقوال أخرى؟

جـ ـ حاسس أن فيه كسر فى كتفى الشمال، وعايز علاج كويس!»

* * *

وواضح من هذا الأقوال أن شـهـدى عطية كان مـقـصـودا منذ البـداية. فتتفق الأقوال على أنه استدعى بالذات من بين اخوانه بعد استقباله فى أثناء وضع الجلوس، حيث انهال الضابط ضربا على رأسه بالشوم وهو يقول له: وطى ـ أى اخفض رأسك!

وكـان شـهـدى عطية بذلك يدفع ثمن حماسه لعبد الناصر، الذى كان يعرضه لخلافات مع زمـلائه الذين كـانت لديهم تحفظات على النظام. ولكن هذا الثمن بالذات كان هو الذى يدخره عبد الناصر لمؤيديه! فقد أيده للشعب المصـرى، فـعرض الجيش المصـرى للضـرب مـرتين: مـرة عـام ١٩٥٦، والأخرى فى يونية ١٩٦٧ .

وقد كانت مشكلة شهدى عطية الشافعى أنه كان يؤيد عبد الناصر وهو يرفع رأسه! اذ كان يصدق نداء عبد الناصر الشهير الذى أطلقه: ارفع رأسك يا أخى!

ومن هنا جاءت التوصية به خصيصا فور وصوله إلى أوردى أبو زعبل، بعد أن أعدت له «تشريفة» خاصة تناسب زعامته.. تشريفة تخفض رأسه المرفوع! ومن هنا أيضا كان رأسه هو الهدف، وكانت صيحة الضابط الذى ينهال عليه ضربا: وطى!

لم تكن أبدًا ثورة تقدمية وإنما كانت انقلابًا عسكريًا فاشيًا !

الوفد في ٣/١٠/١٩٩٧

أريد أن أصارح القراء الأعزاء بأنني قبل أن أبدأ كتابتي هذه السلسلة من المقالات عن «ثورة يوليو وحقوق الإنسان» كنت أرى أن ثورة يوليو ثورة تقدمية خطيئتها الكبرى هي إعتمادها على الجيش وتسليم مقاليدها اليه بدلا من الشعب، الأمر الذى وضع الجيش فوق كل رقابة شعبية، وحوله من أداة في خدمة نظام الحكم إلى جهاز للحكم يرتكب من الأخطاء ما يشاء وهو بعيد عن المحاسبة.

على أني بعد أن مضيت في هذه الدراسة عن موقف عبدالناصر من حقوق الإنسان، تسرب إلى الاعتقاد تدريجيا بأن هذه الثورة لم تكن بحال تقدمية، وانما هي منذ البداية ثورة فاشية، أو هي فاشية عسكرية مني بها الشعب منذ البداية، واستخدمت كل أدوات الفاشية التي عرفها التاريخ في إحكام سيطرتها وهيمنتها على الشعب.

بل تحقق لى أن المجموعة التى حكمت مصر وسميت باسم ثورة يوليو، لم تكن الا عصابة فاشية عسكرية تخفت تحت شعارات حركة التحرر الوطنى، واستطاعت أن تخدع الشعب المصرى وشعوب العالم العربى والعالم الثالث، فى ظروف تاريخية معينة أتاحت النجاح لهذا الادعاء وهى ظروف الحرب الباردة!

وهذا فسر لى حقيقة كنت أمر عليها مر الكرام، ولكنى فى هذا الضوء الجديد، تبينت كم كانت قاطعة وحاسمة فى تحديد هوية هذه الثورة، وتحديد هوية العصابة التى حكمت مصر.

هذه الحقيقة هى أن الثورة تخلصت منذ أيامها الأولى وقبل اكتمال سنتين على عمرها من جميع العناصر الليبرالية - وهى حقيقة كافية فى حد ذاتها لتحديد هوية الثورة الفاشية لكل من يعرفون ألف باء الفكر السياسى، ولايمكن أن يختلف عليها أحد إلا اذا كان جاهلا أو مضللا!

والغريب أن هذا التقييم كان هو تقييم الحزب الشيوعى المصرى للثورة بعد ثلاثة أيام فقط من قيامها! وكان هذا الحزب قد تألف قبل ثلاث سنوات من قيام الثورة - أى فى ديسمبر ١٩٤٩ - من كل من الدكتور فؤاد مرسى والدكتور اسماعيل صبرى عبدالله وسعد زهران ومصطفى طيبة وداود عزيز.

فعندما قامت الثورة - أو حركة الجيش كما كانت تطلق على نفسها - أخذ الحزب يخاطبها مخاطبة ودية لمدة ثلاثة أيام: ٢٣، ٢٤، ٢٥، ويدعوها إلى التآخى مع الشعب عن طريق: إطلاق الحريات كاملة، والافراج عن المسجونين السياسيين فى البلاد، ودعوة الجماهير الى الحركة، فلما فعلت الثورة العكس فمنعت المظاهرات والتجمهر، أعطى ذلك للحزب الشيوعى تحليلا بأنها انقلاب عسكرى ذو طبيعة فاشية، وأصدر منشوراً يوم ٢٦ يوليو يحذر من هذا الإنقلاب، وكان تحت عنوان: «الخدعة الكبرى»!

وسرعان ما أكدت تصرفات الثورة بعد ذلك صحة تحليل الحزب الشيوعى المصرى، عندما أبدت الثورة عداءها للأحزاب، دون تمييز بين أحزاب رجعية وأحزاب تقدمية وديمقراطية، كما أبدت عداءها للطبقة العاملة الى حد دفعها الى إعدام قادة اضراب مصنع كفر الدوار، ظلما وعدوانا لمجرد الردع وطمأنة الاستثمارات!

وقد استمر الحزب الشيوعى المصرى على هذا الرأى فى ثورة يوليو حتى مؤتمر باندونج وعقد صفقة الأسلحة الروسية، فتغير موقفه من الثورة. والغريب أنه ثبت على هذا الرأى على الرغم من القبض على إسماعيل صبرى عبدالله فى منتصف ١٩٥٥ وتعذيبه فى السجن عذابا شديداً!

ولعل الدكتور فؤاد مرسى عاد الى رأيه الأول فى فاشية ثورة يوليو وهو يخوض تجربة «تشريفة» أبو زعبل بينما هو مصاب بانفصال شبكى، وكرابيج وعصى زبانية عبدالناصر تنهال عليه وهو عار كما ولدته أمه تطارده وهو يجرى الى العنبر! على أنه بعد أن التأمت جروح أوردى أبو زعبل التى ملأت جسده، عاد الى الاعتقاد بتقدمية هذه الثورة!

وهذا يوضح تخبط اليسار المصرى فى تحديد هوية ثورة يوليو، مع أن جميع الدلائل منذ البداية كانت حاسمة فى تحديد الهوية، عندما أخذت الثورة فى التخلص من العناصر الاشتراكية الحقيقية والليبرالية داخل الضباط أنفسهم، فى الوقت الذى كانت تتخلص منهم بالقائهم فى السجون بين أفراد الشعب!

فقد تخلصت الثورة أول ما تخلصت من القائمقام يوسف صديق، صاحب الفضل الأول فى استيلاء الجيش على قيادة الجيش، وبدونه كانت تسحق حركة الجيش سحقاً، ومن أجل هذا الدور ضم الى الضباط التسعة الذين يكونون قيادة التنظيم.

وكان القائمقام يوسف صديق اشتراكيا عظيماً استمر أمينا وفيا لمبادئه بعد ضمه لمجلس قيادة الثورة، وكان فى الوقت نفسه نصيراً للحرية . فكما يقول اللواء محمد نجيب فى مذكراته: «كان يوسف صديق شديد الوضوح فى معارضته لقانون تنظيم الأحزاب «الذى أرادت به الثورة ضرب الحياة الدستورية، كما كان معارضا لضرب الوفد على غير أساس ديمقراطى، وكان يدعو للتمسك بالدستور، ودعوة البرلمان للانعقاد لتعيين مجلس الوصاية. كما أنه كان شديد الثورة والرفض لاعتقال الزعماء السياسيين دون اتهام، وطالب كثيراً بالغاء الرقابة على الصحف وتكوين اتحاد عام للعمال.

ولم يكن يوسف صديق يكتفى بالكلام داخل مجلس قيادة الثورة ، بل كان يبدى آراءه وينشرها خارج المجلس بين الضباط الأحرار، الأمر الذى أدى الى انتشار التذمر بين ضباط المشاة. وعند ما ضرب مجلس قيادة الثورة تنظيم ضباط المدفعية فى يناير ١٩٥٢ ، واعتقل الضباط وأدخلهم السجن بملابسهم العسكرية، لم يتردد يوسف صديق فى تقديم استقالته ، فقد وصل الأمر بينه وبين زملائه الى نقطة اللاعودة. وعندما حاول محمد نجيب إثناءه عن هذه الاستقالة أصر عليها قائلا: انه لا يمكن أن يرتبط مع مجموعة لا يوافق على سياستها.

وقد حاول عبدالناصر تعيينه بعد ذلك سفيرا لمصر فى الهند على سبيل الرشوة، ولكنه رفض وصارح عبدالناصر برأيه فيه، وهو أنه: دكتاتور! وقد نفت الثورة يوسف صديق فى ابريل ١٩٥٣ ، ثم حددت اقامته.

كان الضابط اليسارى الآخر الذى تخلصت منه الثورة هو خالد محيى الدين، وكان بدوره نصيراً للحرية داخل قيادة الثورة، ومن هنا وقف موقف المعارضة من مشروع التوفيق والتحكيم فى منازعات العمال الرجعى الذى أرادت الثورة اصداره بدلا من القانون رقم ١٠٥ لسنة

١٩٤٨ ، عندما رآه يحرم العمال من حق الاضراب والامتناع عن العمل بأية صورة من الصور، ويمنح صاحب العمل فى الوقت نفسه حق الفصل التعسفى.

فقد أدرك أن اصدار هذا القانون مع وجود وسائل الانتاج فى يد الطبقة الرأسمالية وابتعاد الثورة عن الفكر الاشتراكى، سوف يلقى الطبقة العاملة تحت أقدام الرأسمالية دون أى حق أو حماية.

ثم أخذت المواقف بينه وبين مجلس قيادة الثورة تتباعد عندما أخذ يصوغ نظريته فى الشكل الذى تتحول اليه الثورة، فى سلسلة من المقالات ظهرت فى عام ١٩٥٣ ، فى الوقت الذى كانت جميع القوى التقدمية والديمقراطية وعلى رأسها الوفد قد أدانت الثورة بالانحراف عن أهدافها الديمقراطية، وكانت نظريته تقوم على تقوية نقابات العمال وضمان حرية المواطن فى الرأى والعقيدة، وعمل الجمعيات والأحزاب، وحق التظاهر السلمى لجميع المواطنين وحق الاضراب السلمى.

وكما أدت آراء القائمقام يوسف صديق الى القطيعة بينه وبين مجلس قيادة الثورة، فكذلك أدت مواقف خالد محيى الدين الى نفس النتيجة. فقد ظهر موقف خالد محيى الدين الى جانب الديمقراطية بصورة صارخة فى أكبر أزمة هددت الثورة، وهى أزمة مارس ١٩٥٤ ، التى سحقتها الثورة سحقا، وكان خالد محيى الدين أحد ضحاياها، فلم يكن له، وهو الذى كان يدعو الى استمرار الثورة فى شكل ديمقراطى، أن يبقى فيها بعد أن وصلت الى نقطة اللا عودة فى طريقها الدكتاتورى، فأصر على تقديم استقالته فى أبريل ١٩٥٤ ، وأبعده عبدالناصر الى الخارج، ولم يسمح له بالبقاء فى مصر.

ـ كان الضابط اليسارى الثالث الذى تخلصت منه الثورة هو أحمد حمروش. وكانت الثورة قد أسندت اليه فى سبتمبر ١٩٥٣ رئاسة مجلة تتحدث باسم حركة الجيش باسم «التحرير» فلما أخذت المجلة تتجه

بصفحاتها بوضوح نحو تأكيد مبادئ الديموقراطية، ونشر فكر تنظيم «حدتو» الشيوعى الذى كان يؤيد الثورة، أقالت الثورة حمروش من رئاسة تحرير مجلة التحرير، ثم أمرت باعتقاله فى حركة اعتقال الضباط يوم ١٥ يناير ١٩٥٣ ضمن مجموعة المدفعية ورشاد مهنا، رغم عدم صلته بهم! وأخذت فى اعتقال الشيوعيين يوم ١٦ يناير، فاعتقلت ٤٨ شيوعيا، وصادرت الجرائد والمجلات اليسارية التى كانت موجودة فى عهد الوفد، مثل الكاتب والملايين والميدان والواجب وصوت الطالب والمعارضة، وبقى أحمد حمروش فى الاعتقال خمسين يوما دون تحقيق أو أسئلة!

وقد مضت الثورة الفاشية فى اعتقال الشيوعيين بسبب انضمامهم إلى القوى الديمقراطية التى تضم الوفديين والاشتراكيين وأنصار السلام التى كونت «الجبهة الوطنية الديمقراطية» وقدمت الجبهة الوطنية الديمقراطية إلى المحاكمة بعد أن اعتقلت المكتب السياسى لحدتو والنائب الوفدى حنفى الشريف واليوزباشى مصطفى كمال صدقى وسعد كامل وزوجته، ووصل الصدام ذورته فى نهاية عام ١٩٥٣، الأمر الذى مهد لأزمة مارس ١٩٥٤

هذا العرض الموجز لصدام ثورة يوليو مع القوى الاشتراكية والليبرالية، كاف لتحديد الهوية الفاشية للثورة، خصوصا ولم يكن هذا الصدام صداما مؤقتاً، بل كان صداما دائما مستمرا، بلغ ذروته فى حملة اعتقالات يناير ١٩٥٩، عندما اعترض الشيوعيون على شكل الوحدة المصرية السورية وموقف ثورة يوليو الدكتاتورى من قضية الديمقراطية السياسية التى كانت سوريا تتمتع بها قبل الوحدة.

لقد انفجر حقد الفاشية الناصرية على الشيوعيين على نحو لم يحدث حتى فى أعتى النظم النازية. فعلى الرغم من أن الشيوعيين فى ذلك الحين كانوا يعلنون تأييدهم الصريح لنظام عبدالناصر، تحت الوهم بأنه نظام تقدمى، فإن هذا النظام لم يتردد فى اعتقالهم والزج بهم فى المعتقلات فى

طول مصر وعرضها، ولم يكتف بذلك مما يمكن أن يغتفر له، وانما نكل بهم تنكيلا، وألحق بهم عذابا جماعيا لم يسبق له مثيل، وذلك بغير هدف الا هدف التعذيب والتنكيل!

فعلى حد قول الدكتور رفعت السعيد فى كتابه: «الجريمة، وثائق عملية اغتيال شهدى عطية»، فان تاريخ التعذيب الذى شهدته المجتمعات البشرية منذ نشأتها لم يشهد تعذيبا من أجل التعذيب الا فى عصر ثورة يوليو! لقد شهد المجتمع البشرى تعذيبا لانتزاع الاعترافات من المعتقلين، فاذا تم الاعتراف انتهى التعذيب، كما شهد التعذيب عقابا على جريمة ارتكبت، ولكن لم يشهد تعذيبا من أجل التعذيب وبغير منطق ولا عقل ولا سبب ولا هدف غير التعذيب نفسه!

د. لويس عوض..
وفوازير عبدالناصر!

١٧ /٣/ ١٩٩٧

تصحيح تاريخ الشعوب عملية مستمرة كلما سمحت بها الوثائق التاريخية التى تظهر تباعا، أو تكشفت حقائق جديدة. والشعوب الحية لا تتردد فى تصحيح تاريخها أولا بأول حرصا على تكوين ضميرها القومى تكوينا صحيحا، وعلى سلامة ذاكرتها القومية، وبناء مستقبلها على أساس سليم يستفيد من تجارب الماضى.

وهذا ما نراه حاليا فى روسيا ودول شرق أوربا التى لم تتجه اتجاهها الحالى الاقتصادى والسياسى الا بعد أن قامت أولا بتصحيح تاريخها وفقا لما تكشفت عنه الأحداث، وأعادت تقييم تجربتها السابقة فى إطار المتغيرات الدولية والمحلية.

وهذا التصحيح، وما يترتب عليه من تغيير، يؤدى بالضرورة الى تغيير المصطلحات والمفاهيم وفقا لحركة التاريخ، فما يطلق عليه اتجاه تقدمى قد يتحول مع التصحيح الى اتجاه رجعى، وما يطلق عليه اسم يسارى، يتحول مع التصحيح الى اتجاه يمينى!

وهذا ما يحدث حاليا فى روسيا، فبعد أن كان الاتجاه الشيوعى يطلق عليه اسم اتجاه يسارى، يعنى أنه اتجاه تقدمى، صار اليوم يطلق عليه اسم اتجاه يمينى، بمعنى أنه اتجاه رجعى يعود بروسيا ودول أوروبا الشرقية الى الوراء ولا يمضى بها الى الأمام!

وما نقوم به اليوم على صفحات جريدة «الوفد» الغراء من دراسة حول موقف ثورة يوليو من حقوق الانسان، هو محاولة لتصحيح تاريخ مصر فى فترة حكم ما عرفت باسم «ثورة ٢٣ يوليو».

على أنه يجب أن أعترف بأن ما أقوم به ليس جديدا، بل له سوابق من مفكرين مصريين حاولوا اعادة تقييم تجربة ثورة يوليو توصلا لتحديد هويتها.

وقد كان من هؤلاء المفكرين الدكتور لويس عوض فى كتابه «أقنعة الناصرية السبعة» الذى كتبه بذكاء وحذر شديدين بقدر ما سمحت له الظروف التى كتب فيها بعد عودته من جامعة كاليفورنيا عام ١٩٧٥، واستطاع أن يقول فيه كل ما أراد قوله عبر جسور ذكية أقامها بمهارة لموازنة الأفكار الخطيرة التى طرحها ولم يكن لها سابقة فى نقد هذه الثورة من مفكر يسارى.

فقد طالب المصريين «بالنظر الى فترة ١٩٥٢ - ١٩٧٠ نظرة موضوعية تعطى لعبدالناصر ونظامه ما له وما عليه»، وقال إن أكثر الذين يحاسبون عبدالناصر فى ذلك الوقت، لا يحق لهم أن يحاسبوه» لأنهم كانوا أدوات له فى كثير مما ارتكب من أخطاء! وهم الذين وطدوا له فيما أخطأ وعوقوا سبيله كلما أصاب!

وفى الوقت نفسه هاجم الذين «ينتفضون غضبا إن سمعوا رجلا يتوجع من مكروه أصابه فى عهد عبدالناصر، ويزمجرون غيظا إن خدش له أحد

طرفا! كأن شخص عبدالناصر غدا مقدسا له رهبوت الأنبياء! دون أن يدركوا أنهم ينتهون فى النهاية - دون أن يعلموا - بالدفاع عن صلاح نصر وليس عن عبدالناصر!».

وقال إنه من الضرورى أن نحاكم الماضى فى موضوعية ودون تشنج، فقد كان من أخطاء ثورة يوليو أنها اشتغلت بتحطيم مقومات ثورة ١٩١٩، أكثر من انشغالها ببناء مقومات ثورة ١٩٥٢ نفسها! حتى إنها طمست فى عقول أجيالها الفرق بين سعد زغلول ومصطفى النحاس من جهة، وبين محمد محمود واسماعيل صدقى من جهة أخرى! وبين العرش من جهة، والشارع المصرى من جهة أخرى! وأذابت الفوارق بين الرجعية والتقدمية حتى بدت ثلاثون عاما من كفاح الشعب العظيم من أجل الاستقلال الوطنى والديمقراطية السياسية والاجتماعية، وكأنها ثلاثون عاما من حكم الارهاب!

ثم بدأ الدكتور لويس عوض فى هدم ثورة يوليو واعلان افلاسها من الناحية الأيديولوجية (النظرية) فقال: إن الثورة بدأت فى عام ١٩٥٢ برفع ثلاثة شعارات - على غرار «الثالوث الفرنسى» فى الثورة الفرنسية وهو ثالوث: « الحرية والمساواة والاخاء» الذى أعلنته الثورة الفرنسية أصلا ليحل فى الوجدان الفرنسى محل «الثالوث المسيحى» (الآب والابن والروح القدس» ، ويصبح عقيدة للقيادة الجديدة، أو محل «ثالوث الكنيسة الكاثوليكية: الايمان والأمل والاحسان. وقد شاعت عادة «التثليث الإنسانى» بدلا من «التثليث الالهى» فى أكثر الثورات والنظم الانقلابية منذ ذلك الحين، فأعلن هتلر أن رسالة المرأة هى «الأطفال والكنيسة والمطبخ» وأعلن زعماء مصر الفتاة فى مصر فى الثلاثينيات (أحمد حسين وفتحى رضوان) أن شعارهم هو: الله والوطن والملك» ، وسك الماريشال بيتان على

العملة الفرنسية شعار فرنسا الجديد تحت الحكم النازى وهو «العمل والأسرة والوطن»، بدلا من «الحرية والمساواة والاخاء».

وهذا ما فعلته ثورة يوليو، فأعلنت فى عام ١٩٥٢ أن شعارها هو: «الاتحاد والنظام والعمل»! وفى سنة ١٩٦٢ ومع الميثاق أعلنت شعارا آخر هو «حرية واشتراكية ووحدة»!

وقال الدكتور لويس عوض إنه فى أزمة مارس «حين سألنا الثورة قائلين: «الاتحاد والنظام والعمل» كلام جميل، ولكن هذه «واجبات الإنسان»، فأين هى «حقوق الإنسان» التى تعد الثورة بها المواطنين اذا قاموا بواجباتهم؟ جاء الرد فى عام ١٩٥٦ فى دستور ١٩٥٦، ثم فى المبادئ الثلاثة المعلنة فى الميثاق فى عام ١٩٦٢. فهذه المبادئ الستة والمبادئ الثلاثة هى «العقد الإجتماعى» الذى عاهدت الثورة عليه المصريين وأرادت المصريين أن يتعاهدوا عليه.

ولكن اذا نظرنا الى المبادئ الستة، وهى القضاء على الاستعمار، والقضاء على الاقطاع، والقضاء على الاحتكار الرأسمالى، واقامة جيش وطنى قوى، وإقامة عدالة اجتماعية، واقامة حياة ديمقراطية سليمة. نرى أنها تدل - بترتيب بنودها - على سلم الأولويات فى ذهن عبدالناصر وصحبه، وعلى أن الثورة ظلت لعشر سنوات على الأقل حتى عام ١٩٦٢ «ترى أعداءها قبل أن ترى غايتها»!

فالمبادئ الثلاثة الأولى هى مبادئ تحطيم. وليست مبادئ نظام، أما المبادئ الثلاثة الأخيرة، وهى اقامة جيش وطنى وقوى، واقامة عدالة إجتماعية، واقامة حياة ديمقراطية سليمة، فهى لا تعنى شيئا محددا، باستثناء مبدأ الجيش الوطنى القوى!

«إن هذه المبادئ انما هو عموميات فى عموميات! فماذا تكون هذه «العدالة الاجتماعية» ؟ وما تعريفها؟ وما أسسها وحدودها؟

«أهى عدالة اجتماعية كما يراها من يملكون، أم عدالة اجتماعية كما يراها من لا يملكون؟ أهى عدالة أصحاب المائة فدان، أم عدالة الفلاحين الحفاة الذين فلحوا لهم الأرض؟ أهى عدالة صاحب المصنع أو المتجر، أو عدالةالأجراء العاملين فى مصنعه أو متجره؟ أهى عدالة صاحب العمارة أم عدالة سكان العمارة؟ أهى عدالة الاحسان والوازع الخلقى أم عدالة الحقوق الطبيعية؟ أهى عدالة المنتج أم عدالة المستهلك؟

«وبالمثل، فماذا تكون هذه الديمقراطية السليمة؟ ومن الذى يحدد إن كانت هذه الديمقراطية أوتلك سليمة أو غير سليمة؟

«نحن نعرف أن معنى الديمقراطية الحرفى هو «حكم الشعب»، وأن سبيلها التقليدى هو اختيار الشعب من يراه من الوكلاء السياسيين، ليمثلوه ويعبروا عن مصالحه، وليحكموا ويحققوا مصالحه. فهل تكون الديمقراطية سليمة اذا حمينا الشعب من خطأ الاختيار، وبالعزل السياسى لمن نقدر أنهم أعداء الشعب؟

«ومن الذى يقدر إن كان هذا الرجل أو ذاك عدو الشعب أم صديق الشعب؟ نحن أم الشعب نفسه؟

«هل نحن متفقون على أن الشعب يحتاج إلى وصاية أجهزة الاتحاد القومى والاتحاد الإشتراكى والمخابرات والمباحث الذين يستطلعون دخائل الناس ودخائل الأمور ولا يقفون عند ظاهر الحال؟».

ثم ينتقل الدكتور لويس عوض الى الاشتراكية التى وعدت بها الثورة المواطنين، فيسخر منها قائلا: إنها شىء غامض!، لأنه بحسب - تعريفه فى الميثاق - مطاط يتسع لكل شىء: ففيه مكان للقطاع العام، وفيه مكان

للقطاع الخاص! وفيه وعد بتذويب الفوارق ولكن كيف يكون: هل يكون بنسبة واحد للعامل الى مائة لرئيس مجلس ادارة المؤسسة؟ أو واحد للعامل إلى مائة ألف لبعض المقاولين؟

ثم إن الثورة تقول إن هذه الاشتراكية «منبثقة من واقعنا»! دون أن تحدد هذا الواقع! كما تؤكد أن اشتراكيتنا ليست اشتراكية مستوردة، أى أنها ليست كاشتراكية الخواجات فى الاتحاد السوفيتى (الشيوعية) أو فى ألمانيا الهتلرية (النازية) أو كاشتراكية حزب العمال البريطانى(الفابية)!

لهذا السبب ـ كما يقول الدكتور لويس عوض ـ حارت عقول المفكرين فى «الميثاق»! فمن قائل إنه يرسى أسس الاشتراكية العلمية (الماركسية)! ومن قائل إنه يحترم الرسالات السماوية وإنه يرسى أسس الاشتراكية الدينية! ومن قائل: بل هو يرسى أسس الاشتراكية العربية! ولولا الحياء لقالوا: إنه يرسى أسس «الاشتراكية الوطنية»، أى النازية! وهكذا دخلنا فى عالم «الفوازير»! وأصبحت اشتراكيتنا كذلك اللغز الذى جاء فى الأمثال:

«يعدى البحر ما يتبلش»!

لذلك يرى الدكتور لويس عوض أنه من الظلم لعبد الناصر ونظامه أن نقول إنه وعد الناس ببناء اجتماعى أو اقتصادى أو سياسى ثم عجز عن تحقيقه! لأنه ـ باختصار ـ لم يعد بشىء الا فى أعم عمومه، وهو: «مجتمع الكفاية والعدل»! ولكن هذا الشعار ليس فيه جديد! فقد كانت ترفعه أحزاب ما قبل الثورة، من الوفد الى الأحرار الدستوريين إلى أحزاب السراى! بل إن الملك فاروق نفسه كان يؤنب النحاس باشا بحجة أنه لم يوفر للشعب «الغذاء والكساء»لكى يبرر طرده من الحكم!

ثم يسخر الدكتور لويس عوض من الشيوعيين المصريين والعرب الذى دافعوا عن عبدالناصر كرائد من رواد الاشتراكية، لمجرد أنهم رأوا فى نظام

القطاع العام وفى بعض التشريعات العمالية والتأمينات الاجتماعية وفى التعاون أو التقارب من الاتحاد السوفيتى «ملامح اشتراكية»! ويقول: إن هذا أمر جد خطير! وإنه «لابد من بحثه بحثا علميا واقتصاديا لمعرفة جوهر هذه «الاشتراكية الناصرية»، وهل كانت اشتراكية حقيقية أو كانت «اشتراكية وطنية ـ أى فاشية؟».

ويبرر الدكتور لويس عوض أهمية فحص اشتراكية عبدالناصر، تبريرا يقطر سخرية، إذ ينفى عن هذه الاشتراكية صفتها كاشتراكية مما عرفته النظم الاشتراكية، فيبنيه على أن عبدالناصر ـ فى نظره ـ «سيدخل التاريخ باثنين من أهم منجزاته، وهما: تصفية الشيوعية، وتصفية الديمقراطية، ليس فقط فى مصر بل وفى العالم العربى لحد ما! فأى نوع من الاشتراكيات تدخل اشتراكية عبدالناصر بهذين الانجازين؟

على هذا النحو حصر الدكتور لويس عوض اشتراكية عبدالناصر فى سلك الاشتراكية الوطنية ـ أى النازية! فهى النوع الوحيد من الاشتراكيات الذى يعادى كلا من الشيوعية والديمقراطية بنفس الدرجة، وهى النوع الوحيد من الاشتراكية الذى ظهر فى ألمانيا الهتلرية وإيطاليا موسولينى وأسبانيا فرانكو وجميع الفاشيات التى ظهرت فى التاريخ!

عندما وقعت مصر
فى قبضة الحكومة الخفية
والمخابرات والاتحاد السوفيتى !

الوفد ١٩٩٧/٣/٢٤

تحديد هوية ثورة يوليو هى عملية حيوية، وتعد من صميم العمل التاريخى، فمن الضرورى لكل شعب أن يعرف تاريخه فى صورته الصحيحة بعيدا عن التزييف والتضليل. وبالنسبة للشعب المصرى خاصة فقد كانْ تاريخه عرضة للتشويه على يد ثورة يوليو، كما عرضه للطمس فى كثير من أجزائه، حتى إن جيل ثورة يوليو شب وهو لا يعرف شيئا عن الحركة الوطنية التى قادها الوفد منذ عام ١٩١٩ إلى عام ١٩٥٢، بعد أن أسقطت الثورة من هذا التاريخ اسم أكبر زعيم شعبى عرفته مصر بعد سعد زغلول وهو مصطفى النحاس، وذلك فى الوقت الذى رفعت اسم عبدالناصر الى مقام البطولة والزعامة المتفردة التى لم يسبق لها مثيل، وأسبغت على حكمه من صفات التقدمية والاشتراكية والديمقراطية ما جعل منه أفضل حكم على العصور! وخدعت بذلك الشعب المصرى وخدعت التاريخ فشبت الأجيال المصرية منذ ذلك الحين مغيبة الوعى تنظر إلى تاريخها بنفس المنظار الذى صنعته لها ثورة يوليو لتفهم تاريخها بالمقلوب!

ومن هنا فان ما نقوم به على صفحات هذه الجريدة الغراء «الوفد» هو عمل تصحيحى مهم لتاريخ مصر، لانستخدم فيه شيئا سوى سلاح الحقائق التاريخية غير القابلة للشك أو النقض، ولا نبتغى منه غير وجه الحقيقة التاريخية المجردة.

وكنا فى مقالنا السابق قد تعرضنا لمراجعة الدكتور لويس عوض لثورة يوليو، وكيف بيّن إفلاسها من الناحية الأيديولوجية (النظرية) عندما نقد شعاراتها الأولى عن «الاتحاد والنظام والعمل» قائلا إنها تحدثت عن واجبات الانسان لاحقوق الانسان! ونقد المبادئ الستة للثورة قائلا إن المبادئ الثلاثة الأولى منها هى «مبادئ تحطيم» «لا مبادئ نظام» وأما المبادئ الثلاثة الباقية فهى - باستثناء مبدأ بناء الجيش الوطنى القوى - عبارة عن عموميات فى عموميات! وسخر من مبدأ الديمقراطية السليمة الذى نادت به الثورة، وقال إنها وضعت الشعب تحت حماية أجهزة الاتحاد القومى والاتحاد الاشتراكى والمخابرات والمباحث! كما سخر من الاشتراكية التى وعدت بها الثورة المواطنين، وقال إنها شىء غامض ومطاط يتسع لكل شىء ، وقد حارت فيها عقول المفكرين، ودخلت فى عالم «الفوازير» وإن أحدا لا يعلم هل كانت اشتراكية حقيقية أو كانت «اشتراكية وطنية» (نازية)! ثم حصر الدكتور لويس عوض اشتراكية عبدالناصر فى سلك النازية بناء على أن عبدالناصر سوف يدخل التاريخ باثنين من أهم منجزاته، وهما: تصفية الشيوعية، وتصفية الديمقراطية!

وقد انتقل الدكتور لويس عوض الى الحديث عن قرارات التأميم التى أعلنها عبدالناصر فى يوليو ١٩٦١، والتى كانت العمود الفقرى للقطاع العام، فقال إن هذه التأميمات وصفت خطأ «بالنظام الاشتراكى»، وما هى فى حقيقتها إلا رأسمالية دولة! وحتى يوضح هذه النقطة قال: إن الفرق الوحيد بين الاشتراكية ورأسمالية الدولة فيما يتصل بالملكية العامة لوسائل

الإنتاج والخدمات وأدواتهما، هو ما يتعلق بموضوع أيلولة فائض القيمة من هذا الاستثمار العام.

ففى الاشتراكية «حيث الشعب مؤلّه» ـ على حد قوله ـ يتحتم أن يئول فائض القيمة ـ أى ربح رأس المال العام وثمرته ـ الى الشعب فى صورة خدمات عامة، كالتعليم العام، والصحة العامة، والمواصلات العامة، والترفيه العام ـ وبإختصار الاشتراكية تحتم أن تئول ثمار عمل الشعب وموارده الطبيعية الى كل بحسب عمله أولا، والى كل بحسب حاجته (ثانيا).

أما فى رأسمالية الدولة، حيث الدولة مؤلهة من دون الشعب، فثمار عمل الشعب وموارده الطبيعية تصب فى خزائن الدولة لتنفقها بحسب تقدير ولاة الأمور القائمين بحكم الدولة، لما فيه خير الدولة! إن رأوا انفاقها على مجد الدولة، أنفقوا على مجد الدولة! حتى ولو ضاعت فى حروب وفتوحات! وان رأوا انفاقها على بناء صفوة المجتمع ومجتمع الصفوة، أنفقوها على ذلك! ولو ضاعت على الطبقات الحاكمة ولم يصل منها للشعب الا الفتات!

كذلك تتميز الاشتراكية عن رأسمالية الدولة بالرقابة الشعبية ومسئولية الحاكم وطبقته الحاكمة أمام الشعب، وهو ما لانراه فى رأسمالية الدولة حيث نرى الحاكم غير المسئول أمام الشعب! بل نراه هو الذى يسائل كل من دونه ولا يسائله أحد! وهو ما يميز نظام عبدالناصر!

وتناول الدكتور لويس عوض التنمية الاقتصادية فى نظام عبدالناصر، فقال إنها قامت على نظرية الاكتفاء الذاتى، أى أن تنتج الصناعة المصرية «من الابرة إلى الصاروخ»! وهى قاعدة الاقتصاد الفاشى والنازى والشيوعى وكل نظام شمولى، ولا يمكن تطبيقها الا فى ظل الحماية الجمركية العنيفة الشاملة، وخفض استيراد السلع المصنوعة أو منعه، وفى ظل تجميد الصراع الطبقى (أوما سمى بتحالف قوى الشعب العاملة!)

وهو ما قامت به الدول الاستعمارية الطامحة مثل ألمانيا النازية واليابان للسيطرة الصناعية، ولكن نجاح هذا النظام يرتبط بقدرة الصناعة الوطنية على الوقوف على قدميها، لأن كل حماية مصطنعة لاتقوم على بلوغ الانتاج نفسه حد الكفاية انما تكون على حساب المواطن المستهلك والعامل المنتج، وهما جسم المجتمع الأكبر الذى ما أنشئت الحماية إلامن أجله.

وقال إن دراسة حالة الاقتصاد المصرى فى عهد عبدالناصر تقف دونها توافر البيانات الصحيحة! وعندما أصدر الدكتور على الجريتلى كتاب «التاريخ الاقتصادى من ١٩٥٢ الى ١٩٦٦»، صادره عبدالناصر أو رجاله! ولم ير النور الا بعد أن سقطت مراكز القوى! ولا يمكن معرفة هل تدر منشئات القطاع العام ربحا على مستوى الاستثمار الرأسمالى أو تخسر؟، واذا كانت تربح فكيف ينفق ربحها: على القيادة أم على القاعدة؟

وأكد أن منشئات القطاع العام المؤممةمن المصالح الأجنبية قبل الثورة كانت - قطعا - استثمارات رابحة، والا لأفلس أصحابها من الخواجات! فهل هى لاتزال تربح بعد التأميم بنفس النسبة؟ أو بنسبة أقل؟ أو ترى بعضها ينتج بالخسارة؟ هذه أسئلة يتعذر الاجابة عنها.

فعلى حد قوله «لقد كان تلفيق البيانات الخاصة بالانتاج والخدمات والأرباح، سمة من سمات إدارة القطاع العام طوال عهد الثورة! كذلك إخفاء الحقائق والتستر على الأخطاء والخسائر والكوارث! وكان المنطق السائد هو رسم صورة وردية لحالة الانتاج والتوزيع فى كل فرع من فروع القطاع العام، لاثبات نجاح البيروقراطية والتكنو قراطية المصرية، ولو بإشاعة الأكاذيب! وكانت الدولة من جهة، والاتحاد الإشتراكى من جهة أخرى يشجعان هذا المنطق، لقمع التشكيك فى القطاع العام - أى فى رأسمالية الدولة أو الاشتراكية سمها كما شئت!

وقال الدكتور لويس عوض إن مشكلة القطاع العام هى أن اكتشاف اللصوص فيه أصعب من اكتشافهم فى القطاع الخاص حيث لكل رأس مال حارس يسهر عليه شخصيا ويصونه من الضياع، أما القطاع العام فمالكه الحقيقى، الذى هو الشعب، لا يملك حق التفتيش فى دفاتره! لأن ادارته متحصنة داخل قلعة منيعة، هى قلعة الحكم ذاتها من اداريين وبيروقراطيين وفنيين!

وتساءل الدكتور عوض عن أسباب عجز مصر عن سداد ديونها الخارجية للدول الاشتراكية والرأسمالية؟ وقال إنه إما أن انتاج القطاع العام لم يكن كافيا لتكوين الاحتياطى المطلوب تحويله الى الدول الدائنة، ـ وفى هذه الحالة تكون الصورة العامة للقطاع العام صورة فاشلة بنسبة النقص فى سداد أقساط الديون ـ وإما أن إنتاج القطاع العام كان كافيا لسداد الديون ولكن هذا الانتاج أكله الانفاق على حروبنا الخاسرة وعلى أحلامنا السياسية الضائعة! وفى هذه الحالة فان اللوم يقع على قيادتنا السياسية والاقتصادية التى خلطت ميزانية الحرب بميزانية التنمية!

وقال الدكتور لويس عوض إنه «مما لا شك فيه أن النظام المغلق الذى أسسه عبدالناصر جعل من المستحيل معرفة ما كان يجرى داخل مؤسسات القطاع العام وشركاته، وداخل ادارة النقد الأجنبى الخ، وجعل العقاب على الانحرافات أوسوء التصرفات غير ممكن، لأنهما كثيرا ما كانا يتمان بأمر من «الحكومة الخفية»! التى لم تكن مسئولة أمام أحد إلا عبدالناصر وحده!

وضرب المثل بفضيحة محصول القطن الذى أكلت الدودة منه ما قيمته ٧٠ مليون جنيه عام ١٩٦١، ومع ذلك تاهت المسئولية بين وزارة الزراعة التى قالت إنها طلبت استيراد المبيدات اللازمة، وادارة النقد الأجنبى التى قالت إن «جهة ما»! تصرفت فى رصيد العملة الأجنبية!

وقال إنه وسط هذا الانغلاق سقط على القطاع العام ظلان رهيبان، هما: ظل المخابرات العامة، وظل الاتحاد الاشتراكى، كسلطات تحقيق وإدانة وإرهاب باسم نزاهة الحكم!، وكثرت الشكاوى الكيدية، ولم تعد تسمع لأحد كلمة الا اذا كان موضع ثقة إحدى هاتين السلطتين غير المسئولتين!

وقال الدكتور لويس عوض إنه فى ظل غلق باب الاستيراد الا بإذن الدولة، راجت السوق السوداء فى السلع الاستهلاكية المستوردة والمحلية، وفى قطع الغيار، وشاع الاكتناز للمضاربة فيها، «وتصاهر الأوغاد فى القطاع العام والقطاع الخاص لسلخ جلد المستهلك»! وراجت سوق تهريب السلع الأجنبية فى مجتمع الندرة، أى من الشام أيام الوحدة، ثم من غزة بعد الانفصال، ثم من ليبيا بعد هزيمة ١٩٦٧ وثورة الفاتح من سبتمبر، ثم من السعودية والكويت ومن كل مكان بعد الانفتاح!

وتحدث الدكتور لويس عوض عن ادارة القطاع العام فى عهد عبد الناصر، فوصفها بأنها ادارة مختلة نشأت فى تاريخ مبكر من عهد عبدالناصر، واشتهرت باسم «أهل الثقة وأهل الخبرة»، عندما ما لم تجد الثورة سبيلا لحماية نفسها الا بالاعتماد على «الضباط الأحرار» ومن لاذ بهم من ضباط الصف الثانى، أو المدنيين المتقربين على أساس الولاء الشخصى، ودون قيد فنى أو شرط فكرى!

ومن هنا سلمت الثورة كل قطاعات الإنتاج والخدمات الى مجموعة من القيادا ت العسكرية أو شبه العسكرية، وجعلت كل تعيين أو ترقية بقوة القانون من الدرجة الخامسة فصاعدا لا يتم الا بموافقة المخابرات العامة ومكاتب الأمن! وكذلك الوضع فى بعض القطاعات الحساسة كأجهزة الاعلام وبعض المستويات العليا كمجالس الادارات، وعضوية الاتحاد القومى أو عضوية الاتحاد الاشتراكى.

وبذلك - كما يقول الدكتور لويس عوض - جعلت الثورة «الجنسية المصرية» فى المرتبة الثانية بعد «الجنسية الثورية»! واعتبرت كل مواطن مصرى عدوا للثورة مالم يحصل على شهادة أو تأشيرة من مسئول بأنه عكس ذلك!

وقال إنه من بين من تخيرتهم الثورة من الاداريين والفنيين نسبة عظيمة من الجهال، خربى الذمة، والمستهترين، وعباد النفس، والمعارف، والأقارب بدرجة ساعدت على تخريب الانتاج والخدمات فى أكثر قطاعات الحياة فى بلادنا»!

واستشهد الدكتور لويس عوض بحديث لعبدالناصر للصحفى الانجليزى بيتر مانسفيلد، اعتبره «من أخطر وثائق الثورة التى تمكن من فهم منهج عبدالناصر فى ادارة البلاد، وفيه اعترف عبدالناصر بأنه عندما عجز عن إبعاد زملائه من الضباط الأحرار عن الجيش عن طريق فصلهم من القوات المسلحة أو احالتهم على المعاش أو الإستيداع، وهم لا يزالون فى سن الخدمة العامة، وزعهم على الادارات الحكومية وعلى المؤسسات والشركات العامة، لتسييرها من ناحية، ولمراقبة أمن الدولة فيها من ناحية أخرى، وبهذا «كافأتهم على تضحيتهم، وخدمت جيش مصر بتنقيته من الضباط المشتغلين بالسياسة»!

وعلق الدكتور لويس عوض على هذه الوثيقة قائلا: إذا كان عبدالناصر قد طهر جيش مصر من الضباط السياسيين، ووقاها شر الانقلابات العسكرية، فإنه فى الوقت نفسه أساء إلى الحياة المدنية وإلى إدارة الانتاج المصرى والخدمات المصرية، بفرض العديد من الضباط ناقصى الخبرة، ومحدودى الثقافة، على حياتنا المدنية، وقد كان منهم فئة فاسدة الخلق، طغت وبغت، وأرهبت الأهلين لنهب المصادرات والحراسات والمال العام، أو لاشباع عقدها السادية فى بعض الأحيان»!

د. لويس عوض وفاتورة حساب التجربة الناصرية!

الوفد ١٩٩٧/٣/٣١

كنا وصلنا فى عرض تقييم الدكتور لويس عوض للتجربة الناصرية إلى نتيجة هامة من نتائج الحكم العسكرى الفاشى الذى أرساه عبدالناصر، وهى انتقال السيطرة العسكرية من السيطرة على الجيش إلى السيطرة على وسائل الانتاج، عندما سلمت الثورة كل قطاع من قطاعات الانتاج والخدمات الى مجموعة من ضباط الثورة الذين رأى عبدالناصر تطهير الجيش منهم لتأمينه من الانقلابات العسكرية، وبذلك - كما يقول الدكتور لويس عوض - يكون عبدالناصر قد طهر جيش مصر من الضباط السياسيين ووقاها شر الانقلابات العسكرية، وأساء إلى الحياة المدنية وإلى ادارة الانتاج المصرى والخدمات المصرية، بفرض العديد من الضباط ناقصى الخبرة محدودى الثقافة على حياتنا المدنية!

وفى الوقت نفسه، وإلى جانب هذه الادارة العاجزة، تفشى الارهاب من القاعدة تحت اسم «الرقابة الشعبية»! فقد كان باسم هذه الرقابة أن كثرت الشكاوى الكيدية فى الرؤساء من فنيين واداريين، واتهامهم بالانحراف

الادارى أو المالى والسياسى، فتتحرك المخابرات العامة وتجرى التحقيقات. وفى بعض الأحيان تلفق القضايا للكوادر العليا فى الانتاج والخدمات!

وكان أبطال هذه المهازل - أو المآسى - وأدواتهما، هم أعضاء لجان الاتحاد الاشتراكى فى مؤسسات القطاع العام وشركاته، ممن اشتغلوا بالاشتراكية اجتباء للمنافع الخاصة وللسيطرة الشخصية فى مواقع عملهم.

وقد نجم عن ذلك ضياع هيبة الرؤساء وسلطتهم فى محاسبة المرءوسين على الاهمال أو الفساد واستغلال النفوذ، وأصبح الطريق ممهدا أمام فاسدى الخلق من الموظفين، فما عليهم الا الاشتغال بالسياسة الثورية، واقامة الجسور بينهم وبين مراكز القوى، عن طريق كتابة التقارير! ليصبحوا الحكام الحقيقيين لبعض المؤسسات والشركات، واكتسبوا ما أسماه الدكتور لويس عوض بـ «قوة الجستابو»! فأصيبت بعض القطاعات بالشلل أو بالفوضى، وانعدام معايير الحساب!

وقال الدكتور لويس عوض إن عبدالناصر، «هذا الضابط المتعجرف الذى وقف يوم الاعتداء عليه فى ميدان المنشية، يهين الشعب المصرى ذا الجهاد المتصل، قائلاً: «أنا علمتكم العزة والكرامة»! عاد فوصف الشعب المصرى فى الميثاق بأنه «المعلم العظيم»! ولكنه وثورته «دمرا بعض أسس المجتمع المصرى الراقية، التى بناها المصريون خلال المئتى سنة الأخيرة، نتيجة احتكاكهم المباشر بالحضارة الأوربية».

وقد عدد الدكتور لويس عوض من هذه الأسس الراقية التى دمرها عبدالناصر ونظامه: مبدأ القومية المصرية، ومبدأ الحق الطبيعى، والحقوق والحريات الديمقراطية مثل: فصل الدين عن الدولة، وفصل السلطات، وسيادة القانون، وسيادة الأمة على الحكومة، وحرية الاجتماع، والتفكير، والتعبير، والعمل، والاختيار، وحرية التنظيم، والتمثيل، والتوكيل السياسى.. الخ.

وهكذا ـ وكما يقول الدكتور لويس عوض ـ زعزعت الناصرية إيمان المصريين بهويتهم المصرية، وبشخصيتهم المصرية، ومحت اسم مصر، ودعت المصريين إلى فقدان أنفسهم فى كيان سياسى أكبر هو كيان الأمة العربية الممتدة من الخليج إلى المحيط! وبعد أن كانت العروبة فى سنتى ١٩٥٣ و١٩٥٤ ـ أيام فلسفة الثورة ـ مجرد دائرة من الدوائر الثلاث التى تقع مصر فى تقاطعها، وتستخدمها رصيدا لقوتها ولقوة المنطقة العربية، أصبحت مصر مركز دائرة واحدة هى دولة الوحدة العربية. كذلك نسفت الناصرية أكثر الحقوق والحريات الديمقراطية، وقبلت من حزب البعث فلسفة القومية العربية، ولم تجعلها دين الدولة الرسمى فحسب، بل جعلتها المصدر الرئيسى للسياسة والتشريع والقيم الفكرية الاجتماعية، وأعطت الدولة حق الزام الناس بها، وحق تلقين الأجيال الجديدة بها، وتنشئتهم عليها كما لو كانت من مقولات الوحى التى لا تناقش!

وبالمثل اضطلعت الثورة الناصرية بحل كافة التنظيمات السياسية، وتحريم كافة التجمعات المنظمة، وتجريم كافة التجمعات غير المنظمة، واقامة حياتنا السياسية على مبدأ تحالف قوى الشعب العاملة داخل وعاء واحد تسيطر عليه الدولة، وهو: هيئة التحرير، فالاتحاد القومى، ثم الاتحاد الاشتراكى.

وفى الوقت نفسه، وكما يقول الدكتور لويس عوض ـ اقتلعت الثورة الناصرية حق الأفراد والجماعات والطبقات فى التفكير السياسى، وحريتها فى العمل السياسى، وبذلك جردت هذه الثورة المصريين من حقوقهم السياسية، وعزلت الشعب المصرى برمته عزلا سياسيا! اللهم إلا من سار فى مسيرتها بالولاء الشخصى.

كذلك ـ كما يقول الدكتور لويس عوض ـ ألغت الثورة الفرق بين الدولة والحكومة، فغدت الدولة هى الحكومة ، والحكومة هى الدولة! كما ألغت

الفرق بين الشعب ووكلائه المعبرين عن إرادته، لأنها جردت الشعب المصرى من حق توكيله لممثليه السياسيين المختارين له من قبل الثورة، وأنكرت التعارض بين مصالح الطبقات!

وفى عهد عبدالناصر، انهارت نظرية القانون نفسها! فتحول القانون من معيار موضوعى واضح يستمد من العرف العام ومن الضمير العام ومن المصلحة العامة، الى قرارات واجراءات فردية تقديرية تتخذ، مستمدة من الظروف الموقوتة والاحتياجات الطارئة! وابتكر سوفسطائيو الثورة نظرية «الفقه الثورى» و«الشرعية الثورية»، ليبرروا هذه الاجراءات والقرارات الاستثنائية، بدلا من أن يبصروا الحاكم بأن الفقه الثورى والشرعية الثورية، معناهما وضع فلسفة تشريعية جديدة، موضوعية المعايير، مستمدة، لامن سلطات الحاكم التقديرية، ولكن من العرف العام والضمير العام والمصلحة العامة للطبقات التى قامت الثورة لترد لها أهليتها القانونية، وللغايات التى قامت الثورة لتحقيقها.

«أما حرية التعبير» ـ كما يقول الدكتور لويس عوض ـ ، فقد أصبحت عبارة بلا معنى فى مختلف دساتير النظام الناصرى، بعد تحريم التنظيمات السياسية وتجريمها، وبعد تأميم الصحافة ودور النشر ومختلف وسائل الاعلام، وتتبيعها: إما للاتحاد القومى ـ الاشتراكى، وإما للسلطة التنفيذية مباشرة (وزارة الإرشاد ـ الإعلام).

«وبتأليه الدولة» ـ كما يقول الدكتور لويس عوض، اندمجت فيها السلطات الثلاث: التنفيذية، والتشريعية، والقضائية، ومعها السلطة الرابعة (الصحافة) وغدت كلها الأذرع الأربع للزعيم الذى تجسدت فيه إرادة الدولة»!

«بل إن وظائف الجيش والبوليس، اختلط بعضها ببعضها الآخر بعد اعلان عضوية الجيش فى تحالف قوى الشعب، لأنه غدا ـ بهذا ـ مسئولا مسئولية رسمية عن حماية النظام الداخلى، لأنه طرف من أطرافه»!

وسخر الدكتور لويس عوض من التوسع المصرى فى البلاد العربية فى عهد عبدالناصر ومن مقارنة عبدالناصر بمحمد على قائلا: «إنك إذا أردت أن تجرب تجربة محمد على، فلابد أن يكون لديك ابراهيم باشا والكولونيل سيف (سليمان باشا الفرنساوى)! أما أن تجرب تجربة محمد على باشا ومعك الصاغ عبدالحكيم عامر، الذى كلما خسر حربا انتقل الى رتبة أعلى!، فهذا أقصر الطرق إلى الكوارث القومية»!

وتساءل: كيف ائتمن عبدالناصر المشير عامر على قيادة الجيوش، وهو لا يستطيع أن يقود كتيبة؟ وقال إنه بعد أن خسر عبدالحكيم عامر معركة الوحدة مع سوريا، كان ينبغى على عبدالناصر أن يقيله، ويجرده من رتبته العسكرية، لا حرصا على الوحدة، ولكن حرصا على هيبة مصر التى أضاعها بغفلته! وبعد أن خسر عبدالحكيم عامر حرب اليمن كان ينبغى أن يفعل فيه عبدالناصر أشياء كثيرة، ولكنه لم يفعل شيئا من هذه الأشياء، حتى خسر عبدالحكيم عامر حرب ١٩٦٧! وعندئذ تحرك عبدالناصر وطلب اليه أن يستقيل، بدلا من أن يحيله إلى المحاكمة العسكرية، لأن مسئولية الهزيمة اقتربت من عبدالناصر شخصيا! وكان لابد من تقديم قربان للشعب الغاضب، ولكن عبدالحكيم عامر رفض الاستقالة وأصر على أن يجر معه عبدالناصر الى الهاوية، ومنطقه: إن كانت هناك مسئولية فكلانا مسئول، وكلانا ينبغى أن ينصرف.

وسخر الدكتور لويس عوض من تبرير محمد حسنين هيكل تمسك عبدالناصر بعبدالحكيم عامر قائدا عاما لجيوشه بأن «عبدالناصر، كان يحب عبدالحكيم عامر، وأن عبدالحكيم عامر، من كل زملاء عبدالناصر كان أحبهم الى قلبه! وتساءل: «وما يهم الشعب المصرى والشعوب العربية إن كان عبدالناصر يحب عبدالحكيم عامر أولا يحبه؟ المهم هو: هل كان عبدالحكيم عامر يصلح لعمله أو لا يصلح؟ ولكن نتائج الحروب الكثيرة التى

خاضتها مصر والتى خسرتها بطريقة مشينة، بسبب الغفلة والارتباك، وربما بسبب الجهل أيضا، تدل على أن عبدالحكيم عامر لم يكن يصلح.

وإذا كان الأمر كذلك فلماذا تمسك عبدالناصر بعبدالحكيم عامر؟ لقد تمسك به لأن المشير لم يكن من أطماعه أن ينازع عبدالناصر مكان الزعامة، لأن الزعامة رهبانية وهو محب للحياة! وكان نظام عبدالناصر بحاجة الى حراسة الجيش سياسيا وعسكريا، وقد أدى عبدالحكيم عامر لعبدالناصر هذه المهمة ووقاه شر الانقلابات العسكرية! ولهذا لم يتخل عبدالناصر عنه، متغاضيا عن أخطائه الكثيرة، وكان عليه أن يدرك أن من يحاول اقتحامات محمد على، ويلوح دائما «بأكبر قوة ضاربة فى الشرق الأوسط»، ينبغى عليه أن يحسن اختيار جنرالاته!

وقال الدكتور لويس عوض إن الأمر لم يتوقف على سوء اختيار عبدالناصر لجنرالاته، بل إن مخابراته العسكرية أيضاً كانت ـ فى مجموعها العام ـ دون المستوى الذى يمكنها من جمع المعلومات الصحيحة عن العدو وتحليلها ـ أو لعلها مشغولة بأمور أخرى! ـ ولذلك قدمت لعبدالناصر صورة مضللة عن الموقف فى القناة سنة ١٩٥٦، وفى سوريا سنة ١٩٦١، وفى اليمن بين ١٩٦٢ و ١٩٦٧، وفى سيناء ١٩٦٧! ـ على غرار ما كان يفعله رؤساء المؤسسات والقطاع العام!

وقد سخر الدكتور لويس عوض من مقارنة عبدالناصر بمحمد على، وحذوه حذو محمد على فى صنع السلاح المصرى، وقال «إن من أراد تجييش الجيوش على نهج محمد على؛ وحذوه حذو محمد على فى صنع السلاح المصرى على أرض مصرية وبأيد مصرية، كان يجب عليه أن يحسن اختيار خبراء صناعة السلاح»، ولكنا سمعنا عن صواريخ الظافر والقاهر، ولم نلمس لها نتيجة! وكان من العجائب أن سمعنا أن المصانع الحربية تنتج أفران البوتاجاز والسخانات وما شابهها من الأدوات المنزلية!

أما خبراء تصنيع السلاح الأجانب، فلعلة ما، كما يقول الدكتور لويس عوض - لم تستعن مصر بدولة من الدول الصديقة العريقة فى تصنيع السلاح، كالسويد وتشيكوسلوفاكيا وايطاليا، وانما اجتذبت حثالة النازيين، الذين تبين فيما بعد أنهم كانوا جواسيس اسرائيل! وكانت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية هى المورد الأول لهؤلاء النازيين! بعد أن حصلت أمريكا وروسيا على خيرة العلماء الألمان ولم يبق لمصر وللعالم الثالث إلا شذاذ الآفاق!

وهاجم الدكتور لويس عوض تبريرات الناصريين لهزيمة يونية ١٩٧٦، قائلا: صوروا «مصرع مصر والناصرية فى ١٩٦٧، كأنه مجرد جريمة من جرائم الاستعمار العالمى بلا زيادة ولا نقصان! وكأننا كنا فيه مجرد ذبيحة بريئة من ذبائح الدول العظمى، لا مسئولية علينا فى شىء مما حدث!».

وشبه الدكتور لويس عوض نظرية التحالف الطبقى بالاكراه التى اتبعها عبدالناصر فى «الاتحاد القومى»، بمنهج الفاشية والنازية، وقال: «إن جيلى الذى عاصر نشأة الفاشية والنازية، يعرف أن أساس الفاشية والنازية هو نظرية الاتحاد القومى بين طبقات المجتمع الواحد لتصفية الصراع الطبقى الداخلى ، واسقاط التناقضات الطبقية فى الخارج، وهى من أصل كلمة «الفاسكيس» اللاتينية، بمعنى عصبة العصى التى يصعب تحطيمها - وقال إن هذا ما عمله موسولينى للشعب الإيطالى، وهتلر للشعب الألمانى، كرد على نظرية الطبقات، وهو ما فعله عبدالناصر!

رسالة مصطفى أمين إلى عبدالناصر

الوفد فى ٧/٤/١٩٩٧

فى مقالاتى السابقة عن انتهاك عبدالناصر لحقوق الإنسان، تعمدت أن أروى تجربة اليسار مع عبدالناصر، لأنها هى التجربة الوحيدة التى لا يستطيع حملة قميص عبدالناصر إنكارها، بحكم التحالف بينهم وبين اليساريين، الذى نسى فيه اليساريون ما لاقوه على يد عبدالناصر مما لم يشهده تاريخ التعذيب على مر العصور، لأنه كان تعذيبا بدون أى هدف أو غاية يراد تحقيقها، وانما كان ـ كما كتب الدكتور رفعت السعيد ـ تعذيبا للتعذيب!

على أنه منذ أيام، وبمناسبة مرض الأستاذ مصطفى أمين، رأت جريدة الناصريين إهداءه باقة ورد ممثلة فى محاكمته أيام عبدالناصر بتهمة الجاسوسية ! وظنت الجريدة الساذجة أن شعبنا فى أيام مبارك مازال يعيش فى أيام الحكم الدكتاتورى لعبدالناصر! أوأنه سوف يصدق تلك «الفبركة» الدموية التى لفقها نظام عبدالناصر لمصطفى أمين! ولكن شعبنا ضحك لما فعلته الجريدة، فما زال مصطفى أمين يكتب كقلم من الأقلام الشريفة التى

تدافع عن الحرية والديمقراطية فى بلدنا، مرتفعا فوق التهمة التى لفقها نظام عبدالناصر.

على إنه كان من واجب الصحيفة، مادام أنها أثارت هذه القضية، أن تستكملها برواية ما ارتكبه النظام الناصرى من جرائم فى حقوق الانسان فى هذه القضية، وما وفره لمصطفى أمين من حقوق الدفاع عن النفس على أساس أن المتهم برىء حتى تثبت إدانته أمام محاكمة عادلة، ولكن الجريدة لسوء حظها أهملت هذا الجانب، الأمر الذى يمنحنى الفرصة كاملة، لتعريف القارئ الكريم بهذا الجانب، نقلا عن رسالة أرسلها مصطفى أمين لعبدالناصر من سجن الاستئناف يوم ٦ ديسمبر ١٩٦٥، ترسم صورة كاملة لطريقة ثورة يوليو فى احترام حقوق الانسان! وأرجو من القارئ أن يحبس أنفاسه وهو يقرأ رسالة مصطفى أمين لعبدالناصر، مع قبول اعتذارى لما فيها من اختصار غير مخل. تقول الرسالة:

«قبض علىّ يوم ٢١ يوليو (١٩٦٥)، ووضعوا فى يدى الحديد! وحملونى فى سيارة من الاسكندرية إلى القاهرة، ووضعوا على عينى عصابة سوداء! وأدخلونى على صلاح نصر، فقال لى: إن الرئيس هو الذى أمر بالقبض عليك لاتصالك بالأمريكى أوديل!

«قلت له: إن اتصالى بأوديل لم يكن سرا عليك! وأنت تسألنى من شهور عن أسماء الامريكين الذين أجتمع بهم من موظفى السفارة، فذكرت لك أسماءهم جميعاً، وفى مقدمتهم أوديل. وطلبت منى أن أسأله عن بعض معلومات عن موقف أمريكا من مصر، وجئت فى مكتبك هنا، وأبلغتك بما قاله.

«ثم أخذونى إلى زنزانة فى سجن المخابرات، ونزعوا ثيابى، وأصبحت عاريا تماما! ووجهوا الى مصابيح كشافة كادت تعمى عينى! وراحوا يضربوننى، وصلبونى على الحائط، وثبتوا كل يد فى قيد من الحديد بأعلى الجدار، ثم راحوا يرفسوننى!

«وتقدموا، ونزعوا بأيديهم شعر العانة!، واستأنفوا الضرب، والصفع، والرفس بالأيدى وبالأقدام وبالعصى!

«ثم فكوا القيد من يدى، وربطوا جهازى التناسلى بسلك، وجذبونى منه! وداروا بى حول الغرف عدة مرات! ففقد بصرى الرؤية، وتحولت وجوه الزبانية إلى أشباح! ثم سقطت مغشيا على.

«وأيقظونى، وبدءوا يضربوننى من جديد، ويشدون شعر بطنى وعانتى! وكان العذاب مريعا، قاسيا، ومع ذلك تحملته. ولكننى لم أحتمل عندما شتموا أمى وقالوا إنها «شرموطة»! عندئذ بكيت.

«ولم يشفقوا على حالتى المرضية، ولم يشفقوا على سنى، ولم يشفقوا على دموعى، واستمروا فى إهاناتهم، وفى ضربهم وركلهم!

«ولم يكن التعذيب يوما واحدا، لقد استمر أيام يوليو العشرة، والى أواخر أغسطس. كل يوم أعرى، وأضرب، وأصلب، وأتلقى الاهانات والعذاب!

«وقال لى الزبانية أثناء التعذيب: إننى كنت أبلغك (عبدالناصر) بأخبار المخابرات، ورجال المشير الخاصة، وبعض مسائل خاصة عن حياة المشير الخاصة. فأقسمت لهم أننى لم أفعل ذلك. ولكنهم لم يصدقوا، وأصروا على أن معلوماتهم تؤكد ذلك، وهددونى بأن صلاح نصر سيقتلنى بسم لا يمكن أن يكتشفه أى طبيب شرعى فى العالم!

«وأخذنى حمزة البسيونى الى السجن الحربى، وأدخلونى غُرفة تعذيب سوداء، بلا نوافذ، وأطلقوا على عددا من الكلاب البوليسية الهائجة، كانت تهجم على وتمزق ملابسى، وتركونى تحت رحمة الكلاب.

«ودخل حمزة البسيونى، وقال إنه سيدفننى بالحياة هناك، وإنه دفن بنفسه عشرات من الأحياء! وقال إنه سيقتلنى فى السجن الحربى ويقول إننى هربت!

«ويخرج حمزة البسيونى، وتدخل الكلاب! وتتكرر عملية التعذيب!

«ثم يدخل عملاق يرتدى ملابس الجلاد، يدور حولى وكأنه يعايننى قبل تنفيذ حكم الإعدام!

«ونقلونى من السجن الحربى فى سيارة، معصوب العينين، الى بناء المخابرات، حيث بدأ الجحيم من جديد: جردونى من ملابسى، وصلبونى، وضربونى. كانوا يتفننون فى وسائل التعذيب!

«وأحضروا ثلاثة حراس يلازموننى بالنهار، وثلاثة حراس يلازموننى بالليل، مهمتهم أن يمنعونى أن أنام أو أغمض عينى، فاذا أغمضت عينى دفعونى بقبضات مسدساتهم حتى لا أنام!

«عدة ليال لم أذق فيها طعم النوم، عدة أيام حرمت فيها من الطعام، وعدة أيام فى شهر يوليو وشهر أغسطس لم أذق فيها الماء! واضطررت أن أشرب من البول، واضطررت أن أشرب من ماء التواليت من شدة العطش! وكانوا يجيئون بكوب ماء مثلجة، ويضعونه على المائدة أمامى، فاذا قدمت يدى لأتناول الكوب، ألقاه الضابط على الأرض!

«فاذا انكفأت على الأرض أشرب الماء، ضربونى ومنعونى من الشرب، أو رفسونى حتى أسقط مغمى على!

«ولم يكن اهتمامهم بالقضية أو التحقيق! كل ما كان يهمهم المسائل النسائية: سؤال عن نساء معينات! سؤال عن سيدة معينة! وهل كان بينى وبينها علاقة؟ وهل قالت إن بينها وبين شخصية كبيرة فى الدولة علاقة؟ وهل أخبرت الرئيس بما سمعته عن هذه العلاقة، أو علاقات غرامية أخرى للشخصية الكبيرة؟ ساعات طويلة، وأحاديثهم عن الجنس! وعن أنواع النساء! وعن مسائل لا يجوز أن يتحدث فيها رجل محترم.

«ولكننى كنت أذهل من اهتمام هذه الأجهزة بمثل هذه المسائل القذرة، وبكل تفاصيلها! وعندما أرفض أن أتحدث فى مثل هذه المسائل القذرة يتهموني بأننى غير متعاون! ويهددونى بالتعذيب لأننى لا أريد أن أقول لهم إسم أدوية يتوهمون أننى أستعملها فى العلاقات الجنسية!

«وقد قال لى أحد الزبانية مرة: اننى سأحضر الى هنا سكرتيرتك، وبناتك وسأترك العساكر يعتدون عليهن أمام عينيك.

«وفعلا أحضروا سكرتيرتى فى الليل، الى غرفة بجوار الغرفة التى كنت بها، وجعلونى أسمع بأذنى صراخها، وسمعتهم يهددونها بإحضار بناتها والاعتداء عليهن أمامها!

«وكنت أسمع طول الليل أصوات أطفال يضربون بالسياط، ويبكون ويتأوهون ويصرخون! ثم أسمع أصوات استغاثة من الزنزانات، وبكاء، وسياط تضرب، وعصى تحطم الظهور!

«فاذا توسلت إليهم أن ينقذونى من هذه الأصوات، قالوا لى إنك فقدت عقلك! وإنه لا توجد أصوات! وإنك تتخيل أشياء لا وجود لها! ثم جاءوا بمن يشهدون على أنه لا يوجد أى أصوات!

«ثم بعد ذلك يستأنفون إخراج هذه الأصوات المرعبة التى تحطم الأعصاب!

«لم أتحمل كل هذا التعذيب، وتوسلت إلى أحد الزبانية أن يعطينى مسدسا أقتل به نفسى! ولكنهم لم يرحمونى، واستمر التعذيب كل يوم، ولم أعد أعرف متى يبدأ ومتى ينتهى، وكنت أفزع كلما سمعت صوت أقدام تقترب من زنزانتى، كان معنى اقتراب الأقدام أن الزبانية جاءوا ليأخذونى ويصلبونى من جديد!

«واصطحبونى الى غرفة التعذيب، وشاهدت بنفسى عملية تعذيب مفجعة لأشخاص لا أعرفهم. وجاء أحد الزبانية، وقال لى : إن هناك سبع عمليات للتعذيب! وإن كل ما تعرضت له هو العملية الأولى! وهددنى بأننى اذا لم أكتب ما يريدون، فانى سأمر على العمليات السبع كلها!

«وجاءت النيابة، واستمر التعذيب! كانوا يضربوننى قبل التحقيق وبعد التحقيق! بل ويحدث أحيانا أن يأخذونى أثناء التحقيق إلى غرفة مجاورة ويضربونى، ثم يعيدونى لاستئناف التحقيق!

والغريب أننى لم أستطع أن أنفرد بوكيل النيابة لحظة واحدة! كان ثلاثة من ضباط المخابرات يحضرون كل تحقيق، وكانوا يجلسون أمامى وورائى، فاذا لم يعجبهم كلامى زغدونى! وأشاروا لى! أو سحبونى خارج الغرفة وضربونى، وأعادوا التحقيق!

«وفى نهاية التحقيق، أحضروا أشرطة قالوا إنها بصوتى! وعرفت على الفور أنها ملفقة، فقد قاموا بعملية مونتاج، فغيروا وبدلوا وعكسوا ونقلوا وحذفوا! وعلى الفور اكتشفت عملية التزييف، وشاء الله أن تظهر حقائق واضحة تثبت التزييف، وأردت أن أظهر هذه الأدلة، فأخذونى وضربونى وعلقونى من جديد، ومنعوا عنى الطعام، ومنعونى من النوم، ومن شرب الماء والتدخين!

«وكان الزبانية يهددوننى ويقولون لى: لو فتحت فمك عن التعذيب فى المحكمة، أو أمام أى أحد، فسنقتلك، وسنصدر قانونا يمنع المحامى أن يذكر أن هناك تعذيبا يسمح بالطعن فى الأدلة التى نقدمها.

«وكنت أنتقل ذهابا وإيابا بين غرفة مريحة فيها سرير وطعام وماء، وغرفة تعذيب أعلق فيها على الحائط! فاذا كتبت ما يريدون فإننى أستطيع

أن أنام على سرير، وأن آكل، وأن أشرب الماء، وإذا رفضت أن أكتب ما يريدون، بدأت عملية التعذيب من جديد!

«إننى أعرف أن أعضاء هذه العصابة أقوياء، وأعرف أنهم استطاعوا أن يحطمونى، وأن يلوثونى، وأن يلفقوا لى هذه القضية، وأن يدوسونى بأقدامهم، وأن يمنعونى من أن أرفع صوتى للدفاع عن نفسى، ولكنى أعرف أن الله أكبر منهم جميعا.

«المهم أن تعلم ياسيادة الرئيس أن هذا الجهاز هو جهاز فاسد، وأنه ملىء بالجرائم، وأنه يلفق التهم، وأنه يعمل لتضليلك وخداعك والكذب عليك، وأنه يخفى عنك الحقائق، وأن مهمته أن يلوث كل من يتصور أنه سيقول لك فى يوم من الأيام حقيقة الفساد.

«أننى اخترت من تثق به ليسلمك هذا الخطاب، راجيا أن تحقق بنفسك، لا لتنقذنى، فقد يكون الوقت قد فات، ولكن لكى تنقذ مصر والمصريين من هذه العصابة»!

«انتهت رسالة مصطفى أمين إلى عبدالناصر، والمفارقة فيها أنه يشكو العصابة لرئيس العصابة! وأنه يتصور أن عبدالناصر كان غافلا عما يفعل الظالمون! مع أنه كان رأس النظام الفاشى الذى أرسى هذه القواعد، وجند لها الزبانية المؤهلين لتطبيقها، وقام بتعيينهم، وحمايتهم من تدخل القانون!

ولكن المزعج أن هؤلاء الزبانية مازلوا يعيشون بيننا إلى اليوم! ولهم صحفهم، ودعاتهم وأقلامهم، وهم يضللون شبابنا، ويخرجون الأفلام التى تمجد عبدالناصر وتظهره فى صورة المناضل العظيم، ويخفون الجانب المظلم من نظامه الفاشى الذى امتهن كرامة مفكرى مصر وصحفييها وسياسييها من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، فلم يترك واحدا منهم الا

بعد أن ترك بصمته على ظهره بسياط زبانيته، وبعث الرعب المزمن فى قلوبهم، حتى إنهم حتى اليوم يسبحون بحمد النظام الذى أذلهم وبث فى قلوبهم الرعب!

ولكن التاريخ لا ينسى، وهو ما نحاول أن نثبته فى هذه الدراسة التاريخية!

وفى عهد عبدالناصر تحسر الشيوعيون على أيام إسماعيل صدقى !

الوفد فى ١٤/٤/١٩٩٧

«من سجن مصر، إلى ليمان طره، إلى تخشيبة الوايلى. الى معتقل القلعة، إلى سجن الواحات الخارجة، إلى ليمان أبوزعبل، إلى تخشيبة مصر الجديدة، إلى سجن الإستئناف، إلى تخشيبة السيدة زينب، إلى سجن المحاريق إلى سجن القناطر الخيرية»!

هذه هى رحلة يسارى مصرى فى العصر الرشيد.. عصر الكرامة لعبدالناصر! على مدى اثنى عشر عاما كاملة، نهديها إلى اليسار المصرى المتحالف اليوم مع الناصريين، فيما أسميته تحالف المجلودين مع الجلادين!

أما هذا اليسارى المصرى فهو مصطفى طيبة، الذى سجل ذكرياته عن سنوات السجن والاعتقال والعذاب وفقدان الآدمية فى كتاب من جزئين تحت عنوان: «رسائل سياسى إلى حبيبته» صدر عام ١٩٨٠، ونهديها الى الناصريين الذين كرسوا جريدتهم «العربى» للدفاع عن حقوق الانسان فى

عهد مبارك، وهم أبعد بتاريخهم الأسود عن التصدى لهذه القضية التى تنكروا لها طوال عصر عبدالناصر، فامتهنت حقوق الانسان فى هذا العصر كما لم تمتهن فى أى عصر من عصور مصر، وقضى المناضلون حياتهم فى سجون ومعتقلات عبدالناصر بدون محاكمات وبدون أحكام، وانما فقط بأوامر الزعيم الفاشى الكبير!

لقد عاش اليساريون فى عهود الوفد الليبرالية يحكمهم القانون الذى يطبق عليهم كما يطبق على جميع القوى السياسية. وحتى عندما كانت مؤامرات القصر تفلح فى إبعاد الوفد عن الحكم، ويفرض القصر دكتاتوريته وسيطرته على الحياة السياسية فى مصر، كانت هناك حدود لهذه الدكتاتورية وتلك السيطرة! فقد كان هناك نظام له ملامح مميزة، وكان هناك قانون! وقد يكون هذا القانون هو قانون اسماعيل صدقى، ولكنه قانون يعرف فيه كل منهم حقوقه وواجباته!

ولدينا فى توضيح هذه الحقائق رواية مصطفى أمين عن عهود الوفد، ورواية مصطفى طيبة الذى شاء حظه أن يدخل السجن فى عهد الملكية المستبدة فى الأيام السابقة على ثورة يوليو، ويستمر فى السجن بعد الثورة، ويعقد المقارنة بين العهدين: أى بين عهد الملكية المستبدة التى كان يحكم بقانون اسماعيل صدقى، وعهد عبدالناصر الذى غاب فيه القانون!

إن هذه المقارنة التاريخية مهمة فى تأكيد الصورة الفاشية لعبدالناصر، وهى جديرة بأن يعرفها القراء والجيل الجديد الذى يضلله الناصريون بشعارات هم أبعد ما يكونون عن تطبيقها، وهم آخر من يتجرأ من البشر على المناداة بها!

ورواية مصطفى أمين عن عهود الوفد كتبها أثناء تجربته الدامية فى سجون عبدالناصر، وتمضى على النحو الآتى:

«عرفت وانا فى سجن المخابرات أن مصطفى النحاس توفى الى رحمة الله، وحزنت كثيرا عليه، وأسفت أننى لا أستطيع أن أكتب رثاء له. لقد أحببت هذا الرجل وحاربته، وسجنت من أجله، وفصلت من المدارس من أجله، واختلفت معه فى الرأى وهاجمته وهو رئيس حكومة، فلم يفكر فى أن يضعنى فى السجن!

«ولو كنت كتبت اليوم عن سكرتير أحد الوزراء ما كتبت عن رئيس الحكومة مصطفى النحاس، لشنقونى، أو أعدمونى رميا بالرصاص!

«ولقد قبض على فى عهد النحاس سنة ١٩٥١ ستا وعشرين مرة، ولكنى كنت أدفع كفالة، وأخرج من السجن! ولم يفكر النحاس فى أن يدبر لى تهمة، أو يحاكمنى على جريمة أنا برىء منها!

«من حق النحاس على أن اشيد به وأنا مسجون، وأن أذكره كرجل قاد كفاح هذه الأمة، وضحى فى سبيلها، ونفى من أجلها، وحمل الزعامة بعد سعد زغلول. وحزنت أن الصحف لم تخصص الصفحات للحديث عن تاريخ هذا الرجل وأمجاده التى هى تاريخ شعب مصر وأمجاد شعب مصر.

«وشعرت أن الزبانية هنا فزعوا من خروج الشعب كله لتحية الزعيم الكبير الراحل، واعتبروا هذه الجنازة الشعبية الهائلة ثورة على النظام، وانقضاضا على الحكم! وقال لى أحدهم. إن الأمر صدر بالقبض على كل من سار فى المظاهرة! قلت له ساخرا: هل ستقبضون على ثلاثة ملايين؟ إن السجون والمعتقلات مزدحمة ولا يوجد فيها أماكن خالية! قال لى ساخرا: هل كنت ستشترك فى تشييع الجنازة؟ قلت: لولا أنى مسجون لسرت فى الجنازة! قال ضاحكا: وكنا قبضنا عليك!

«ثم ذكر لى الزبانية أشياء أذهلتنى! قالوا إن الأوامر صدرت بالقبض على مئات الوفديين المعروفين، بتهمه أنهم مشوا فى الجنازة! ولم أكن أعلم أن الوفاء أصبح جريمة فى هذا البلد»!

كانت هذه هى رواية مصطفى أمين عن عهود الوفد. أما رواية مصطفى طيبة، التى يتحسر فيها على قانون اسماعيل صدقى الذى صدر أثناء حكم القصر! فقد رواها من واقع اعتقاله فى عهد فاروق يوم ١٨ يوليو ١٩٥٢، قبل قيام ثورة يوليو بخمسة أيام فقط، وفى أثناء فرض الأحكام العرفية بعد حريق القاهرة، بتهمة «تأسيس وادارة تنظيم الحزب الشيوعى المصرى»، واستمر اعتقاله بعد قيام الثورة لمدة إثنى عشر عاما! بتهمة قلب نظام الحكم!

فيسجل أنه عندما كان التحقيق يجرى معه فى ظل الأحكام العرفية قبل الثورة، حين بدأ رئيس النيابة العسكرية التحقيق معه، وكان القيد الحديدى فى معصمه، طلب منه فك قيده الحديدى «احتراما للسلطة القضائية»! فاذا بالرجل يختلط فى وجهه الغضب بحمرة الخجل ليكسو وجهه بلون غريب جسد كل ما يعانيه الرجل من مذلة ومهانة»! وكانت هذه الملحوظة كافية لفك القيد الحديدى!

وعندما قامت الثورة ظن مصطفى طيبة أنه سوف يفرج عنه، حيث أكد المحامون له أن النيابة لا تملك دليلا واحدا ضده. كما جاءت تصريحات الثورة، فى شهر أغسطس بأن كل المسجونين السياسيين الذى اعتقلوا قبل ٢٣ يونيو، سوف يفرج عنهم فوراً - لتؤكد هذا الشعور.

على أنه ظل فى السجن! ثم صدر قانون يعطى الحق للذين يرون أنهم سياسيون ولم يفرج عنهم، بتقديم تظلمات أمام محكمة خاصة شكلت لهذا الغرض. «فتقدمنا بتظلمات، وبعد عدد من الجلسات أصدرت المحكمة حكما برفض تظلماتنا! وقالت فى حيثيات الحكم إن الشيوعيين ليسوا سياسيين! وإنما هم اقتصاديون! وأنهم يصبحون سياسيين فى حالة واحدة فقط، هى حالة استيلائهم على السلطة»!

ويقول مصطفى طيبة إنه، قبل نظر قضية التظلمات السياسية، كان قرار الاتهام قد وصله، فوجد نفسه هو وزميله مصطفى كمال خليل، اللذين اعتقلا قبل ٢٣ يوليو فى قرار واحد، مع ٢١ آخرين قبضت عليهم ثورة يوليو، فى قرار واحد، وكان الاتهام الموجه للجميع هو محاولة قلب نظام الحكم!

أى اثنان متهمان بقلب نظام الحكم الملكى، والباقون متهمون بقلب نظام ثورة يوليو! فلقد تولت ثورة يوليو مهام نظام الحكم الملكى فى البطش بالشعب، ولكن بطريقة أكثر كفاءة! فأخذت توجه ضرباتها الى الوفد، وفى الوقت نفسه أخذت توجه ضرباتها للقوى الوطنية التقدمية، فاعتقلت الوفديين والشيوعيين، ثم وجهت ضرباتها الى الطبقة العاملة، فأعدمت خميس والبقرى وأدخلت الحركة النقابية الشقوق!

ونظرا لعلاقتها بالولايات المتحدة الأمريكية، فانها أولت الشيوعيين عناية خاصة تضاءلت الى جوارها عناية اسماعيل صدقى والنظام الملكى! فعلى حد قول مصطفى طيبة:

«بعد أيام من رفض تظلماتنا، سحبت قضيتنا من أمام محكمة الجنايات العسكرية (وأعضاؤها مستشارون) كى ينظرها «مجلس عسكرى» (أعضاؤه عسكريون) ! وبرئاسة القائمقام أحمد شوقى عبدالرحمن، نائب أحكام عسكرى، وباجراءات مجلس عسكرى!

كانت هذه أول قضية شيوعية شكل لها مجلس عسكرى خاص، الأمر الذى يوضح الفرق بين الحكم الملكى فى أسوأ عهوده تحت الأحكام العرفية، وثورة يوليو الفاشية! ويقول مصطفى طيبة إنه فى ذلك الحين نشرت روز اليوسف خبرا يقول بأن الدوائر الأميريكية ارتاحت لتشكيل مجلس عسكرى لمحاكمة الشيوعيين!

وقـد كـان على أثر ذلك أن ثار السـؤال: بأى قـانون سـوف يحـاكم الشيوعيون؟ وعلى حد قول مصطفى طيبة:

« ظللنا أياما قبل بدء المحـاكـمة نسأل: بأى قانون سوف نحاكم؟ هل بقانون صدقى، الذى أقصى عقوبة فيه هى ١٠ سنوات أشغال شاقة؟ أو بقانون محاكم الثورة، والذى تصل أحكامه الى الاعدام؟

« وأصبح قـانون صـدقى الذى صـدر عـام ١٩٤٦ - وهو قـانون غـيـر دستورى لأنه صدر فى غيبة البرلمان - حلما نتمناه!»

ويصور مصطفى طيبة الفوضى التى سادت فى ذلك الحين بعد غياب القانون، فيقول:« مضت أيام لم تصلنا أى اجابة على هذا السؤال! حتى المحامين الذين وكلوا للدفاع عنا لم يعرفوا إجابة على هذا السؤال! أكثر من ذلك، لم نكن نعرف، ولا المحامون يعرفون: أين سنحاكم؟

هل فى إحدى قاعات المحاكم الجنائية، أو أحد معسكرات الجيش؟ ووصلتنا إشاعات تقول بأن النية متجهة الى محاكمات سريعة فى أحد معسكرات الجيش، واصدار عدد من الأحكام بالاعدام، وتنفيذها فورا رميا بالرصاص!

على هذا النحو أصبح الحكم الملكى - فى أسوأ عهوده تحت الأحكام العرفية - أملا بعيد المنال للشيوعيين بعد وقوع البلاد فى الفوضى التى أحدثتها ثورة يوليو الفاشية، ويقول مصطفى طيبة: « هكذا عشنا أكثر من عشرة أيام نهبا للاشاعات والأخبار المتضاربة، ولم نعرف موعد المحاكمة ومكانها الا فى صباح نفس اليوم الذى خرجنا فيه للمحاكمة! ولم نعرف وفق أى قانون سنحاكم الا من نائب الأحكام البكباشي حسن سرى قبل أن تبدأ أول جلسة للمحاكمة!

كان شبح محاكمة خميس والبقرى وما قضت به من إعدامهما مخيما على مصطفى طيبة وزملائه، ولذلك حين حملتهم سيارات السجن وسط المدافع وفى أيديهم القيود الحديدية الى مكان المحاكمة، كانوا يظنون أنهم متجهين إلى إحدى معسكرات الجيش، «نحاكم هناك زى خميس والبقرى»! فلما علموا من مأمور الحرس أنهم متجهون إلى محكمة الإستئناف بباب الخلق، صاح الجميع فرحا! فقد كان ذلك يعنى الافلات من مصير خميس والبقرى!

ولكن اليأس كان مخيما على المحامين التقدميين، لدرجة أنهم تنحوا عن الدفاع تحت الاعتقاد بأن «الأحكام صادرة بالفعل من قبل المحاكمة»، ولا أمل فى أى دفاع.

وفى ذلك يقول مصطفى طيبة: «جاء عدد كبير من المحامين التقدميين والوطنيين. كان من التقدميين أسماء لامعة، ولمعت أكثر فى الستينيات، وكنت أعرفهم جميها، للأسف كان موقفهم مخزيا: واحد منهم تنحى عن الدفاع عنى. وآخرون تنحوا أيضاً. ولما سألت عن السبب قالوا:

«أصل مافيش فايدة. الأحكام صادرة.. صادرة»!

«الذين دافعوا عنا كانوا متطوعين من بين الوفديين: سليمان غنام، وأحمد الحضرى، ومن بين رجال المحاماة البارزين، موريس أرقش، وعادل أمين وغيرهم. وجاءنى الدكتور مدحت فى قفص الاتهام يطلب منى - فى شبه رجاء - أن أقبل انتدابه للدفاع عنى مع الأستاذ سليمان غنام»!

عندما انتهت المحاكمة بالقبض على القاضى والمحامى!!

الوفد فى ٢١/٤/١٩٩٦

لعل كلام المناضل اليسارى مصطفى طيبة الذى نشرناه فى المقال السابق، الذى أبدى فيه تحسره على أيام اسماعيل صدقى، يمثل قمة المأساة التى عاشها اليساريون فى عصر عبد الناصر! وهو العصر الذى يدافعون عنه اليوم بغير عذر مقبول، مما أعطى البعض من كبار الكتاب الإيحاء بأن عصر عبد الناصر كان عصرا شيوعيا، مستندين فى ذلك إلى تأميمه وسائل الإنتاج فى يولية ١٩٦١! على أن الدكتور لويس عوض نبه إلى أن تأميم وسائل الانتاج لا يعنى الشيوعية، وبرر ذلك بأن عبد الناصر سوف يدخل التاريخ بانجازين هما: تصفية الشيوعية، وتصفية الديموقراطية، وهذان الإنجازان يضعانه تاريخيا فى سلك الاشتراكية الوطنية، أى النازية!

وقد وصف مصطفى طيبة الفوضى واليأس الذى انتاب المحامين اليساريين حتى إنهم تنحوا عن الدفاع على أساس اقتناعهم بأن «الأحكام صادرة.. صادرة من قبل المحاكمة، ومافيش فايدة»، ولكن المحامين الوفديين تصدوا للدفاع عن الشيوعيين، وكانت ثقتهم فى البراءة كبيرة،

فقد كانوا واقعين فى وهم أن هناك قانونا سوف تحترمه ثورة يوليو! ولسبب آخر أسريه أحد المحامين لمصطفى طيبة، فقد قال له: أنت براءتك مائة فى المائة ! وعندما استفسر منه مصطفى طيبة عن السبب، قال له: إن التهمة الموجهة إليك هى قلب نظام الحكم الملكى، وها هم الضباط قد قلبوا نظام الحكم الملكى الذى أنت متهم بمحاولة قلبه، ومن ثم فإما أن تطلع أنت براءة، وإما أن يدخل ضباط يوليو السجن معك!

على أن الأمور لم تكن بهذه البساطة، لأنها كانت تتطلب وجود حد أدنى من النظام والقانون، ولم يكن شىء من ذلك متوافرا، لأن مصطفى طيبة لم يلبث أن عرف أن القاضى الذى أخذ فى محاكمته قدقبض عليه، بل قبض أيضاً على المحامى الذى كان يدافع عنه! وبذلك أصبح القاضى والمحامى والمتهم فى السجن فى ذلك العهد «المجيد»!

وتمضى رواية مصطفى طيبة المثيرة على النحو الآتى:

«قال لى الأستاذ سليمان غنام رحمه الله: «موقفك فى القضية سليم جدا. لو طبق القانون فالحكم بالنسبة لك سيكون براءة! قلت ضاحكا: هل السبب هو المنطق؟ قال ضاحكا: أنا باقول: القانون، مش المنطق! قلت: ياأستاذ غنام، أنت موكل للدفاع عن الديموقراطية والحريات السياسية، وكل ما نريده هو أن يسمع الرأى العام دفاعك عن الحرية!

«وصاح الحاجب: محكمة! ودخل القائمقام أحمد شوقى عبد الرحمن رئيس المحكمة، وضابطان برتبة صاغ، وبعدهما دخل حسن سرى نائب الأحكام، ثم على نور الدين المدعى.

«وتقدم المحامون: سليمان غنام، وأحمد الحضرى، وموريس أرقش، وعادل أمين يطلبون تأجيل المحاكمة حتى ينظر مجلس الدولة فى المذكرة

التى تقدموا بها يطعنون فى دستورية تشكيل المجلس العسكرى. ورفعت الجلسة للمداولة.

«وانعقدت المحكمة بعد نصف ساعة، وأعلن الرئيس قرار المحكمة الاستمرار فى نظر القضية المعروضة حتى يصدر مجلس الدولة قراره بشأن اعتراض الدفاع على تشكيلها».

«وعلى هذا النحو استؤنفت المحاكمة، جلسات صباحية ومسائية، واستمرت شهرين كاملين».

«على أنه قبل أن تصل إجراءات المحاكمة إلى نهايتها بأيام، قبض على القائمقام أحمد شوقى عبد الرحمن رئيس المحكمة، وعلى المرحوم الأستاذ سليمان غنام! وهكذا انتهت المحاكمة بالقبض على رئيس المحكمة وعلى المحامى الذى يدافع عنى»!

ويفسر مصطفى طيبة القبض على القاضى بالآتى: «الحقيقة كنا غير قادرين على تفسير موقف أحمد شوقى عبد الرحمن! كان يهتم إهتماما ملحوظا بكل الجوانب القانونية، وكان يصر على علنية الجلسات رغم طلب المدعى مرارا بعقد الجلسات سرية، كما كان يطالب بنشر ما يدور بالمحاكمة فى الصحف. وبالطبع لم تكن الصحف تنشر شيئاً فيما عدا جريدة «المصرى» التى كانت تتحايل على نشر بعض ما يدور فى جلسات المحاكمة. وكان القائمقام أحمد شوقى عبد الرحمن يثبت فى محضر الجلسات أن الصحف عليها أن تنشر، ليكون الرأى العام رقيبا على ما يدور، وكان يطلب يوميا من نائب الأحكام الاتصال بالصحف ويطلب منها النشر، وكثيرا ما لام مندوبى الصحافة الذين يحضرون الجلسات»!

ومعنى هذا الكلام أن القائمقام أحمد شوقى كان مهتما بإقامة العدل وتطبيق حكم القانون! وفى الحقيقة أنه لا يحتسب على ثوار يوليو، فعلى

الرغم من أنه كان أكبر المشتركين فى ثورة يوليو رتبة بعد اللواء محمد نجيب، وكان قائد الكتيبة ١٣ مشاة التى قامت بحماية مدخل العباسية من ناحية كلية البوليس، واحتلت رئاسة الحدود، فإنه كان ديموقراطى النزعة، وكان من مؤيدى اللواء محمد نجيب، وبعد إنتهاء أزمة مارس بانتصار عبد الناصر، حوكم أمام محكمة الثورة وصدر عليه الحكم بالسجن لعشر سنوات!

والمهم هو أنه بعد القبض على القاضى والمحامى أعيد مصطفى طيبة إلى سجن مصر فى انتظار محاكمة جديدة أمام مجلس عسكرى جديد برئاسة اللواء فؤاد الدجوى فى أكتوبر ١٩٥٤ . وكان اعتقاد الجميع أن المحاكمة الجديدة سوف تبدأ من حيث انتهت المحاكمة الأولى، على نحو ما يحدث فى المحاكم الجنائية، ولكنها بدأت باجراءات جديدة بعد أن ألغى المجلس الجديد إجراءات المجلس السابق!

وفى ذلك يقول مصطفى طيبة: «هذا النوع من المحاكمات، لا يقدم ضمانات: لا للقاضى، ولاللمحامى، ولا للمتهم! وتساءل المتهمون: أين القاضى السابق القائمقام أحمد شوقى عبد الرحمن؟ وتساءل مصطفى طيبة: أين الأستاذ سليمان غنام؟ ويتقدم محام من مكتب الأستاذ غنام، ويقول: الأستاذ سليمان غنام قبض عليه، وهو يطلب السماح بحضوره للدفاع عن المتهم! وتقرر المحكمة إنتداب محام آخر، ويصرخ مصطفى طيبة: أنا أرفض أى محام تنتدبه المحكمة، ومصر على الأستاذ غنام!

ويعترض المتهمون الثلاث والعشرون على تشكيل المجلس العسكرى من حيث الشكل والموضوع، وتواجه الثورة ذلك باطلاق إشاعات مرعبة بأن القضية ستحول إلى محكمة الثورة، الأمر الذى يعنى الإعدام! ويقول مصطفى طيبة: «أزعجتنا هذه الشائعات، فبقانون اسماعيل صدقى غير الدستورى فإن أقصى عقوبة ينص عليها هى عشرة أعوام أشغال شاقة، بينما قانون محكمة الثورة يصل إلى الاعدام!

وتستمر المحاكمات عدة جلسات، ويعلن الدجوى إنتهاء المحاكمة فى النصف الثانى من نوفمبر ١٩٥٣، وفى يوم ١٢ يناير ١٩٥٤ تعلن الأحكام بشكل درامى على النحو الذى يرويه مصطفى طيبة على النحو الآتى:

«فى يوم ١٢ يناير ١٩٥٤ أعلنت حالة الطوارىء فى السجن كله، وفى كل المنطقة المحيطة به، لسبب لم نعرفه ولم يعرفه أحد أيضاً إلا بعد أن وقف ٢٣ زميلا فى طابور ليتلو ضابط كبير فى الجيش الحكم الصادر عليهم. وكان يوما مثيرا.

وقد كتبت جريدة المصرى فى يوم ١٣ يناير ١٩٥٤ وصف الطريقة التى أعلنت بها الأحكام، تعبيرا عن موقف الوفد من الحريات السياسية والديموقراطية. ووفقا لكلام مصطفى طيبة:

«لقد ظلت زنازين السجن كلها مغلقة حتى الساعة التاسعة صباحا، على الرغم من أنها تفتح عادة فى السابعة، واختفى صوت المنادى الذى ينادى يوميا على أسماء المساجين الذين يستحقون الزيارة، وأغلقت الدكاكين والقهاوى المحيطة بالسجن، وبدا الأمر كما لو كان انقلابا عسكريا جديدا قد وقع. ولكن فى التاسعة صباحا فتح باب العنبر، ونودى على أسماء المساجين من أصحاب الرأى، واتفق الجميع بسرعة على الموقف أثناء تلاوة الأحكام.

كان الضابط الكبير ينادى على اسم السجين، ويتلو عليه الحكم الصادر ضده، فيهتف فور سماع الحكم عليه: «عاش كفاح الشعب المصرى»! ويهتف السجين الآخر: «عاشت الحرية ويسقط الارهاب»!

كان الجميع يشعرون أنهم انتقلوا إلى حكم عسكرى فاشى إختفى منه القانون والعدل والنظام. ويقول مصطفى طيبة: لم يصدر حكم واحد بالبراءة! وارتفعت أصوات زملائنا فى الزنازين المغلقة، وهم يرددون نشيد: بلادى.. بلادى!

وحكم على مصطفى طيبة بالأشغال الشاقة عشر سنوات، بتهمة محاولة قلب نظام الحكم الملكى! وهى التهمة التى قبض عليه من أجلها فى عهد فاروق، وبطبيعة الحال فلم يكن فى وسعه القيام بمحاولة قلب نظام الحكم فى عهد الثورة، لأنه كان فى السجن لا حول له ولا قوة.

وهذا يؤكد تلك الحقيقة التى أشرنا إليها، وهى أن ثورة يوليو بعد أن أسقطت نظام الحكم الملكى، تبنت كل شعاراته وسياساته، وقامت بتنفيذها بوسائل أكثر فاعلية ووحشية! فقد وقفت وحشية اسماعيل صدقى عند حد الحكم بالأشغال الشاقة لمدة عشرة أعوام، ولكن وحشية الثورة وصلت بهذا الحكم إلى الاعدام!

ويقول مصطفى طيبة إنه لم يكن وحده فى الحكم عليه بالأشغال الشاقة عشرة أعوام، بل كان معه عشر آخرون، وتراوحت أحكام السجن على الباقين بين عشر وخمس سنوات.

وجاءت اجراءات تحويل المتهمين إلى محكوم عليهم بالأشغال الشاقة، لتصور هوية الثورة الفاشية. فقد كان هؤلاء سجناء سياسيين، أى أصحاب رأى، ولكن الثورة عاملتهم كمجرمين! فيقول مصطفى طيبة إنهم خلعوا الملابس العادية، ولبسوا ملابس الأشغال الشاقة: بدلة زرقاء ممزقة بالية، بها أعداد كبيرة من حشرات القمل والبق! ويدق فى كل قدم حلقة بها سلسلة من الحديد تتصل بالحلقة الأخرى، ووزنها ٤ كيلو جرام! وتعلق فى الوسط بواسطة حلقة أخرى تعلق فى حزام جلدى!

وكان الحكم معناه أن يظل السجين السياسى المحكوم عليه بالأشغال الشاقة، مقيدا بهذه القيود، لا يخلعها أبدا: سواء فى نومه، أو فى يقظته، أو حتى عند الاستحمام!

«وعلى باب سجن مصر الخارجي كانت تنتظر عربتان، ركبت أنا وخمسة زملاء إحداها، وركب الخمسة الآخرون العربة الأخرى، وسارت العربة الأولى إلى ليمان أبي زعبل، واتجهت العربة الأخرى إلى ليمان طرة، وخلال الرحلة من سجن مصر إلى ليمان أبي زعبل، كنا ننشد نشيد: بلادي.. بلادي، وننشد أيضاً: «أخي ما الحديد إذا ألبسونا الحديد، لقد جهلونا إذ حسبونا عبيدا»!

سجناء الرأى
فى موكب العبيد!

الوفد ٢٨ أبريل ١٩٩٧

رأينا فى مقالنا السابق كيف انتقلت مصر مع ثورة يوليو «المجيدة»! من بلد يسوده القانون - حتى لو كان هذا القانون قانون إسماعيل صدقى! - إلى بلد تسوده الفوضى والانقسامات بين ضباط الثورة. وكيف انتهت المرحلة الأولى فى محاكمة مصطفى طيبة بالقبض على القاضى وعلى المحامى! وهو ما يمثل قمة الفوضى وسيادة شريعة الغاب! ثم جاءت المرحلة الثانية من محاكمته على يد جزار شهير هو اللواء فؤاد الدجوى، الذى ألغى كل إجراءات المحاكمة السابقة أمام القائمقام أحمد شوقى بعد القبض عليه، وبدأ إجراءات جديدة انتهت بالحكم على مصطفى طيبة بالأشغال الشاقة عشرة أعوام بتهمة محاولة قلب نظام الحكم الملكى!، وهى التهمة التى قبض عليه من أجلها فى عهد فاروق قبل الثورة!

وعلى الرغم من أن مصطفى طيبة وزملاءه كانوا سجناء رأى، فإن الثورة عاملتهم كمجرمين، فألبستهم ملابس الأشغال الشاقة، ودقت فى أقدامهم حلقات من الحديد تتصل ببعضها البعض بسلسلة من الحديد وزنها

٤ كيلو جرامات، وتعلق فى الوسط بواسطة حلقة أخرى تعلق فى حزام حديدى.

ويواصل مصطفى طيبة مذكراته فيقول: «كنا أمام ليمان أبو زعبل، وعلى باب الليمان كان يقف المأمور ومعه ثلاث ضباط، وأكثر من عشرة سجانة. ومن بعيد سمعنا أصوات قيود مئات المساجين العائدين من الجبل!

«كان موكب العبيد يقترب منا تدريجيا، وفى الأفق كان شعاع الشمس الأخير يختفى، والظلام يزحف مع زحف موكب المساجين العائدين بعد نهار كامل من الشغل فى تقطيع أحجار البازلت فى الجبل، ويحيط بهم عشرات الجنود، وهم يحملون مدافعهم الرشاشة، وعدد من الضباط يمتطون خيولهم.

«إذن سنكون من الغد أفرادا فى موكب العبيد هذا! وهل يطول بنا العمل عشر سنوات على هذه الحال؟ وهل نحتمل هذا العذاب اليومى؟».

وفى الزنزانة يوم ١٢ يناير ١٩٥٤ أمضى مصطفى طيبة الليلة الأولى كأى مجرم قاتل من معتادى الإجرام وليس كمسجون سياسى من أصحاب الرأى! كان الجو شتاء فى عز البرد، ولسعات أسفلت أرض الزنزانة تخترق «البرش» الذى أجلس عليه، فأهب واقفا، وتحتك السلاسل الحديدية بقدمى العاريتين، أمسكها بيدى، أزيحها عن قدمى، أفرش بطانية مهترئة ممزقة على البرش، وأجلس.

«ولكن أنّى لبرش منسوج من الليف وعليه هذه البطانية أن يحمى جسمى الذى أحاول تمديده من البرد القارص؟ أنفخ فى يدى، وتبعث أنفاسى فيهما الدفء، ولكن جسمى كله يكاد يتجمد، كتفاى، وظهرى، وصدرى وقدماى، من أين يأتيهم الدفء؟ جسم شبه عار، قيدوه بسلاسل حديدية، وتحاصره جدران الزنزانة الأسمنتية، وأرضها الأسفلتيه، والهواء البارد يصب على رأسى لسعاته الثلجية من نافذة الزنزانة العلوية، هكذا

طول الليل، محاولات يائسة للبحث عن أقل دفء، أقف تارة وأجلس تارة أخرى، وأمدد جسمى المنهك مرة ثالثة، والبرد لا يرحم! لا أذكر كم دقيقة نمت، ولا كيف نمت! وهل كان نوما أو كان سقوطا فى غيبوبة!!

وهنا يصبح الالتحاق بموكب العبيد، والعمل فى الجبل، أمنية كل سجين سياسى! لأنه يعنى الخروج للشمس والهواء! كما يصبح الانتقال من ليمان أبوزعبل إلى ليمان طرة أمنية عزيزة غالية أيضا!

فالعمل فى ليمان أبو زعبل هو تكسير حجر البازلت، ولكن العمل فى ليمان طره هو تكسير الحجر الجيرى، وهو أقل صلابة من الحجر البازلت.

وكما يرى القارئ فإن المسائل نسبية، حتى فى الأشغال الشاقة! وحتى فى الاختيار بين الحبس فى الزنزانة والعمل فى موكب العبيد، أو فى الاختيار بين تكسير حجر البازلت وتكسير الحجر الجيرى! وفى الاختيار بين قضاء مدة الأشغال الشاقة فى ليمان أبو زعبل أو قضائها فى ليمان طره!

ومصطفى طيبة يتحدث عن ليمان أبو زعبل باحتقار، فهو مخصص لأصحاب السوابق، وسجناء الرأى ليسوا من أرباب السوابق.

وفى وسط الظلام الحالك الذى فرضه حكم ثورة يوليو، وفى الوقت الذى كان الصراع دائما خارج الليمان بين القوى الوطنية والتقدمية وبين ضباط يوليو فى أزمة مارس ١٩٥٤ الشهيرة، انطلقت دعابة داخل ليمان أبوزعبل من أحد السجانة، نقلت سجناء الرأى من ظلام اليأس إلى نور الأمل. وكان الذى أطلق هذه الدعابة هو أحد السجانة، عندما سأله سجناء الرأى عن الأخبار خارج الليمان؟ فإذا به يرد بأن النحاس باشا قد رأس الوزارة وأنه فى حالة طيبة! ويصاب سجناء الرأى بالذهول ويسألون الحارس المداعب: هل النحاس باشا رئيس الحكومة؟ ويرد الرجل متصنعا الجد: أيوه، طبعا، أمال مين؟

ويروى مصطفى طيبة كيف هزتهم من الفرح هذه الدعابة التى أتقنها صاحبها، ونقلتهم من اليأس إلى الأمل، فيقول: «رحنا طول الليل نحلل الموقف السياسى. معقول جدا أن يعود الوفد إلى الحكم؟ ربما رضخت سلطة ٢٣ يوليو لضغط الشعب، وتولى النحاس رئاسة الحكومة.

«مكثنا طوال الليل نحلل الموقف السياسى بعد أن تولى الوفد الحكم، وكأنه أصبح حقيقة! وخرجنا بطبيعة الحال بنتيجة منطقية، هى أن الوفد سيعتمد فى حكمه على إطلاق الحريات السياسية والديمقراطية! وبدا أمل الافراج عنا فى الأفق، ثم رحنا فى نوم عميق نحلم بالافراج عنا.. بالحرية.

«وفى الصباح الباكر سمعنا صوتا عاليا يطلب أن نستعد للخروج، وصاح أحدنا فى سعادة بالغة:

- مش قلت لكم: إفراج؟ يحيا الوفد.

«فتحت الزنزانتان وخرجنا منهما، ولكن للعمل فى الجبل، ومع ذلك لم نفقد الأمل فى أن يكون النحاس باشا قد تولى الحكم بالفعل، وسوف يفرج عنا. ولكن أحدا لم يصرح بما فى نفسه لزميله.

«سرنا فى نهاية طابور العبيد فى طريقنا إلى الجبل، ومن حسن حظنا أن ضابط العمل فى ذلك اليوم كان صديقنا، وعندما اقترب منا سألنا: إزى الحال؟ ورددنا عليه: «الحمد لله، إيه حكاية النحاس باشا؟ ولم يملك الرجل نفسه من الضحك، وقال: «نحاس باشا مين؟ انت بتحلم؟ وتبددت كل أحلامنا، وكل التحليلات السياسة راحت هباء».

ولم يدر مصطفى طيبة وزملاؤه أن ضباط يوليو فى ذلك الحين كانوا قد ضربوا القوى الوطنية والتقدمية، التى طالبت بعودة الجيش إلى ثكناته، وبالحرية والديموقراطية والحياة الدستورية. وأن هؤلاء الضباط انقضوا على من مدوا أيديهم إليهم وساعدوهم بالفتاوى الدستورية، فاعتدوا بالضرب

على الدكتور عبد الرزاق السنهورى فى قلب دار مجلس الدولة، وفرضوا الرقابة الكثيفة على الصحف، وزجوا بالأحرار فى السجون، وارتكبوا مذبحة الجامعة، وقضوا قضاء مبرما على العصر الليبرالى فى مصر!.

ومع ذلك فقد كان من حسن حظ مصطفى طيبة ورفاقه أنهم كانوا مسجونين، وليسوا معتقلين!. كما كان من حسن حظهم أنه كان محكوما عليهم بالأشغال الشاقة عشر سنوات، وليسوا معتقلين بإرادة عبدالناصر.

وقد يدهش القارئ الكريم لهذا القول! فهل يكون من حسن حظ أى صاحب رأى أن يكون محكوما عليه بالأشغال الشاقة وليس معتقلا؟

إن هذه الحقيقة هى إحدى هزليات نظام حكم عبدالناصر التى نكشف عنها الستار فى هذه الحلقات، وهى أن المحكوم عليه بالأشغال الشاقة من عتاة المجرمين كان أسعد حظا بكثير من المعتقل بأمر عبدالناصر! فالسجين الأول يخضع للائحة السجون ويخضع للقانون، ولكن المعتقل بأمر عبدالناصر يخضع فقط للائحة زبانية التعذيب!

لقد كان سجين الرأى فى نظر النظام الناصرى أخطر على الدولة من القاتل وتاجر المخدرات وتاجر الرقيق الأبيض.

ومن هنا كان مصطفى طيبة ورفاقه من سعداء الحظ الذين حكم عليهم النظام الناصرى بعشر سنوات أشغال شاقة بتهمة محاولة قلب النظام الملكى، (أى النظام الذى قلبته الثورة بالفعل!) فقد كان من حقهم أن يطالبوا بمطالب، ويضربوا عن الطعام، ويفرضوا أوضاعا أقل سوءا، ولكن المعتقلين بأمر عبدالناصر لم يكن من حقهم أى شىء.

ولذلك، عندما طلب معتقل، هو المهندس سيد عبدالله، من قائد معتقل الأوردى طلبا بسيطا هو عبارة عن لبس أحذية أثناء تكسير أحجار البازلت فى وادى العقارب، بدلا من العمل حفاة الأقدام وسط حيات «الطريشة» ذات الأجراس التى كانت تهاجم المعتقلين - «إنهال عليه قائد المعتقل ضربا

بعصا أخذها من أحد العساكر وهو يصرخ كالثور الهائج: «أنا ماعنديش مسجون يطلب حاجة. إزاى تتجرأ يا كلب؟ كويس إنكم لسه عايشين (فتحى عبدالفتاح: شيوعيون وناصريون ص ١٠٦ - ١٠٧).

كذلك فإن المحكوم عليه بالأشغال الشاقة هو أسعد حظا بكثير من المعتقل بأمر عبد الناصر، فالسجين الأول تحكمه لائحة تنظم عمله فى الجبل - أيا كان الليمان الذى يمضى عقوبته فيه. - أى سواء كان ليمان أبوزعبل أو ليمان طرة.

فالمريض لا يعمل، وساعات العمل محدودة بينها فترة راحة، وأيام الجمع والأعياد أجازات، وكذلك أيام الأمطار والعواصف. كما أن الوضع الطبقى للسجين يحدد درجة عمله، فالنزيل الثرى قد لايعمل اطلاقا، إذ يدفع رشوة للحراس فيتركونه وشأنه ، ويدفع مرتبات للسجناء الفقراء ليعملوا بدله ويقدموا «المقطوعية» من الحجارة المقررة عليه والتى يسلمها للحارس ليسجل عددها.

هذه - إذن - هى المميزات التى يتمتع بها سجين ليمان أبوزعبل أو ليمان طرة، سواء كان من كبار تجار المخدرات أو صغارهم، أو النزلاء الذين اعتادوا الاجرام والقتل العادى وجنايات الاختلاس والسرقة - أما المعتقلون بأمر عبدالناصر فليس لهم شىء من هذه المميزات، كما أنهم لا يتمتعون بالعمل فى ليمان أبوزعبل أو ليمان طرة، وإنما ينزلون فى الأوردى. والأوردى - كما وصفه إلهام سيف النصر - «دنيا أخرى غير الليمان» على الرغم من أنه ملحق به».

وهذا وحده يكشف طبيعة النظام الناصرى، ووجهه الفاشى القبيح. فقد اختص عبدالناصر سجناء الرأى بليمان خاص، يمارس فيه زبانيته عذابا جماعيا لم يشهده تاريخ بشر، لأنه كان تعذيبا للتعذيب وليس لأى شىء آخر، فلم يكن تعذيبا للحصول على اعترافات من الشيوعيين بانتمائهم للفكر

الشيوعى، لأنهم لم يكونوا ينكرون هذا الانتماء، بل كانوا يفاخرون به فى المحاكم، ولم يكن تعذيبا لحمل المعتقل على العدول عن اعتراف أو مبدأ أو مذهب مما سجل لنا التاريخ، ولم يكن تعذيبا عقابا على جريمة ارتكبت، أو لإقامة الحد، أو لأى سبب معروف، وإنما كان تعذيبا للتعذيب، ولإرضاء شهوة التعذيب!

ومن أجل هذا لا نستطيع أن نسلك النظام الناصرى فى سلك النظم الاستبدادية التى مرت بمصر، فهذه النظم - حتى فى أسوأ صورها - كانت تعذب لسبب من الأسباب، ولكنها لم تعذب بدون سبب اللهم إلا شهوة التعذيب.

لقد كان النظام الناصرى نظاما فاشيا منذ البداية، وكانت رسالته الأولى هى القضاء على الشيوعية وإنهاء الحياة الديمقراطية، وتلك هى رسالة النظم الفاشية فى عصرنا الحديث.

رحلة
إلى ما وراء الشمس !

الوفد في ٥ مايو ١٩٩٧

كانت هزيمة القوى الديموقراطية والتقدمية في أزمة مارس ١٩٥٤، واستقرار الحكم في يد عبدالناصر، بداية صفحة من الهزائم العسكرية، وصفحة أخرى أكثر قتامة في تاريخ علاقة ثورة يوليو بحقوق الإنسان، وقد بدأت كما ذكرنا بالانقلاب على القوى التي أحسنت الظن بالثورة في بدايتها وساعدتها متصورة أنها ثورة حقيقية، وكان على رأس هذه القوى مجلس الدولة برياسة الدكتور عبد الرزاق السنهوري، الذي ارتكب جريمة ديموقراطية فظيعة عندما أصدرت الجمعية العمومية لقسم الرأي يوم ٣١ يوليو ١٩٥٢ قرارها بعدم دستورية دعوة مجلس النواب الوفدي المنحل إلى الانعقاد، فكان هذا القرار هو الخطوة الأولى في الطريق الذي طوله ألف ميل من دكتاتورية ثورة يوليو.

فلقد كان على مجلس الدولة وعلى الدكتور عبد الرزاق السنهوري أن يدفع ثمن هذه الجريمة الديمقراطية يوم ٢٩ مارس ١٩٥٤ عندما أرسلت الثورة بلطجيتها من جنود البوليس الحربي المتخفين في ثياب مدنية تحت

قيادة حسين عرفة مدير المباحث الجنائية العسكرية، إلى مجلس الدولة أثناء عقد اجتماع الجمعية العمومية لمجلس الدولة، فاقتحموا الاجتماع، واندفعوا إلى الدكتور عبد الرزاق السنهوری وأعضاء الجمعية العمومية من المستشارين، فانهالوا عليه وعليهم ضربا، ونقل الدكتور السنهوری إلى المستشفى، بعد أن دفع ثمن قرار يوم ٣١ يوليو ١٩٥٢ غاليا.

وبذلك أنهت ثورة يوليو أسطورة قدسية القضاء، وكانت تلك هی المقدمة الطبيعية لما عرف بعد ذلك باسم مذبحة القضاء بعد بضعة سنوات!

وقد تلى ذلك مباشرة متابعة ثورة يوليو لخصومها فی الرأی من القوى الوطنية والتقدمية، بمزيد من الاعتداء على حقوق الإنسان. فأصدرت يوم ١٤ أبريل ١٩٥٤ قرارات بحرمان هؤلاء من تولی الوظائف العامة، ومن كافة الحقوق السياسية، ومن تولى مجالس إدارة النقابات والهيئات، لمدة عشر سنوات! وطبق هذا القرار على ٢٢ وزيرا وفديا، و٨ وزراء سعديين، و٨ وزراء دستوريين! والطريف أنه طبق أيضا على ستة من أعضاء لجنة إعداد الدستور الذی خدعت به الثورة الشعب، وكان على رأس هؤلاء الدكتور عبد الرزاق السنهوری نفسه، فسقط بهذا القرار من منصبه فی رئاسة مجلس الدولة.

وتابعت ثورة يوليو بعد ذلك مهمتها الفاشية. فبعد أن قضت على الديموقراطية، أخذت فی تصفية الشيوعية، فاعتقلت يوم ٣١ مايو ١٩٥٤ ٢٥٢شيوعيا، وصدرت الأحكام يوم ٢٤ يوليو ١٩٥٤ بعشر سنوات أشغال شاقة على الدكتور شريف حتاتة ومحمد شطا وحليم طوسون، وثمانی سنوات أشغال شاقة على زكی مراد ومحمد خليل قاسم، والسجن خمس سنوات على أحمد طه ومحسن محمد حسن وعبداللطيف جمال، وسعد كامل وزوجته، وزوجة الشاعر كمال عبدالحليم، ومصطفى كمال صدقی، والسجن ثلاث سنوات على إبراهيم حسين وسيد البكار وهما وفديان، وبالسجن سنتين على بكر سيف النصر وهو وفدی أيضا.

في ذلك الوقت رأت الثـورة نقل سـجناء الرأى فى ليـمـان طرة إلى الواحات الخارجـة، وهو ما أزعج لحد كبيـر مصطفى طيبـة ورفاقه، وقد وصف الساعات القليلة التى سبق ترحيله إلى ما وراء الشمس - على حد قوله - بأنها «كانت أقسى اللحظات التى مرت بنا خـلال السنوات السابقة التى قضيناها فى سجن مصر وليمان أبو زعبل وليمان طره. كدنا نصل إلى يقين بأننا ذاهبـون إلى مكان لا تمتـد إليـه إلا يد البطش والإرهاب والتعـذيب حـتى الموت.. هكذا قضينا الساعات الأولى من صـباح يوم ترحيلنا».

ثم يقول: الواحات الخارجة! من هو الفاشى الذى تفتق ذهنه الشرير عن فكرة نفينا فى قلب الصحراء؟ كان الفاشست يلقون بالمناضلين الوطنيين إلى أفران الموت، وهؤلاء الفاشست هل يسوقوننا إلى الموت جوعا وعطشا؟ هل دبروا لنا الموت بسم الثعابين فى الصحراء؟ وانتبهنا فجأة على صوت سجان شرير يقول: «لدغة» الطرشة هنا هى والقبر على طول!».

وترتفع أصـواتنا تنشد بكل التحـدى: «شتـتونا فى المنافى». واملئوا منا السجون، سوف تأتيكم ليالى، برقها عصف المنون!» ثم تنضم أصواتنا إلى أصوات زملائنا فى الزنزانة المجاورة: «بلادى بلادى، لك حبى وفؤادى»! وتفتح الزنازين، وتستمر أصواتنا جميعا تردد من الأعماق: «مصر أنت اليوم حـرة، فوق جـبين الدهر درة، يا بلادى عـيشى حرة، واسلمى رغم الأعادى». وبين صفين من السجانة الذين يحملون البنادق والرشاشات، تعلو هتافاتنا بحـياة مصـر وشعب مصـر، وبالديموقـراطيـة، والحـريات السياسية.. دماؤنا فداؤك يا مصر. «كانت هتافاتنا وأناشيدنا من أجل رفع روحنا المعنوية».

ويرسم مصطفى طيبة صورة بشعة لمعاملة ثورة يوليو لسجناء الرأى عند إعدادهم للترحيل إلى الواحات، توضح كيف كانت هذه الثورة الفاشية

تعامل سجين الرأى، الذى لا يملك من سلاح غير فكره، معاملة من يملك ترسانة من الأسلحة تخشى أن يستعملها ضدها!

فيقول: «قسمونا إلى مجموعات، كل مجموعة من خمسة زملاء، ينادون عليهم بالاسم من كشف فى يد المدير، وبعد أن يتجمع الخمسة، يحيط بهم ٤ سجانة وضابط، ويذهبون إلى ورشة الحدادة فى الليمان، حيث يجرى دق السلاسل فى أقدامهم، فى سلسلة طويلة».

ثم يذهبون إلى «الزنزانة» فى القطار، التى تكدست فيها خمس مجموعات - أى ٢٥ زميلا فى زنزانة لا تزيد مساحتها على ٢×١,٥ مترا، جدرانها من أسياخ الحديد الصلب، وسقفها ألواح سميكة من الحديد، وكذا أرضيتها العارية تماما إلا من الأوساخ والقاذورات.

«وبعد أن انتهوا من عملية تكبيل كل الزملاء وتكديسهم فى زنازين القطار، وقبل أن يتحرك القطار نحو رحلة المجهول، شهدنا من خلال القضبان مشهدا بشعا ترك فى أعماقى جرحا لن يندمل أبدا».

«كان أصحاب «الكابات الحمراء» على الرءوس والنياشين الكثيرة على الصدور، ومعهم «الأفنديات» ومدير السجن، يقفون بعيدا فى ركن من أركان حوش الليمان، وكان عدد من السجناء يحمل «العروسة» التى تستخدم لجلد المسجونين، وينصبونها فى وسط حوش الليمان.

«وبعد قليل، شاهدنا اثنين من زملائنا المسجونين، وقد كبلت أقدامهم وأيديهم بالسلاسل، يجرهم السجانة، وعلى رأسهم المأمور. وعند «العروسة» أصدر المأمور أمرا بفك سلاسل أحد الزميلين، وإعادة تقييده بـ «العروسة»، ثم أصدر أمرا بالجلد!

«أكثر من ربع ساعة كان سجانان يتبادلان ضرب الزميل بالكرباج على ظهره العارى تماما. ولم تصدر عن الرجل آهة واحدة أو صرخة. ثم أعادوا تكبيله من رجليه ويديه بالقيود الحديدية!

«وتكرر هذا المشهد مع الزميل المسجون الآخر. لو أن هذه السياط نزلت على ظهرى ما تألمت مثلما تألمت ، وكنت أرى الألم يعتصر زملائى الذين يشاركونى القيد الحديدى، كنا نتبادل الألم ولا نستطيع عمل أى شىء.

«وتنتهى عملية جلد الزميلين، ونشاهدهما يساقان مرة أخرى إلى زنازين «التأديب»، أيديهم مكبلة بالقيود، وأرجلهم مقيدة بالسلاسل، ومن ورائهم نشهد موكب الضباط الكبار والأفندية يسير ناحية مكاتب الإدارة، وتزعق صفارة القاطرة إيذانا ببدء الرحلة إلى ما «وراء الشمس!».

هذه الصورة الصادقة المروعة لمحنة سجناء الرأى فى عهد عبدالناصر، كانت تحدث بينما كان يصيح صيحته المعروفة: «ارفع رأسك يا أخى فقد مضى عهد الاستعباد!» أى فى الوقت الذى كان يمارس استعبادا لمعارضيه فى الرأى لم يسبق له مثيل حتى فى العصر الاستعمارى.

ويرسم مصطفى طيبة صورة أخرى لمشاعر الجماهير المصرية إزاء السجن الذى فرضته ثورة يوليو على الشعب المصرى، فيقول إنه عندما وصل قطار السجن الذى يقلهم إلى محطة مصر، وشعرت الجماهير بهم، صاحت امرأة صيحة مدوية بددت السكون الرهيب الذى فرضه البوليس على الناس والمكان فى عز الظهيرة.

- الدستور.. الدستور.

«وكأنما أصابت هذه الكلمة الناس الواقفين فى أنحاء المحطة بمس كهربائى، وإذا بأصوات عديدة تعلو فى قوة أصوات اهتزت لها مبانى محطة مصر: الدستور.. الدستور!».

وترتفع أصواتنا فى الزنزانات فى صوت واحد: الحرية، الدستور، الأحزاب!

«وفى لحظة واحدة، تختل كل اجراءات الأمن المشددة، ولا يستطيع البوليس المدجج بالسلاح أن يوقف زحف الجماهير التى تعاطفت معنا، لقد

تنوعت الهتافات: الدستور، الديموقراطية، الحرية للشعب. وتوحدت أصواتنا بأصوات الأهالى والجماهير وهى تردد نشيدنا الخالد: بلادى، بلادى، لك حبى وفؤادى.

«ويواصل القطار رحلته مارا بمحطات الجيزة والفيوم ثم بنى سويف وباقى المحطات حتى أسيوط، وفى كل محطة نجد جنود البوليس والمخبرين منتشرين فى أرجائها. وعندما دخل القطار محطة أسيوط كان الظلام يزحف ويبدد أشعة الشمس، وكانت حناجرنا قد أجهدت، لقد أدت مهمتها على طول الطريق من القاهرة الى أسيوط، حيث يوجد بشر، وزرع، وخضرة، وحياة. فالطريق من أسيوط حتى محطة «المواصلة» ليس به سوى الرمال والكثبان والنباتات الشيطانية المنتشرة على سفوح الجبال والتلال.

«كاد الليل أن ينتصف عندما وصل القطار إلى محطة الواحات الخارجة، اكى تبدأ رحلة السيارات إلى «جناح» حيث يقع السجن الجديد.

وهناك فى محطة السكة الحديدية كانت تنتظر مفاجأة لسجناء الرأى لم تكن تخطر ببال، هذه المفاجأة هى أنه كان من المستحيل نزولهم من القطار وهم مكبلون بالسلاسل الحديدية بتلك الطريقة التى كبلوا بها!.

فعندما بدأت محاولة نزول أول خمسة أشخاص، وكان بينهم مصطفى طيبة، تبين أن سلم زنزانة القطار التى ينزلون منها، يبعد عن الأرض بحوالى متر على الأقل، ولم يكن يزيد طول السلسلة بين كل سجين وآخر عن نصف متر، ومعنى هذا أن مجرد نزول السجين الأول من على ارتفاع متر سوف يجر وراءه زملاءه الأربعة، الأمر الذى يعرض الجميع على الأقل لكدمات وجروح، بسبب سقوطهم على شريط السكة الحديد أو الأحجار التى بجانبه.

على هذا النحو بدا أن الطريقة الوحيدة لنزول سجناء الرأى من زنزانات القطار هى قطع السلاسل الحديدية! وعندما يتردد ضابط السجن يقول له مصطفى طيبة: «هو فيه حد مجنون يفكر فى الهرب من هنا؟» ويجد ضابط السجن نفسه أمام الأمر الواقع، ولكن قطع السلاسل يلزم فيه استعدادات، أى شاكوش وأجنة وسندال وحداد، وكلها غير موجودة. وتصدر الأوامر إلى بعض الجنود بالذهاب إلى المعسكر، وهو على بعد ساعة، لإحضار حداد ومعه الآلات اللازمة لقطع السلاسل الحديدية.

وعندما يحضر الحداد تبرز مشكلة أخرى، فلا يكاد يدرس الموقف حتى يقول للضابط: يابيه، فى كل رجل «حجلة»، ودى تخينة قوى وتأخذ وقت على ما تنقطع، لكن السلاسل سهل تأخذ وقت أقل، فهل نقطع السلاسل واللا نقطع الحجلة؟

ولا يجد الضابط مفرا من قطع السلاسل، بما يترتب على ذلك من أن كل «سجين رأى» سوف يحتفظ بقطعة سلسلة و«حجلة» فى كل قدم من قدميه!.

وينتهى الحداد من عمله، ويسير سجناء الرأى إلى العربات، وكل منهم يجر فى قدم من قدميه سلسلة معلقة فى حجلة، وتنطلق السيارات وسط صحراء واسعة وسكون رهيب لا يمزقه إلا عواء الذئاب والثعالب. ومن بعيد وعلى ضوء مصابيح السيارات العالية تبدو أنوار السجن، ويعلق مصطفى طيبة على ذلك قائلا:

«فى لحظة تجسد أمامى صور معسكرات النازى. وأغلب الظن أن هؤلاء «الفاشست» لن يستخدموا نفس الأساليب التقليدية للتعذيب، وربما كانت خطتهم تقوم على إلقائنا فى الصحراء نهبا للذئاب والثعالب والثعابين.

«فأى فاشى حقير هذا الذى دبر لنا الموت بهذه الطريقة القذرة الدنسة؟ إن كل أفران النازى ومعسكراتهم، وكل أساليبهم الوحشية تتوارى خجلا أمام هذه الفكرة الشيطانية!

الحياة بين ليمان طره وسجن «جناح» !

الوفد فى ١٢ / ٥ / ١٩٩٧

«أى فاشى حقير هذا الذى دبر لنا الموت بهذه الطريقة القذرة الدنسة؟ إن كل أفران النازى ومعسكراتهم وكل أساليبهم الوحشية، تتوارى خجلا أمام هذه الفكرة الشيطانية: الموت بلدغة، طريشة، قضاء وقدرا»!

هذا هو ما كتبه مصطفى طيبة فى مذكراته التى صدرت فى جزئين تحت عنوان: «رسائل سجين سياسى إلى حبيبته»، وهو ينتقل من ليمان طرة إلى سجن «جناح» بالواحات الخارجة مع زملائه من سجناء الرأى.

كانت كل جريمة مصطفى طيبة وزملائه من أمثال الدكتور شريف حتاتة وحليم طوسون ووليم اسحق وزكى مراد وصلاح حافظ ومحمد شطا ولمعى يوسف وسعد باسيلى والدكتور فؤاد مرسى، هى مجرد الخلاف فى الرأى مع ضباط يوليو، ولم تكن الجريمة لتدبيرهم مؤامرة لقلب الثورة وإقامة ثورة البروليتاريا، أو لاغتيال عبدالناصر أو أحد من ضباط الثورة، كما فعل الاخوان المسلمون.

والأغرب من ذلك حقا كما ذكرنا ـ هو أن الشيوعيين كانوا يؤيدون عبدالناصر ونظام حكمه، ويعلنون ذلك فى كل مناسبة وفى كل محاكماتهم، ومع ذلك فإن مجرد الخلاف فى الرأى كان كافيا فى نظر عبدالناصر لمصادرة حرياتهم والتنكيل بهم، ونفيهم فى أنأى بقعة من مصر!

فلم يكن يماثل عداء عبدالناصر للشيوعين سوى عداء هتلر للشيوعيين! ولم يكن احساسه بخطر فكرهم على نظامه أقل من إحساس هتلر بخطر فكر الشيوعيين على نظامه، ولذلك كانت حربه عليهم حربا لا هوادة فيها، فى الوقت الذى كان الشيوعيون يعيشون تحت تهويمات حكمه الوطنى وإنجازاته، وتتعالى صيحاتهم من ظلام سجنهم الدامس بحياته! بل إنه فى الوقت الذى كانت سياط جلاديه وزبانيته تنهال على ظهورهم، لم يكفوا عن الإيمان به على النحو الذى جعل الكثيرون من المحللين السياسيين يربطون بين موقف الشيوعيين من عبدالناصر وموقف «القط من خناقة»!

والأغرب من ذلك أنهم، حتى اليوم، واقعين تحت وهم أن حكم عبدالناصر كان حكما تقدميا، على الرغم من أنهم خير من يعرفون حقيقته كما شاهدوها فى سجونه ومعتقلاته، وهم اليوم أيضا يعقدون محالفة مع الناصريين الذين أذلوهم، تحت وهم تقدمية النظام الناصرى، على الرغم مما يعرفون ـ بالتجربة ومن واقع النظريات السياسية ـ أن التأميم لا يعنى الاشتراكية، وإن ما ألحقه هؤلاء الناصريون بمصر من هزائم عسكرية، ومن إهدار للحريات السياسية، ومن فشل فى إدارة القطاع العام بعد تسليمه لأصحاب الثقة من أقاربهم وأصحابهم، ومن تحويل مصر إلى سجن كبير ـ يضعهم على رأس أسوأ القوى السياسية التى شهدها تاريخ مصر الطويل!

وتعتبر مذكرات مصطفى طيبة، وهو شيوعى، شاهد عدل على نظام عبدالناصر وعلى صفته الفاشية. فيصف كيف جاء إلى السجن فى أبريل

١٩٥٨، بعد إعلان الوحدة مع سوريا، سجين يدعى محمد مختار جمعة، كان ـ كما يقول «مجندا فى الجيش حين ألقوا القبض عليه.عذبته المخابرات العامة، ونفخته و«جلدته»، وحرقت ظهره بالحديد المحمى، وخلعت أظافره، ووضعوه عاريا فى الماء المغلى، لكى يعترف على زملائه، فلم يعترف، وحين ضاقوا ببطولته ذرعا، قرروا إرساله إلى سجن «جناح» بالواحات الخارجة.

ويذكر كيف كتب الدكتور شريف حتاتة مذكرة إلى المسئولين؛ بدءا من رئيس الجمهورية حتى مدير مصلحة السجون، وإلى الصحف والنقابات المهنية والعمالية المختلفة، «تستنكر نفينا فى الصحراء، ومحاولة اغتيالنا بواسطة الخيات والثعابين، وتطلب نقلنا من هذا المنفى» ـ ولكن دون سميع أو مجيب!

ويقول إنه طوال إقامته وزملائه فى السجن، لم يتمنوا فى حياتهم شيئا أكثر من خلع القيود الحديدية عنهم، كباقى خلق الله من المسجونين العاديين! لقد كانت أمنية غالية أن نستحم، ولو مرة واحدة، دون أن نجر القيود الحديدية فى أقدامنا، بعد الجهود المضنية التى نبذلها عند خلع الملابس، ثم عند ارتدائها بعد الاستحمام. كنا قد تعودنا على السلاسل الحديدية فى أقدامنا، كما تعودنا على صوت رنينها أثناء قيامنا أو جلوسنا أو سيرنا، أو حتى خلال نومنا، لكنا كنا نعانى عند كل استحمام، سواء أثناء خلع الملابس، أو أثناء ارتدائها!

ثم يعقد هذه المقارنة الغريبة بين معاملة نظام عبدالناصر لسجناء الرأى ومعاملته للمسجونين العاديين من تجار المخدرات والقوادين واللصوص والقتلة، فيقول:

«كان عدد شهور السنة فى الأحكام القضائية عند كل المسجونين ٩ شهور فقط، أما عندنا فشهور السنة ١٢ شهرا بالتمام والكمال! وكان كل

المسجونين يخرجون فى مناسبات أعياد الثورة، والفطر والأضحى، عند قضائهم نصف المدة، ولكن لم يخرج أحد منا فى أى مناسبة من هذه المناسبات! ولأنهم يعشقوننا ومغرمون «صبابة» بنا، فقد كانوا عند انقضاء مدة عقوبتنا يستضيفوننا سنوات أخرى فوق مدة العقوبة القانونية!

ويقول إنه خلال سنوات السجن الماضية كان الفول المدمس الذى يأكلونه، ليس مدمسا وإنما مسلوقا، وكانت الفولة الواحدة بها عدد لا يحصى من ثقوب السوس، وفى كثير من الأحيان كنا نضبط السوس متلبسا بجريمة استمراره فى الحياة رغم تعرضه لأقصى درجات حرارة غليان المياه! ومع الوقت أخذ الكثيرون يأكلون السوس «بلذة» على اعتبار أنه فى نهاية الأمر «بروتين»! وخرجوا بمقولة أن الفرق بين لحم السوس وأى لحم آخر، هو نفس الفرق بين لحم الأرنب ولحم القطة!

وقد تحدث مصطفى طيبة عن معاناة أخرى لم يشهدها معتقل فى التاريخ: لقد كان المعتقل الذى قذف بهم إليه عبدالناصر عبارة عن بقعة نائية فى قلب الصحراء ليست معدة أصلا لاستقبال معتقلين، ولا تحتوى على أية مرافق من المرافق اللازمة للحياة، لذلك فسرعان ما اكتشف المعتقلون من سجناء الرأى أن هذا المعتقل ليس فيه مياه شرب من أى نوع غير جرادل مياه نفدت مياهها، وكان عليهم أن يجلبوا الماء اللازم، ولكنهم عرفوا أن «العين» التى يجلب منها الماء تبعد عن السجن خمسة كيلو مترات، ومعنى هذا الكلام أن جلب الماء من «العين» يلزمه سير مسافة ١٠ كيلومترات ذهابا وإيابا! وبطبيعة الحال فإن الجردل الملىء بالماء لن يصل إلى السجن كاملا، وإنما سيصل نصفه فقط فى أحسن الظروف.

ويعلق مصطفى طيبة على ذلك قائلا: «لقد اختاروا لنا هذه القطعة من الأرض فى قلب الصحراء، بعيدة عن مصادر المياه وأحاطوها بالأسلاك الشائكة، ثم ألقوا بداخلها أجولة من الفول والعدس والأرز والدقيق والفاصوليا

الناشفة، وعددا من الخيام، وكميات من الخشب والصاج والمواسير، وقالوا لنا: إبنوا سجنكم بأنفسكم»!

وفى أثناء بناء سجناء الرأى سجنهم بأنفسهم فى قلب الصحراء، أتت الأخبار بصدام عبدالناصر مع الاستعمار فى النصف الثانى من يوليو ١٩٥٦ ، وعندئذ اجتمع سجناء الرأى الوطنيون، وقرروا كتابة بيان يسجلون فيه بوضوح موقفهم المؤيد لعبد الناصر بدون شروط. ويقول مصطفى إن مأمور السجن وضباطه فوجئوا بهذا الموقف! فلم يكن فى تصوراتهم أن مسجونين يمكن أن يرسلوا لسجانيهم تأييدا ومساندة، بلا أى شروط! ويتحمس المأمور لهذا الموقف الوطنى، ويعلن أنه سوف يسافر إلى القاهرة لتوصيل البيان إلى رئاسة الجمهورية وإلى مدير مصلحة السجون.

ويكتب مصطفى طيبة قائلا: «ربما كانت هذه أول تجربة يواجهها مسجونون سياسيون.. يقفون إلى جانب السلطة، يؤيدونها ويساندونها، دون أن يفرج عنهم، وربما كانت هذه أول مرة تتلقى فيها سلطة وطنية تأييدا أو مساندة من أشد معارضيها حتى الأمس القريب».

ويأتى مأمور السجن يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٦ وهو يحمل معه برقية من رئاسة الجمهورية موجهة إلى مأمور سجن «جناح» بالواحات، لتوجيه الشكر إلى كل من وقعوا على بيان التأييد. الأمر الذى يشيع موجة من التفاؤل بقرب الإفراج عنهم.

وفى الوقت نفسه يحمل المأمور معه جهاز راديو كبير لسماع خطاب تأميم قناة السويس، ولا يكاد عبدالناصر يعلن تأميم شركة قناة السويس حتى يمتزج هدير تصفيق الجماهير فى ميدان المنشية بالاسكندرية بهدير تصفيق سجناء الرأى فى صحراء الواحات الخارجة! ويقول مصطفى طيبة: «كانت هذه أول مرة تشهد فيها صحراء الواحات الخارجة هتافا يشق عنان السماء بحياة ناصر وثورة ٢٣ يوليو!

«وبعد الخطاب انتظمت جموعنا مع جموع السجن من الإخوان المسلمين في مظاهرة صاخبة ظلت تجوب المعسكر أكثر من نصف ساعة، وبلغ تأثر المأمور والضباط والجنود درجة كبيرة جعلتهم ينضمون إلينا ويهتفون معنا، ثم يعانقوننا فى ود وإنسانية. وسارع سجناء الرأى إلى إرسال برقية إلى عبدالناصر فى نفس الليلة يعلنون فيها تأييدهم ومساندتهم!

ولكن تمضى شهور أغسطس وسبتمبر وثمانية وعشرون يوما من أكتوبر ١٩٥٦، وسجناء الرأى يتوقعون الافراج عنهم، بعد أن اختفى كل مبرر سياسى لاستمرار وجودهم فى السجن، وعلى حد قول مصطفى طيبة: «أن تسجن لأنك تعارض النظام شيء مفهوم ومقبول، ولكن أن تسجن وأنت تؤيد وتساند هذا النظام مسألة لا تقبلها!».

وقد نسى مصطفى طيبة وزملاؤه أن نظام عبدالناصر لا يضع فى اعتباره هذه المفاهيم السياسية، فهو نظام فاشى يحكم البلاد بمهارة بوسيلتين: المعتقلات لمعارضيه فى الرأى، والقرارات الحماسية البراقة المدوية، التى تخطف أبصار الجماهير المصرية وتدفعها إلى الهتاف بحياة عبدالناصر، مهما ترتب عليها من خسائر وطنية جسيمة تؤثر على مستقبل البلاد!

وهو ما حدث مع إعلان تأميم شركة قناة السويس، فقد بقى لعبدالناصر الهتاف والحماس الشعبى حتى وفاته، وبقى لمصر الخسائر الهائلة التى ترتبت على التأميم، وهى مرور الملاحة الإسرائيلية من شرم الشيخ، وانفتاحها على أسواق أفريقيا وآسيا، وتحول ميناء إيلات إلى ميناء دولى!

كذلك عندما أعلن عبدالناصر إغلاق مضيقى تيران فى مايو ١٩٦٧، فقد بقى لاسمه مجد قرار الإغلاق، وبقى لمصر خزى الهزيمة العسكرية الثقيلة فى حرب يونية ١٩٦٧، وعودة إسرائيل إلى احتلال سيناء مرة ثانية فى مدة لاتزيد على عشر سنوات.

وهو نفس ما حدث لهتلر وموسوليني، فقد هزت انتصاراتهما السياسية على معسكر الحلفاء قبل الحرب العالمية الثانية قلوب الشعبين الألماني والايطالي، وبقيت لألمانيا وإيطاليا الهزيمة العسكرية الثقيلة التي أصابتهما عند نهاية الحرب!

وعلى هذا النحو فإن بيانات التأييد لعبدالناصر من سجناء سجن «جناح» بالواحات الخارجة بسبب قرار تأميم شركة قناة السويس، ثم بيانات التأييد الأخرى عند وقوع العدوان الثلاثي - كل هذه البيانات لم يكن لها تأثير في نفس عبدالناصر يدفعه إلى الإفراج عنهم للمشاركة في شرف الدفاع عن أرض الوطن.

بل إن عبدالناصر كان يحمل المزيد لمن كانوا خارج السجن من زملائهم الذين اشتركوا معه بالفعل في المعركة أثناء العدوان الثلاثي وبعده بشهور، فسرعان ما قام باعتقالهم، وأرسل بهم إلى الواحات في أوائل عام ١٩٥٧ ، بعد أن ألصق بهم عددا من الاتهامات في ديسمبر ١٩٥٦!

والطريف أنه كان من بين من اعتقلوا في سنة ١٩٥٧ المهندس الدكتور فائق فريد، وهو أحد المهندسين الذين تمكنوا من تجهيز عربة إذاعة بديلة عندما ضرب الأعداء محطة الإذاعة المصرية في أبوزعبل!

بل إنه في الوقت الذي كان سجناء الرأي في سجن جناح في صحراء الواحات الخارجة يتوقعون الافراج عنهم لمجرد إرسال بيانات التأييد لعبد الناصر، كان عبدالناصر يعتقل الشيوعيين الذين شاركوا في الدفاع عن بورسعيد بعد أن تبعثرت القوات العسكرية المصرية نتيجة انهيار القيادة المسئولة،! وكانت الحجة هي الخوف من أن يحاول الشيوعيون تقوية صفوفهم وتجنيد عناصر جديدة وخلق نفوذ لهم بين الجماهير بعد أن اشتركوا في المقاومة الشعبية!

وعلى هذا النحو فإن كل ما كان سجناء الرأى يعتقدون أنه يقربهم من باب الحرية، كان يقربهم أكثر من أبواب معتقلات عبدالناصر! لقد كانت حساباتهم تقوم على الدفاع عن الوطن، فى حين كانت حسابات عبدالناصر تقوم على الدفاع عن نظام حكمه، واستبقاء زعامته دون شريك من أية قوة وطنية!

هل كان نظام عبدالناصر فاشيًا أو دكتاتوريًا يستخدم أدوات فاشية ؟

الوفد ١٩ / ٥ / ١٩٩٧

أن تسجن لأنك تعارض النظام شيء مفهوم، أما أن تسجن وأنت تؤيد النظام فهو الأمر المحير في نظام عبدالناصر، هكذا ما كتبه مصطفى طيبة في ذكريات سجنه، فقد هتف الشيوعيون في سجن جناح بالواحات الخارجة بحياة عبدالناصر عند سماعهم صوته وهو يعلن تأميم شركة قناة السويس، وسارعوا بإرسال برقية تأييد حارة له في نفس الليلة، كما أرسلوا بيانات تأييد أخرى عند وقوع العدوان الثلاثي على مصر، وأعربوا عن رغبتهم في الخروج للموت دفاعا عن الوطن. ولكن عبدالناصر كانت له حسابات أخرى.

لقد كانت حسابات عبدالناصر تدعوه إلى زيادة التنكيل بالشيوعيين كلما وقفوا موقفا وطنيا يمكن أن يجلب لهم تأييد الرأي العام، ولذلك عندما تمكن المهندس الدكتور فائق فريد وزملاؤه فور ضرب قوات العدوان الثلاثي محطة القاهرة بأبي زعبل، من تجهيز عربة إذاعة بديلة تحل محل محطة الإذاعة المضروبة، وتعلو فيها من جديد صيحة «هنا القاهرة»، لم ينقذه هذا

العمل الوطنى الجليل من الاعتقال! وعندما تصدى الشيوعيون فى بورسعيد للدفاع عن المدينة بعد انهيار القيادة المسئولة وتبعثر القوات العسكرية أمام قوات الغزو، كان هذا العمل الوطنى الجليل فى حد ذاته هو الذى فتح لهم أبواب السجن على مصراعيها!

لقد كانت فلسفة عبدالناصر فى ذلك فلسفة بسيطة ليس فيها غموض ولا تعقيد، وهى تقوم على أن كل من يملك القدرة على تأييده، فإنه يملك من الناحية الأخرى القدرة على معارضته، ويستوجب ذلك - بالتالى - التخلص منه!

وهذه الفلسفة قالها عبدالناصر بنفسه لفتحى رضوان عندما توسط لديه للافراج عن ابن اخته سعد كامل الكاتب والمناضل المعروف. فلقد ساق فتحى رضوان وقتذاك الحجج على أن سعد كامل له مواقف تأييد لعبد الناصر، أخذ يعددها، ولكن عبدالناصر قاطعه قائلا إن من يستطيع تأييدى يستطيع معارضتى!

وهى فلسفة الطغاة فى كل زمان ومكان! فعندما استعطف أبو مسلم الخرسانى أباجعفر المنصور للابقاء على حياته بحجة أن سيفه كان على الدوام فى خدمته، كان رد أبو جعفر المنصور أن السيف الذى يستطيع أن يكون فى خدمته هو نفسه السيف الذى يستطيع أن ينقلب عليه!

وقد كانت تلك هى جريمة الشيوعيين الكبرى التى استحقوا عليها التنكيل والتعذيب، فلأنهم كانوا يستطيعون التأييد فإنهم كانوا يستطيعون المعارضة، وهى جريمة كافية فى نظر عبدالناصر لاعتقالهم والتنكيل بهم.

فلم يحدث أبدا أن تآمر الشيوعيون على نظام عبدالناصر، ولم يسبق أن حاولوا الانقضاض عليه كما فعل الاخوان المسلمون، وإنما كانت كل جريمتهم أنهم وهم يؤيدون عبدالناصر يستطيعون معارضته، وعبدالناصر يحسب حساب المعارضة أكثر مما يحسب حساب التأييد، ومن ثم فهو لا

يقبل بالتعايش إلا مع كل من لايقدر على التأييد أو المعارضة، أى الذين لا رأى لهم إلا رأى الزعيم!

ولذلك فقد تخلص من جميع القوى السياسية التى حملت عبء النضال الوطنى قبل الثورة، لأنه كان لها رأى! فقد تخلص من الوفديين والشيوعيين والاخوان المسلمين، بل تخلص من زملائه من الضباط الأحرار الذين كان لهم رأى، تخلص من خالد محيى الدين ومن يوسف صديق، ثم من زملائه فى مجلس قيادة الثورة الذين كان لهم رأى، مثل عبداللطيف البغدادى وكمال الدين حسين. فالرأى الآخر هو عدو عبدالناصر اللدود.

وهذا يثير القضية التى كتبها الكاتب الكبير عبدالستار الطويلة فى عدد الوفد يوم ١٢ مايو ١٩٩٧، ردا على هذه السلسلة من المقالات عن ثورة يوليو وحقوق الإنسان. فقد اعترف فى مقاله بأن ما ورد فى هذه المقالات «صحيح مائة فى المائة، وبالحرف» ـ على حد قوله . وهو أمر طبيعى من الأستاذ عبدالستار الطويلة، فقد كان هو نفسه أحد ضحايا معتقلات عبدالناصر، بل ربما كان أكثرهم احساسا بجناية هذه المعتقلات على حياة صاحب الرأى المعارض وعلى روحه ونفسيته، إذ تعرض لتجربة رهيبة أشرنا إليها فى أحد هذه المقالات، على رصيف محطة «المواصلة» وهو فى طريقه وزملاؤه إلى الواحات وهم مربوطون بسلسلة واحدة، عندما تحرك القطار بعد نزوله وبعض زملائه من العربة، وأخذ يجرهم على الرصيف ثم على الفلنكات وهم يصطدمون بالزلط وخشب الفلنكات، يتوقعون أن تسحبهم عجلات القطار لتطحنهم جميعا ومعهم زملاؤهم الذين كانوا مايزالون فى العربة، وصيحات الجميع لا يسمعها سائق القطار، ولم ينقذهم إلا تنبه خفير إحدى المزارع المجاورة فأطلق أعيرة نارية نبهت السائق إلى المأساة!

لقد كانت القضية التى أثارها الأستاذ عبدالستار الطويلة هى اعتراضه على ما توصلت إليه عن اقتناع، من واقع هذه السلسلة من المقالات من أن النظام الناصرى لم يكن نظاما تقدميا وإنما كان نظاما فاشيا.

وقد استند فى اعتراضه على افتراض نظرى سليم هو أن الفاشية ـ كما قال ـ «هى الحكم الدكتاتورى للقمم العليا من الاحتكارات الرأسمالية التى تفشل فى استمرار حكمها عن طريق الوسائل الديموقراطية، فتجنح إلى الدكتاتورية، و«لم يكن عبدالناصر ـ كما قال ـ ممثلا للاحتكارات المصرية، بل هو ضرب الرأسمالية فى مقتل، والأصح أن يقال إن نظام عبدالناصر الدكتاتورى كان يستخدم الأساليب الفاشية، وكانت الكارثة على نظامه وعلى مصر سنوات طويلة بسبب ضربه للحريات حتى لم يعد له تأييد جماهيرى، وأنصاره ليسوا إلا مجموعة من الدراويش التى تتصارع على ميراث موهوم، بل هم يضرونه ضررا بالغا برفضهم الاعتراف بخطأ مواقفه من الديموقراطية، وبالتالى لا يستمع أحد لأى محاولة للدفاع عن منجزاته الجيدة.»

هذا ما كتبه الكاتب الكبير عبدالستار الطويلة فى خطأ وصفى نظام عبدالناصر بأنه نظام فاشى، وأن الصحيح القول بأنه نظام دكتاتورى يستخدم أساليب فاشية.

وقد كان هذا بالفعل رأيى قبل كتابة هذه السلسلة من المقالات، ولكنى لم أملك إلا الانحياز إلى وجهة نظر الدكتور لويس عوض عندما سخر من الشيوعيين المصريين والعرب الذين اعتبروا عبدالناصر رائدا من رواد الاشتراكية! لمجرد أنهم رأوا فى نظام القطاع العام، وفى بعض التشريعات العمالية والتأمينات الاجتماعية، وفى التعاون أو التقارب مع الاتحاد السوفيتى «ملامح اشتراكية» وطلب فحص الاشتراكية الناصرية، وهل كانت اشتراكية حقيقية أو كانت «اشتراكية وطنية»؟ أى فاشية.

ولتحديد الإجابة على هذا السؤال أعلن الدكتور لويس عوض أن عبدالناصر سوف يدخل التاريخ باثنين من أهم منجزاته، وهما: تصفية الشيوعية، وتصفية الديموقراطية - ليس فقط في مصر بل وفي العالم العربي لحد ما. وبالتالي فقد حصر الدكتور لويس عوض اشتراكية عبدالناصر في سلك الاشتراكية الوطنية، أي النازية، إذ هي النوع الوحيد من الاشتراكيات الذي يعادي كلا من الشيوعية والديموقراطية بنفس الدرجة، وهي النوع الوحيد الذي ظهر في ألمانيا هتلر، وإيطاليا موسوليني، وأسبانيا فرنكو.

هذا الاستناد الذي قام به الدكتور لويس عوض لتحديد فاشية نظام عبدالناصر، أقوى في رأيي من الاستناد الذي لجأ إليه الأستاذ عبدالستار الطويلة، لسبب بسيط هو أنه يمثل روح الفاشية الحقيقية التي تعادي الشيوعية والديموقراطية بشراسة على نحو يدفعها إلى استخدام أساليب القهر والتعذيب وإهدار حقوق الإنسان للقضاء على خصومها في الرأي.

أما الاستناد إلى اعتماد الفاشية على ما أسماه عبدالستار الطويلة «بالقمم العليا من الاحتكارات الرأسمالية»، وهي الصفة الغائبة في النظام الناصري، فليست بذات بال في رأيي، إذ يتفق كل من النظام الفاشي في شكله الإيطالي أو في شكله الألماني النازي مع النظام الأمريكي والنظم الرأسمالية في الغرب في هذه الصفة، في الاعتماد على القمم العليا من الاحتكارات الرأسمالية، وإنما الذي يفرق بينها جميعا هو الديموقراطية واحترام حقوق الإنسان، فهي في النظم الفاشية مهدرة، ولكنها في النظم الرأسمالية الليبرالية قائمة ومستتبة.

وفي نظري أنه لا يمثل فارقا كبيرا أن يستند نظام هتلر على القمم العليا من الاحتكارات الرأسمالية، أو يستولي عبدالناصر بنفسه على وسائل الإنتاج ويضمها إليه جميعا ويطوعها لمصلحة نظامه ولمصلحة استمراره وبقائه.

وبمعنى آخر، أنه إذا اتفقنا على أن نظام عبدالناصر لم يكن نظاما اشتراكيا مما عرفته النظم الاشتراكية، وإنما كان فى أحسن صوره «رأسمالية دولة»، فإنه لا يمثل فارقا كبيرا أن تكون الدولة هى التى تملك وسائل الإنتاج، أو أن مجموعة من الاحتكارات تملك وسائل الإنتاج، ما دام أن جوهر نظام الحكم هو الاستبداد، ومصادرة حرية الرأى، وتجاوز ذلك إلى الانتقام من المخالفين فى الرأى عن طريق اعتقالهم، والزج بهم فى معسكرات تعذيب، والاستعانة بزبانية متخصصين فى هذا النوع الذى عرفته معسكرات النازى.

وهذا الذى قام به النظام الناصرى يعترف جميع الشيوعيين الذين تعرضوا للتعذيب أنه لم يحدث إلا فى النظام النازى، بل إنه تفوق على ما كان يحدث فى معسكرات التعذيب التى أقامها هتلر لسجناء الرأى.

ففى كتاب الدكتور فتحى عبدالفتاح يصف زبانية التعذيب فى عصر عبدالناصر بأنهم على حد قوله - «تفوقوا فى بعض الأمور على أساتذة النازى فى معتقلات» «دخاو» «وبوخنفالد» و«اوشفيتز». ويضرب المثل بأحد هذه الزبانية وهو يونس مرعى الذى كانت هوايته المفضلة أن يقف على تل عال ويقذف سجناء الرأى الذين يعملون تحت الجبل بالدبش متعمدا أن يصيب رءوسهم!

ويقول: «ثمانية أشهر وهم يضربون المعتقلين طوال الأربع وعشرين ساعة: فى طابور الرياضة فى الصباح، والعنابر فى منتصف الليل، وفى الفجر حينما يتسلمون الجراية، أو حتى حينما يشكو أحدهم من مرض! صورة بشعة لا يمكن أن يتصورها إلا مخبول نزع عقله فراح يعربد حرا طليقا من أى منطق ومن أية ذرة إنسانية!

ويتحدث عن الدكتور لويس عوض، ويونس مرعى يلقيه على الأرض ويضربه بحذائه مثلما يضرب حشرة! والدكتور فؤاد مرسى أستاذ القانون

بكلية الحقوق وملابسه تخلع عنه ليضرب على المناطق الحساسة فى جسده! والدكتور إسماعيل صبرى عبدالله والزبانية يأمرونه بأن يدور فى حلقة كالثور لتنهال عليه الكرابيج والشوم! ويقول إنه طوال ثمانية أشهر كان الدكتور لويس عوض يفزع من النوم ليلا ليصيح: أين نحن؟ لا يمكن أن نكون قد رجعنا ألف عام إلى الوراء؟

على هذا النحو كان على أن أقتنع بأن النظام الناصرى كان فاشيا لا يفترق من حيث الجوهر عن نظام هتلر أو موسولينى، وإن كان الخلاف الوحيد هو فى نوع الرأسمالية التى يقوم عليها، هل هى رأسمالية احتكارات أو رأسمالية دولة؟

وقد كان النظام الفاشى لعبدالناصر يستند على رأسمالية الدولة، وهى أسوأ بكثير من رأسمالية الاحتكارات، لأنها تهيئ للدولة وللحاكم الدكتاتور سلطة وقوة لا يتمتع بها الحاكم الفاشى فى نظام رأسمالية الاحتكارات، ففى النظام النازى تشترك الاحتكارات فى الحكم مع الحاكم الدكتاتور، ولكن فى رأسمالية الدولة فإن الحاكم الدكتاتور يحكم وحده بلا شريك، وتكون يده محررة من كل قيد ليحمى حكمه من أية آراء مخالفة.

وهنا أود أن أنبه إلى أن هذا الكلام لا ينفى زعامة عبدالناصر، وإنما يضعها فى إطارها النظرى الصحيح! كما أن البعض فهم مما ذكرته عن فاشية نظام عبدالناصر ومعسكرات التعذيب التى نصبها لمعارضيه، أننى أنكر عليه كل إنجاز وطنى، وهذا فهم خاطئ وغير معقول، فقد سبق لى أن قلت إن النظام النازى فى ألمانيا حقق لها من المكاسب الوطنية ما لم يتحقق لها من قبل، بل حقق لها التفوق على النظم الديموقراطية فى كثير من الإنجازات، ولكن هذه الإنجازات كانت على حساب الإنسان الألمانى، لقد جعل هتلر ألمانيا عظيمة وجعل الإنسان الألمانى صغيرا بعد أن جعله يعيش تحت شعور الخوف والإرهاب.

وقد حقق نظام عبدالناصر الفاشى إنجازات كبيرة فى حقل التصنيع، وحركة التحرر الوطنى العالمية، وبناء السد العالى، ونقل الجيش المصرى إلى عصر الصاروخ، وناضل ضد الاستعمار ومن أجل الوحدة العربية، ولكن الكثير من هذه الإنجازات سقط بسبب الدكتاتورية.

فقد سقطت الوحدة العربية، وأما القوات المسلحة الجديدة فلم تمنع احتلال إسرائيل سيناء مرتين، وإعادة الاستعمار إلى المنطقة العربية أقوى ما يكون تحت اسم التعاون وحماية الوطن من الأعداء العرب! كما حدث بعد احتلال العراق للكويت، وأما القطاع العام فهو فى طريقه للزوال بعد مشروعات الخصخصة!

وهكذا يثبت التاريخ أنه لا شيء يدوم إلا إذا قام على أساس احترام حقوق الإنسان وعلى أساس الديموقراطية وإرادة الشعوب.

الرحلة الجنهمية
من سجن جناح إلى سجن
المحــــاريق

الوفد ١٩٩٧/٥/٢٦

عندما صدرت الأوامر إلى سجناء الرأى فى سجن «جناح» بالواحات الخارجة بالانتقال إلى سجن «المحاريق»، أصيبوا بخيبة أمل عميقة! ذلك أن سجن جناح كان هو السجن الذى ارتفعت فيه هتافاتهم إلى عنان السماء بحياة عبدالناصر فور سماعهم بإعلانه تأميم شركة قناة السويس، ومنه انطلقت برقياتهم التى يعلنون فيها تأييدهم ومساندتهم، كما أنه السجن الذى وصلتهم إليه من عبدالناصر برقية يوجه إليهم فيها الشكر لموقفهم الوطنى، ومن ثم فإن منطق الحوادث كان يقنعهم بأن الافراج عنهم للمشاركة فى النضال الوطنى هو مسألة وقت ليس إلا، حتى تتم الإجراءات، وعدا ذلك يعد أمرا غير منطقى. وعلى حد قول مصطفى طيبة: «أن تسجن لأنك تعارض النظام شىء مفهوم، ولكن أن تسجن وأنت تؤيد وتساند النظام، فهو أمر غير مفهوم!

على أن عبدالناصر كان فى ذلك الحين ـ كما قلنا ـ يفهم الأمور بطريقته الخاصة، وهى أن من يملك التأييد يملك المعارضة، ومن يملك المعارضة

يلزم التنكيل به! وفى الوقت نفسه فإن الشيوعيين فى أثناء العدوان الثلاثى كانوا قد ارتكبوا جريمة لا تغتفر، هى تصديهم للدفاع عن بور سعيد بعد أن تبعثرت القوى العسكرية نتيجة انهيار القيادة المسئولة، الأمر الذى فهمه عبدالناصر على أنه محاولة منهم لإيجاد قواعد لهم بين الجماهير وخلق نفوذ لهم ينافس نفوذه، ولذلك فقد سارع باعتقالهم. وقد علل زكريا محى الدين هذا الموقف بأنه «من الطبيعى إذا اشترك تنظيم سياسى سرى فى عملية جماهيرية فإنه لا شك سيحاول تقوية صفوفه بتجنيد عناصر جديدة، وخلق نفوذ له بين الجماهير، وأنه من الطبيعى أن تتحرك أجهزة الأمن للتعرف على هذه الاتجاهات.

وقد كان ذلك هو جزاء سنمار! لأن المقاومة الشعبية فى بور سعيد كانت هى الوجه المشرف للشعب المصرى، بينما لم تؤد القوات المسلحة - كما يقول أحمد حمروش - واجبها على الوجه الأكمل لظروف متعددة، الأمر الذى أدى إلى إخراج ٣٠ ضابطا بعد العدوان، وإلى شكوى جمال عبدالناصر من كثرة الخسائر بلا مبرر. والأخطر من ذلك ما حدث خلال معارك بورسعيد من تأثر بعض الضباط من دور الشيوعيين فى المقاومة الشعبية، وذبول الحساسية المزروعة فى نفوسهم من الدعاية المركزة ضد الشيوعية التى كان يقوم بها نظام عبدلناصر فى ذلك الحين.

والمهم هو ما فوجئ به سجناء الرأى فى سجن «جناح» من قرار نقلهم إلى سجن «المحاريق»، بدلا من الإفراج عنهم. وقد كانوا فى ذلك الوقت قد توطدت بينهم وبين سجن «جناح» روابط غريبة من الود، تولدت من الظروف الغريبة التى دفعت بهم إلى ذلك السجن، فلم يكن سجنا فى البداية، وإنما كان عبارة عن بقعة نائية فى قلب الصحراء ليست معدة أصلا لاستقبال معتقلين، وليست فيها أية مرافق للحياة، وقد قام سجناء الرأى بأنفسهم ببناء هذا المعتقل، وجهزوه بالمرافق فى جونسبى من الحرية.

لذلك عندما تقرر نقلهم إلى سجن المحاريق شعروا بثقل العقوبة، إذ ستنقلهم من سجن بنوه بأنفسهم وألفوه، إلى سجن مجهول لا يعرفون مصيرهم فيه. ويعبر مصطفى طيبة عن هذا الشعور فى مذكراته فيقول:

«تحركت بنا العربات التى تحملنا وأمتعتنا، إلى سجن «المحاريق»، وظلت عيوننا معلقة بهذا المكان الذى أحببناه، حتى غاب عن أنظارنا، كيف نحب مكانا سجنا فيه؟ علاقة خاصة جدا كانت تربطنا بهذا المكان الذى كلما بعدنا عنه كلما اشتد حنيننا إليه!

«لماذا لم يتركونا فيه حتى نخرج من السجن، أحياء أو أمواتا؟ إلى هذا الحد يكرهون ابتسامة المسجون؟

وتتوالى الكوارث عليهم وهم فى رحلتهم الجهنمية من سجن «جناح» إلى سجن «المحاريق». فحرارة الشمس حارقة رغم أن الساعة تجاوزت الثالثة بعد الظهر، وتحاول العربات أن تجد طريقها عبر مسالك ملتوية وسط كثبان الصحراء، وتصطدم إحدى العربات بكثبان، وتدور عجلاتها على «الفاضى»، وتتوقف كل العربات لنجدة العربة الغارقة وسط الرمال الناعمة.

وينزل سجناء الرأى من العربات لنجدة العربة فى ظروف جوية «مأساوية»: «الرمال ساخنة تلسع أيدينا ونحن نزيحها عن عجلات العربة، وتلهب سيقاننا الغاطسة فيها حتى الركبتين، وتهب رياح قوية تحمل معها كميات هائلة من رمال الصحراء، وتقذف بها فى وجوهنا تلسعها كالسياط، وتكاد تعمى عيوننا، وفجأة نجد أنفسنا وسط دوامة شديدة من رياح الصحراء المحملة برمالها الكثيفة، لتقيم أحد كثبانها. ويرتفع صوت نسمعه بصعوبة: أصعدوا حالا إلى العربات. ونتلمس طريقنا إلى العربات بصعوبة بالغة.

وعندما تتوقف رياح الدوامة وتتحرك إلى مكان آخر، يكتشف سجناء الرأى أن كل عجلات السيارات التى تحملهم قد غرقت فى الرمال الناعمة، فيما عدا سيارة واحدة فى المقدمة، ويقول صوت: إن انتقال الدوامة من هذا المكان أنقذنا من موت محقق، كان يمكن أن نرقد تحت الرمال.

ويعود سجناء الرأى إلى إزاحة الرمال الناعمة عن عجلات العربات الغارقة، كى تجد طريقها إلى سجن المحاريق! ويلتقط مصطفى طيبة المفارقة فيقول: «ياذوى القلوب السوداء والأكباد الغليظة، بأيدينا نمهد طريقنا إلى السجن دفاعا عن حياتنا، التى تريدونها أن تنتهى تحت رمال كثبان الصحراء، وبفكرنا ويقيننا وبقوة شعبنا العظيم، وتضامن كل الوطنيين، ستجد مصرنا الغالية طريقها إلى الحرية والديموقراطية والتقدم الاجتماعى. الظلام يزحف يغطى الصحراء الواسعة، وتستأنف السيارات سيرها نحو السجن».

يفاجأ سجناء الرأى عند وصولهم إلى سجن المحاريق بأن نظام عبدالناصر لم يكن قد استكمل بناءه بعد: عنبران تم بناؤهما، والعنبر الثالث لم يرتفع أكثر من أساساته، والعنابر الثلاثة مازالت فى العراء لا يحيط بها سور من الطوب، وإنما أسوار شائكة مؤقتا. ويتساءل سجناء الرأى: لماذا تعجلوا فى نقلنا إلى هنا والسجن لم يتم بناؤه بعد؟

ويكتشف سجناء الرأى أن سجن المحاريق الجديد ليس فيه مطبخ ولا طعام! أين عشاؤنا ولم نتناول فى سجن «جناح» وجبة الغداء من العدس أو الفول، ولنا الحق فى ثلاثة أرغفة كاملة؟ ولكن سجناء الرأى كانوا قد اكتسبوا خبرة إعداد الطعام من بنائهم سجن «جناح»، وكانوا قد اصطحبوا معهم كميات من العدس والفول والفاصوليا والملوخية الناشفة. ويتم الاتفاق مع مأمور سجن المحاريق على قيامهم باستكمال بناء المطبخ وإدارته وكذلك المخبز!

ولكن الوضع فى سجن المحاريق كان مختلفا عنه فى سجن جناح، ففى سجن «جناح» كانت خيام، وهنا فى سجن المحاريق زنازين، ومعنى ذلك هو الانتقال من سيء إلى أسوأ! ويصف مصطفى طيبة زنازين سجن المحاريق قائلا: «طوب جدران الزنزانة البيضاء، وسقفها الأسفلتى، يبخ حرارة الشمس التى امتصها طول النهار، فتلسع وجوهنا والجزء الأعلى من أجسامنا العارية، والعرق يتصبب دون توقف، حتى الهواء الذى يصل إلينا من النافذتين العاليتين، كأنه مر على جهنم قبل أن يأتينا!

وفى تلك الظروف تأتى الأخبار بهجوم عبدالناصر على ثورة العراق وعبدالكريم قاسم والحزب الشيوعى العراقى، ويرى سجناء الرأى فى تلك الأخبار نذير سوء، وإرهاصا بحملة اعتقالات واسعة وتنكيل، ويبدأ سجناء الرأى فى إعداد أنفسهم لأسوأ الاحتمالات، ويكتب مصطفى طيبة قائلا:

«منذ دخلنا السجن ونحن نعيش فى «دوامة» الاحتمالات، عشنا فيها فى سجن مصر، وانتقلت بنا إلى ليمان أبو زعبل، ثم إلى ليمان طره، ثم إلى سجن جناح، وها هى تنتقل بنا إلى سجن «المحاريق»، ولكنها كانت دوامة تختلف عن كل الدوامات التى عشناها فى السجون الأخرى، لقد كانت لها سمات خاصة تشترك مع دوامة رمال الصحراء الناعمة».

فبعد الأشهر الأولى من وجود سجناء الرأى فى سجن المحاريق، استيقظوا يوم أول أكتوبر عام ١٩٥٨ على صوت بروجى «اللواء» يدوى عاليا، فقد حضر اللواء إسماعيل همت على رأس حملة كبيرة من الضباط والجنود والكلاب، وطلب مدير السجن من سجناء الرأى لبس «يونيفورم» السجن، أى الطاقية الزرقاء على الرأس، وبدلة السجن الزرقاء، والأحذية بدون رباط (كان لبس الأحذية امتياز يتميز به المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة عن المعتقلين بأمر عبدالناصر، فالآخرون كانوا يعملون حفاة الأقدام!)

ويقول مصطفى طيبة: «ظلت الزنازين مقفلة علينا حتى قبل الظهر بقليل. وفجأة سمعنا صراخا عاليا بأنات موجعة، وطلقات رصاص! ثم رأينا دخانا كثيفا يهبط علينا من نافذتى الزنزانة العاليتين، لقد كان فى فناء السجن حريق هائل! وجاء أحد السجانة ليقول لنا إنه شاهدمن باب العنبر اللواء همت يقف وسط مجموعة من الضباط، والاخوان يأتون إليه بين طابورين من الجنود الذين يحملون الكرابيج فى أيديهم، وبعد أن يقترب «الأخ» من اللواء همت، يتبادلات كلمات قليلة، وبعدها تنهال عليه الكرابيج من كل جانب حتى يقع مغشيا عليه، فيسحب، ويأتون بغيره، وهكذا.

«وبالقرب منه كان عدد آخر من السجانة يحضرون «المخالى»، التى تحتوى على حاجيات الاخوان التى أحضروها معهم من «جناح»، ويلقون بها فى النار.

«هم يريدون تصفية كل القوى الوطنية تنظيميا وسياسيا، لينفردوا هم بالحكم والسلطان، فهل يجئ الدور علينا بعد الاخوان؟

«كانت زيارة اللواء إسماعيل همت خاصة لإرهاب الإخوان المسلمين. ولقد سبق لنا أن أرسلنا من سجن «جناح» استنكارا للمذبحة التى قتلوا فيها ١٣ أخا فى ليمان طرة، وقررنا أن نكتب للمسئولين مذكرة نستنكر فيها هذا الإرهاب الوحشى للإخوان، والذى يتعارض مع أبسط حقوق الإنسان التى أقرتها المواثيق الدولية.

وسرعان ما صدرت الأوامر بعد حملة اللواء همت الإرهابية بأن يطبق على الشيوعيين نفس النظام الذى فرض على الاخوان المسلمين، لتأديبهم، وكان نظاما رهيبا! فعلى حد قول مصطفى طيبة.

«مرت بنا ثلاثة أشهر كانت من أسوأ الأيام التى شهدناها فى السجون؟ الزنازين مغلقة طول النهار، ولا تفتح إلا ربع ساعة فقط فى الصباح، واحدة بعد الأخرى، وحرارة شمس أكتوبر ونوفمبر وديسمبر لا تصل إلى

أجسامنا التى تصلبت من البرد القارص، كان التفتيش علينا يجرى فى أى ساعة من ساعات الليل أو النهار، وكان المأمور، الذى أطلقنا عليه اسم «الشواف» لا يتوقف عن حملاته التفتيشية ليلا ونهارا.

«وقد تدهورت صحتنا إلى حد خطير، حيث كان اعتمادنا الأساسى على غذاء السجن من «السوس المفول»! والعدس، و«الأعشاب» التى تطبخ ويطلقون عليها اسم «خضار» وقطعة اللحم التى عجزت أسناننا عن مضغها. وذات نهار سقط منا زميلان: نبيل حلمى، ووليم اسحق، من الاعياء، الأول كان مريضا بالكبد، والثانى مريض بصدره، والإثنان لا يصل إلى أمعائهما طعام يقاومان به المرض، ولا يتناولان الأدوية الضرورية».

سجناء الرأى
وظهورهم الدامية !

الوفد فى ٢ / ٦ / ١٩٩٧

بعد ثلاثة أشهر من الحبس فى زنازين مغلقة طول النهار، لا تفتح إلا ربع ساعة فقط فى اليوم، وبعد حرمان من أشعة الشمس طوال أشهر أكتوبر ونوفمبر وديسمبر، وغذاء يعتمد أساسا على ما أسماه مصطفى طيبة «السوس المفول»، والعدس والأعشاب ـ كان من الطبيعى أن يتساقط سجناء الرأى واحد وراء الآخر، وكان أول من سقط هو نبيل حلمى ووليم اسحق.

وكان على الباقين انقاذهما عن طريق إخطار السجان بإبلاغ المأمور بحالة السجين، ولكن الأوامر كانت صريحة عنده بعدم الذهاب إليه مهما كانت الأسباب! ولم يجد سجناء الرأى بدا من الطرق على باب الزنزانة بأيديهم وبغطيان الجرادل، وهو ما اعتبره المأمور نوعا من التمرد، فحضر على رأس عدد كبير من السجانة يحملون العصى والكرابيج، مهددا بتوقيع عقوبة التمرد فى السجن مضافا إليها الجلد! وعندما أتى الطبيب أخيرا شخص حالة السجينين بأنها «حالة إعياء شديد يلزمها اسعاف سريع، وأن صحتهما تعرضت للخطر بسبب عدم الحركة، وعدم تعرض أجسامهما للشمش.

ويقول مصطفى طيبة إنه عندما حضر اللواء عبدالمنعم موسى وكيل مصلحة السجون، ومعه عدد من الضباط ومدير الإدارة الطبية بمصلحة السجون، وشاهد المعتقلين دلت تعبيرات وجهه على أنه لا يصدق ما يراه! فقد رأى آدميين أقرب إلى الهياكل العظمية، بعضنا يكاد يسقط من الضعف، والصفرة تكسو وجوهنا، ولكن إرادة التحدى كانت تكسب عيوننا بريق الإصرار، ولم يملك إلا الأمر بفتح الزنازين صباحا وبعد الظهر للذهاب إلى دورة المياه، وتعيين مأمور جديد استدعى خصيصا من سجن أسيوط الذى يضم عتاة المجرمين.

ولكن لا تكاد تمضى أيام قليلة على وصول المأمور الجديد، حتى يكون قد أحال ٢١ سجينا من ٦٠ سجينا إلى التأديب! ويشرح مصطفى طيبة معنى التأديب، فيقول إنه يعنى ألا يكون لدى المسجون سوى بطانية واحدة حتى ولو كان فى عز البرد! ولا يأكل سوى ثلاثة أرغفة فى اليوم، وغموسهم لا يتعدى الملح الرشيدى الخشن، ويحرم من الفسحة فى طابورى الصباح والمساء، ولا تفتح عليه الزنزانة إلا مرة واحد فى الصباح، ولمدة لاتزيد على خمس دقائق للذهاب إلى دورة المياه.

ويقول مصطفى طيبة إنه نظرا لأن سجن المحاريق كان فى طور البناء، فلم يكن به زنازين خاصة بالتأديب، ولما كان عدد المحكوم عليهم بالتأديب أكثر من ثلث السجناء، موزعين على ست زنازين، فلذلك تفتقت قريحة المأمور الجديد عن تخصيص زنزانتين للتأديب، ولكن بعد يومين أخرين قرر تحويل جميع الزنازين إلى زنازين تأديب!

ويقول مصطفى طيبة: «ويمر يومان لا يأكل كل زميل خلالهما سوى ستة أرغفة، وكمية من الملح الخشن (الرشيدى) ولا نخرج للطابور ولا للعمل فى مرافق السجن»!

ولكن محنة السجناء لا تنتهى، ففى صباح اليوم الثالث يأتى المأمور ومعه عدد من السجانة والضباط، وينادى على كل من سعد باسيلى، ومحمد جبر، وصلاح هاشم، ويخطرهم بأنه جاءه أمر من مصلحة السجون بجلد كل واحد منهم ١٨ جلدة!

ويفاجأ الجميع، ويتساءلون عن السبب، وتأتى الإجابة بأنهم اعتدوا على ضابط العنبر! ولم يكن ذلك صحيحا، بشهادة وكيل مصلحة السجون، ولكن المأمور يصمم على الجلد بحجة أن عدم التنفيذ يترتب عليه مجازاة الضابط لأنه أمر بضرب «بروجى كبسة» تحت وهم اعتداء سجناء الرأى عليه، فإذا تبين أنه لم يحدث اعتداء ولا يحزنون، يتوجب مجازاته لأنه ضرب «البروجى» بدون مبرر!

والغريب أن يقبل سجناء الرأى تنفيذ عقوبة الجلد فيهم، فداء للضابط، وحجتهم: نتحمل من أجل أولاده!

وفى صباح اليوم التالى يقتاد الثلاثة إلى فناء السجن نحو «عروسة الجلد»، ويقف الجلادون وفى أيديهم السياط، وإلى جوارهم منضدة عليها وعاء به زيت، ويقف معهم طبيب السجن الجديد، وضابط! وتبدأ طقوس الجلد بأن يقف الضابط القادم من القاهرة يقرأ الحكم:

«بأمر من اللواء مدير عام مصلحة السجون، يجلد كل من المساجين: سعد باسيلى ومحمد جبر وصلاح هاشم ١٨ جلدة لاعتدائهم على الملازم أول (......) ضابط العنبر أثناء تأدية وظيفته، وينفذ الجلد فى حوش السجن وأمام كل المساجين».

وبعد إجراء الكشف الطبى يتقدم سعد باسيلى بخطوات ثابتة نحو العروسة، ويصلب نفسه عليها، ويرفض تقييد يديه بعناد، رغم تحذيره من احتمال سقوطه أثناء الجلد، وعندما يسأله المأمور عن سبب الإصرار، يقول له: لكى نثبت لك أننا قادرون على تحمل أى شىء بإرادتنا.

وتنهال السياط على جسد سعد باسيلى دون أن تصدر منه أنة واحدة، ويتبادل ضربه اثنان من الجلادين، وينزل سعد باسيلى من على العروسة، والابتسامة لا تفارق وجهه، وظهره ينزف دما، ويقول لأحد الضباط: أرجو أن يكون المأمور قد وجد الفرق بيننا وبين مجرمى أسيوط!

ينزل سعد باسيلى ليصعد محمد جبر، وينزل محمد جبر ليصعد صلاح هاشم، ويكتب مصطفى طيبة معلقا بهده الكلمات المؤثرة : «أبدا لن تستطيع كل أجهزة إعلامهم النيل من صدق إنتمائنا إلى أرض مصرنا الحبيبة، فحبك يا غالية هو هذا الهواء الذى نستنشقه، وهو هذا الهواء الذى نستنشقه، وهو هذا الهواء الذى نشربه، فأنت أنت الحياة، ولا حياة بدونك يا مصر»!

وفى المساء بعد أن أغلقت الزنزانة، وسجناء الرأى يضعون فوط الوجه المبللة بالماء على ظهور المجلودين، أخذوا يستمعون إلى خطاب عبدالناصر بمناسبة ٢٣ ديسمبر ١٩٥٨، الذى شن فيه هجوما عنيفا على السوفيت، ورمى فيه الشيوعيين بالعمالة! ويدور حوار داخل الزنزانة، فقد اكتشف سجناء الرأى أن كل ما مر بهم من عناء وعذاب على مدى ست سنوات، إنما كان بمثابة شهر عسل بينهم وبين عبدالناصر!

ويقول صوت: انتهى شهر العسل! ويعقب آخر: وبدأ شهر البصل! ويرد ثالث: «والبصل راح يصنن»! ويقول رابع ساخرا: ريحة الصنة واضحة من زمان! ويعلق خامس قائلا: إياك يشمو الصنة!- يقصد الشيوعيين خارج السجن الذى كانوا يؤيدون عبدالناصر، ويقول سادس: إياك يفوقوا! ويرد سابع: بعد الأوان.. إيه الفايدة؟

وقد كان محقا، فلم يغن تأييد الشيوعيين خارج السجن لعبدالناصر عن القفز عليهم بليل فى فجر أول يناير ١٩٥٩ .

وفى ذلك يقول مصطفى طيبة: «فى يوم أول يناير ١٩٥٩ سمعنا من الإذاعات العالمية فى المساء أخبار الاعتقالات. وفى أوائل مارس ١٩٥٩

وصلت إلينا «طلائع» المعتقلين، وخلال تلك الشهور، كانت أنباء اعتقالات الزملاء تتوالى: عشرات فى سجن القلعة، وعشرات فى الفيوم، وعشرات فى أوردى أبو زعبل ، وعشرات فى الأقسام المختلفة. وكانت الصحف التى تأتى إلينا ـ بوسائل خاصة!ـ مليئة بالحملات على الشيوعيين دون تمييز، وعلى الأشقاء فى سوريا والعراق.

وذات يوم فى أوائل مارس ١٩٥٩ أخبرنا المأمور أن أكثر من ٣٠٠ معتقل سيصلون إلى «المحاريق» بعد أيام، وأن عددا منهم سيسكن فى الزنازين الخالية فى عنبرنا ـ وكنا لا نشغل غير ست فقط ـ والباقين سيسكنون فى العنبر الجديد الذى انتهى العمل فيه منذ أيام.

لقد كانت عملية بناء المعتقلات فى عهد عبدالناصر تسير جنبا إلى جنب مع عمليات البناء الأخرى، بنفس الهمة والنشاط، وهى سمة من سمات الفاشية.

وقال مأمور السجن: إن عددا من ضباط المصلحة، ومعهم عدد من ضباط المباحث، سوف يصلون غدا لإصدار تعليمات بشأن معاملة المعتقلين، وإنهم سوف يشرفون على تسكينهم. وفى صباح ذات يوم من الأيام الأولى لمارس ١٩٥٩ كان المعتقلون قد وصلوا، وقبلها أغلقت الزنازين على المسجونين القدامى، وسمعنا أصوات أقدام كثيرة تدخل العنبر، وبذلنا جهدا لنرى أحدا ممن نعرفه، وجاء وليم اسحق بمرآة، ورأينا أجساماً كثيرة تدخل العنبر، وصاح وليم اسحق «جئتو يا طلاينة ؟»وبمقدمهم ـ كما يقول مصطفى طيبة ـ «تنتهى فترة من حياتنا فى السجون: سجون مصر الملكية، ومصر الجمهورية، ومصر العربية المتحددة، وتبدأ فترة جديدة.

فلقد انقسم معتقل المحاريق إلى قسمين: قسم المسجونين الرسميين المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة، وقسم المعتقلين بأمر عبدالناصر. وكان

المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة أسعد حظا من المعتقلين بأمر عبدالناصر، فقد كانوا يخضعون للوائح مصلحة السجون، ولكن المعتقلين بأمر عبدالناصر كانوا يخضعون لأمر الزعيم الفاشى وحده لا شريك له فيه، ولا يحكمهم أى عرف أو قانون أو دين.

وعلى سبيل المثال فقد كان دخل المحكوم عليه بالأشغال الشاقة ٢٥ مليما فى الأسبوع، لسد احتياجاته من بعض الغذاء الإضافى والسجاير. وكان هذا المبلغ يقسم السجناء إلى مجموعتين: مجموعة السجاير، ومجموعة الحلاوة الطحينية، وكانوا يطلقون على المجموعة اسم «كميونة»! (على اسم «كميونة باريس» الشهيرة) فكميونة السجاير، وتتكون من عشرة سجناء، تكفيها المليمات لتدبير ثلث سيجارة كل يوم، فيجتمع كل ثلاثة فى كميونة فى الصباح، يدخنون ثلث سيجارة معا، وأخرى بعد الظهر، والثالثة بعد العشاء. وكميونة الحلاوة الطحينية تكفيها المليمات لشراء ربع كيلو حلاوة لكل عشرة زملاء، ومنهم صلاح هاشم الذى كان يفضل ملعقة من حلاوة الطحينية كل أسبوع عن نصف سيجارة!

وسوف نرى أن هذه الميزات العظيمة لم يكن يتمتع بها المعتقلون بقرار جمهورى! والمهم هو أنه بوصول هؤلاء المعتقلين تغيرت تركيبة سجناء الرأى، فلقد كان السجن يضم ثلاثة عنابر، فى كل عنبر عشرون زنزانة، وكان سجناء الرأى من دفعة (١٩٥٢ ـ ١٩٥٤) يشغلون ربع عنبر (٢)، ويعيش المعتقلون من دفعتى مارس ويونيو ١٩٥٩ معهم فى نفس العنبر، أما عنبر رقم (١) فقد وضع فيه المعتقلون من دفعة أكتوبر عام ١٩٥٩ ، ثم ضم إليهم بعد ذلك المعتقلون الذين كانوا مع مصطفى طيبة فى عنبر (٢).

وفى اليوم الذى وصلت فيه دفعة أكتوبر ١٩٥٩ من المعتقلين إلى سجن المحاريق، صدرت تعليمات مهمة حملها خصيصا وكيل مصلحة السجون وأحد ضباط المباحث العامة، تحذر المسجونين القدامى من التعامل مع

المعتقلين الجدد! ويتساءل المسجونون فى دهشة عن السبب؟ ويوضح ضابط المباحث العامة الأمر صارخا: المعتقلون تبعنا! ويكمل اللواء وكيل مصلحة السجون كلام ضابط المباحث، فيقول: والمساجين تبعنا احنا، ويوضح المأمور الفرق فى اقتضاب فيقول: طبعا معاملة المسجون غير معاملة المعتقل!

وعندما يقفل باب الزنزانة على المسجونين يكونون قد أدركوا أن نظام عبدالناصر يدبر أمرا ضد «المعتقلين» الجدد! ولا يلبث مأمور السجن أن يوضح هذا الأمر، فيقول إن معاملة المعتقلين ستكون على النحو الآتى:

«إغلاق الزنازين عليهم طوال النهار، فيما عدا نصف ساعة فى الصباح، ونصف ساعة بعد الظهر. ويلبسون ملابس المسجونين تحت التحقيق (البيضاء)، ويخلعون أحذيتهم، ولا يسمح لهم بشراء شيء من الكانتين، وزيارتهم ممنوعة تماما، وغير مسموح لهم باستلام خطابات من أهاليهم، أو ارسال خطابات إليهم!

ويصمت لحظة ويقول: وفى انتظار أوامر أخرى!

ويتساءل مصطفى طيبة وزملاؤه فى دهشة وغضب:

ـ أكثر من كدة إيه؟

ولقد كانو متفائلين! فقد كان المعتقلون الجدد من سجناء الرأى فى ذلك الحين على أعتاب أكبر عملية تعذيب وحشية وجماعية، وأطولها فى تاريخ مصر الملئ بالحزن والاستبداد. لقد كان عبدالناصر يجهز زبانيته ووحوشه ليرتكبوا أشنع جريمة فى تاريخ ثورة يوليو «المجيدة»!

مذكرات سعد زهران عن نظام التعذيب فى الأوردى !

الوفد فى ٩ / ٦ / ١٩٩٧

جميع النظم السياسية التى عرفها التاريخ سعت إلى التخلص من المعارضين، إما بإبعادهم ونفيهم خارج البلاد، أو باعتقالهم اكتفاء لشرهم، ولكن نظاما واحدا هو الذى قام بتعذيبهم لمجرد المعارضة فى الرأى، وهو النظام النازى. وهذا هو ما دعانا إلى وصف عبدالناصر بأنه نظام نازى (فاشى).

وقد كان هذا الوصف منا لنظام عبدالناصر فيه مجاملة شديدة، حتى لا نغضب الناصريين السعدونيين. (نسبة إلى مسرحية سعدون المجنون التى كتبها لينين الرملى) فلم يكن الشيوعيون خصوما لنظام عبدالناصر، وإنما كانوا أكبر أنصاره فى مصر، ولم يكونوا يخفون ذلك،

(١) العنوان فى الأصل: «كما يرويه الشاعر محمود شندى»! ولكن فى مقابلة لى مع سعد زهران فى مكتبى بمجلة «أكتوبر» بعد نشر هذه المذكرات، علمت منه أنه هو- وليس الشاعر محمود شندى- كاتب المذكرات! وكان مندهشا كيف وصلت إلى يدى؟ وبناء على ذلك قمت بتصحيح الاسم عند اعدادى لهذا الكتاب. وكنت قد حصلت على هذه المذكرات من قيادى يسارى كبير.

بل كانوا يعلنونه فى كل مكان، حتى اقترن النظام الناصرى باسمهم! ولم يحدث أبدا فى طول تاريخ العصر الناصرى وعرضه أن قامت مؤامرة شيوعية لقلب نظام الحكم، لقد كانت المؤامرات لقلب نظام الحكم يقوم بها الإخوان المسلمون فقط، نظرا لاعتمادهم على تنظيم سرى مسلح، ولقدرتهم على جلب الأسلحة من الخارج ومن الداخل، ولكن الشيوعيين كانوا مجرد خصوم رأى، مهما اشتد فإنه لا يصل أبدا إلى درجة التناقض! بل لعلهم كانوا مبهورين بخطب عبدالناصر العنترية ضد الإمبريالية والاستعمار أكثر من أى فريق آخر! وقد رأينا كيف خرجوا فى مظاهرة فى سجن جناح عند سماعهم عبدالناصر يعلن تأميم شركة قناة السويس، يهتفون باسمه، ويرسلون برقيات التأييد والمساندة، وهم مكبلون بالأغلال! وقام الشيوعيون فى خارج السجون بالتصدى للدفاع عن بورسعيد عندما تبعثرت القوات العسكرية المصرية نتيجة انهيار القيادة المسئولة.

وقد كافأ عبدالناصر المسجونين فى سجن جناح، الذى كانوا يتمتعون فيه بقدر من الحرية بسبب طبيعة السجن التى كانت تجعله أقرب إلى المعسكر، بنقلهم إلى سجن «المحاريق»! وهو الذى كان عبدالناصر يبنيه خصيصا لهم فى قلب الواحات الخارجة، وكان مايزال فى طور الإنشاء والبناء. وفى أول يناير ١٩٥٩ كان يقوم بحملته الهتلرية على الشيوعيين فى جميع أنحاء مصر، ليقذف بهم إلى سجن «المحاريق» وهو الذى كان عبدالناصر يبنيه خصيصا لهم فى قلب الواحات الخارجة، ليس بسبب اكتشافه مؤامرة دبروها لقلب نظام الحكم، وإنما لمجرد أنهم اعترضوا على الشكل الدكتاتورى للوحدة بين مصر وسوريا الذى ألغى الأحزاب السورية التى أبرمت مع عبدالناصر الوحدة!

وعلى هذا النحو أصبح فى سجن المحاريق فريقان من سجناء الرأى: الفريق الأول هم المسجونون المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة، والفريق

الثانى هم المعتقلون بقرار جمهورى من عبدالناصر، وكان المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة يخضعون للوائح مصلحة السجون، أما المعتقلون بأمر عبدالناصر فكانوا يخضعون لشريعة الغاب!

ولدينا فى هذا الصدد وثيقة مهمة بخط اليد، هى المذكرات التى كتبها سعد زهران، الصحفى والكاتب والمفكر، ننشرها هنا لأول مرة، تصف بدقة وبالتفصيل التجربة الجهنمية التى تعرض لها هؤلاء المعتقلون بأمر عبدالناصر فى أوردى أبو زعبل. وهى تفضح الشكل الفاشستى للنظام الناصرى أكثر من أى شىء آخر. والوثيقة بعنوان: «ماذا حدث فى أوردى ليمان أبو زعبل بدءا من ٧ نوفمبر ١٩٥٩ حتى أواخر يونيو ١٩٦٠؟» وتمضى على النحو الآتى:

«تعرض جميع نزلاء الأوردى - الذين لم يكن قد صدر بعد أى حكم قضائى فى حق أى واحد منهم - تعرضوا لأشكال من التعذيب الجماعى: البدنى، والمعنوى.

«كان ثمة نظام تعذيب صارم، يغطى أربعا وعشرين ساعة كل يوم، يطبق - دون رحمة - من جانب قوة الأوردى، المشكلة من حوالى عشرين شخصا، بين سجان وضابط وصول وطبيب وتمورجى، على رأسهم مأمور معروف بمغالاته الشديدة فى القسوة.

وفيما يلى تلخيص لذلك البرنامج اليومى:

«تفتيش الصباح:

«مع الشروق، أو بعده بقليل، أى حوالى السادسة صباحا، وبدعوى تفتيش عنابر الأوردى الستة (فى كل عنبر حوالى ستين نزيلا) تقتحم قوة الأوردى العنابر، واحدا بعد آخر. وإذ هم يقتحمون العنبر يصيحون بأعلى

الأصوات، وأقذع السباب، بينما ينهالون على النزلاء ضربا بالشوم (جمع شومة) والزخم (جمع زخمة) وهى عصا غليظة قصيرة، لا يزيد طولها على خمسين سم، فيها «قايش»، أى حزام جلدى قاس وغليظ.

«ويبدأ التفتيش أثناء عملية الضرب ـ التى لا تتوقف ـ بـ «فركشة» النظام، (والنظام هو الفرش: الأبراش والبطاطين) ودهسها بأحذية العساكر والضباط.

«ويؤمر النزلاء بالوقوف، كل فى المكان المخصص لنومه، ووجهه للحائط، ثم يؤمرون بالانحناء فى وضع الركوع، مع حل «دكة» البنطلون واللباس، وسندهما باليد اليمنى.

«ويدور السجانة والضباط والصولات على النزلاء وهم فى هذا الوضع المهين، وهم ينهالون عليهم ضربا بالشوم والزخم!

«ثم إمعانا فى المهانة، يؤمر النزلاء بالدوران، وهم راكعون وسراويلهم محلولة، يدورون فى أماكنهم، بينما صيحات الاستهزاء تتعالى من حناجر العساكر والضباط قائلة: «دور زى النحلة! دور زى الفريرة» يا بن الـ..!

«كل هذا والشوم والزخم لا تتوقف عن العمل، وبوتيرة تتزايد قسوة وسرعة، مع تصاعد الجو الهستيرى السادى الطافح فى المكان. وغالبا ما كانوا لا يتوقفون إلا بعد أن ينهار أكثر من واحد من نزلاء العنبر، ويتكومون على الأرض (مع ملاحظة أن نصيب من ينهار من الضرب يتضاعف!

«ثم تغادر قوة الأوردى العنبر إلى عنبر آخر، لتكرار نفس العملية، تاركة النزلاء وهم فى حالة مريعة من الانهاك والرهبة والمهانة.

«ولكن النزلاء يعرفون أنه ليس أمامهم إلا وقت قليل لإعادة ترتيب النظام»، وربط السراويل والألبسة، وتجميع شتات المعنويات المطحونة. فالبرنامج طويل. وهكذا يبدأ نهار الأوردى.

طابور الهتاف:

«بعد انتهاء تفتيش العنابر الستة، تحل لحظة صمت ثقيلة، يقتحم بعدها العساكر العنابر كلها فى نفس الوقت، صارخين: «طابور الهتاف»!

«يندفع النزلاء خارج العنابر، عدوا ـ دائما عدوا! ودائما الرؤوس منكسة إلى الأرض! ودائما هذا العدو مصحوب بصراخ النزلاء: شمال يمين، شمال يمين، بينما الشوم والزخم لا تتوقف ثانية واحدة عن الانهيال على الأكتاف والأعناق والظهور، حتى يصل نزلاء كل عنبر إلى مكانه المحدد فى فناء الأوردى، ويظل جميع النزلاء يقفزون فى أماكنهم، وهم يصرخون: شمال يمين، شمال يمين، شمال يمين ـ إلى أن تتوازى الصفوف والخطوط، ويضبط الجميع الحذاء، وكل شاويش يتولى، مع مساعد أو أكثر، أمر تنظيم عنبره بالضرب المكثف العنيف! إلى أن يتقدم الصول ويصيح: كله ثابت محله! فيتوقف الجميع فى أماكنهم فى نسق محكم، يشكل ثلاثة أضلاع المربع ـ نزلاء كل عنبرين مصفوفين فى ثلاثة صفوف يشكلون ضلعا واحدا من أضلاع هذا المربع الناقص.

«ثم يتقدم المأمور فى خطى عسكرية، ليقف فى منتصف ضلع المربع الناقص، ويستعرض الطوابير الساكتة الثابتة، ثم يشير إشارة فيهتف الصول: تحيا الجمهورية العربية المتحدة! ثم: «يعيش الرئيس جمال عبدالناصر» كل هتاف ثلاث مرات متتالية، والنزلاء يرددون الهتاف وراءه فى كل مرة، بينما المأمور والضباط يرصدون بعيون مفتوحة درجة إسهام النزلاء فى الهتاف بحياة الرئيس!

«ثم يساق النزلاء ـ دائما بالخطوة السريعة ـ مع الصياح: شمال يمين، والشوم والزخم تنهال دائما على الأبدان! ويعودون جريا إلى العنابر ـ مع ملاحظة أن نصيبا أوفى من الضرب يصيب من لوحظ عليه أى تراخ فى الهتاف للرئيس جمال عبدالناصر!.

طابور الرياضة:

«طابور الرياضة طابور أسبوعى، بمعنى أن كل عنبر من العنابر الستة لا يصيبه هذا الطابور الا مرة واحدة فى أيام الأسبوع (يوم لكل عنبر) فالجمعة عطلة، ربما لأن الذين خططوا برنامج التعذيب رأوا أنه من الصعب على البشر، حتى فى معسكرات التعذيب - أن يتحملوا مثل هذا الطابور أكثر من مرة واحدة كل أسبوع!

«يساق نزلاء العنبر الذى عليه الدور إلى فناء السجن فى حوالى السابعة صباحا، حيث يكرهون دائما - بفعل الشوم والزخم - على الجرى السريع، والدوران حول الفناء مرات عديدة، إلى أن تنقطع أنفاسهم.

«ثم يجبرون على عمل تمرينات عجيبة، لا تمت للرياضة بسبب، إنما المقصود بها الاهانة، والتعذيب، والتنكيل والمسخرة!

«ومن أمثلة ذلك ما كانوا يسمونه «التمرين الثالث»، أو «تمرين الضغط»، حيث يتمدد الشخص ووجهه إلى أسفل، مستندا إلى الكفين ومشطى القدمين، ويعلو بصدره ثم يهبط بمد الذراعين ثم ثنيهما.

«وتحت وقع الشوم والزخم يتكرر الضغط: المد والثنى، مرات عديدة تفوق القدرة البشرية! إلى أن ينال الانهاك من البعض، فيتمدد شبه مغشى عليه، ووجهه فى التراب!

«عندئذ يتقدم المأمور وضباطه، ليدوسوا بأقدامهم على الأجساد المنكفئة على التراب! فيتبعهم العساكر، وقد نال منهم الحماس، واستبدت بهم النشوة، يدوسون، ويقفزون بأحذيتهم على الأجساد البشرية المددة! وهم يضجون بالبذاءات المنتقاة من الحضيض!

«وبعد ساعة تقريبا من هذا التعذيب المروع، والمهانة البالغة، يصدر الأمر من الصول: الزحف تقدم»! وذلك هو المنظر الختامى فى ذلك

التعذيب الرياضى، وفيه يكون النزيل فى وضع القرفصاء، ويداه معقودتان على خصريه، ويؤمربالسير هكذا وصولا إلى العنبر!

«وطبعا هذا وضع تصعب فيه الحركة، ولكن الشوم والزخم تتكفل بجعل المستحيل ممكنا! إنماالمؤسف بصفة خاصة، كان حال كبار السن أو ضعاف البنيـة، أو من ألم به مرض أو أصيب بجرح فى قدمـه، فهؤلاء حركـتهم أبطأ، ومعاناتهم مضاعفة أضعافا عديدة!».

فلسفة
تعذيب المعوقين !

الوفدفى ١٦/٦/١٩٩٧

فى مقالنا السابق بدأنا فى عرض نظام التعذيب فى أوردى أبو زعبل، من واقع مذكرات سجين سياسى - هو سعد زهران - عاش التجربة المروعة التى أعدها عبدالناصر لسجناء الرأى من الشيوعيين، انتقاما منهم لمجرد خلافهم فى الرأى معه حول الوحدة المصرية السورية، عندما مد نظامه الدكتاتورى الذى كان يفرضه على مصر إلى الشعب السورى، وقام بتصفية وضرب الأحزاب السورية التى سعت إلى الوحدة إلى مصر، وجازاها على ذلك جزاء سنمار، فى الوقت الذى كان يرسل المشير عبدالحكيم عامر نائبا عنه ليحكم سوريا بنفس الطريقة التى كان يحكم بها مصر. فعندما اختلف الشيوعيون مع عبدالناصر حول قضية الديموقراطية، قام فى أول يناير ١٩٥٩ بحملة واسعة النطاق اعتقلت جميع الشيوعيين، فى الوقت الذى كان زبانيته يعدون لهم نظام تعذيب حافل لم تعرفه النظم النازية والفاشية.

ففى مقالنا السابق حدثنا سعد زهران صاحب هذه المذكرات، عن بعض بنود هذا النظام «الجهنمى»، وقد بدأ بالبرنامج اليومى، وأوله ما عرف باسم «تفتيش الصباح»، ثم «طابور الهتاف»، ثم ما عرف باسم «طابور الرياضة» الذى ذكر أنه كان طابورا أسبوعيا لا يوميا، نظرا لأن الذى خططوا برنامج التعذيب رأوا أنه من الصعب على البشر، حتى فى معسكرات التعذيب، أن يتحملوا هذا الطابور أكثر من مرة واحدة فى الأسبوع.

وقد ذكر سعد زهران أن الهدف من هذا الطابور لم يكن الرياضة، وإنما كان المقصود هو الاهانة والتعذيب والتنكيل والمسخرة! وضرب المثل بما كانوا يسمونه «التمرين الثالث»، أو «تمرين الضغط» الذى كان ينتهى بسقوط سجناء الرأى مغشيا عليهم ووجوههم فى التراب، ليدوس عليهم المأمور والضباط بأحذيتهم، ويتلوهم العساكر فيتناوبون القفز على أجسادهم بأحذيتهم، وهم يضجون بالبذاءات المنتقاة من الحضيض! ثم يتلو ذلك صدور الأمر لسجناء الرأى بالزحف فى وضع القرفصاء مع عقد اليدين على الخصرين، فإذا عجز البعض عن مواصلة الزحف على هذا النحو حتى العنبر، تكفلت ضربات الشوم والزخم بحملهم على مواصلة الزحف خصوصا مع الضعفاء وكبار السن.

ويمضى سعد زهران فيقول: إن المبالغة فى القسوة والفظاظة تجاه كبار السن وضعاف البنية لم تكن مجرد نزوة، وإنما كانت ـ على حد قوله ـ وراءها فلسفة خاصة، استلهمها مخططو برنامج التعذيب ومنفذوه، تتلخص فى أن مثل هذه المعاملة تحول دون التصنع! ـ أى تجعل أى واحد من النزلاء تحدثه نفسه بمحاولة تصنع المرض أو الضعف، يحجم عن ذلك. لأنه يرى أن ذلك سيؤدى إلى مضاعفة نصيبه من التعذيب، ولا يؤدى إلى التخفيف عنه!

ومن أمثلة هذه المعاملة المبالغ فى قسوتها ـ كما يقول ـ أنه إذا كان النزيل مصابا بشلل أطفال، أو ببتر فى أحد أطرافه، ومن ثم لا يستطيع المشاركة فى طابور الرياضة، فإنه كان يؤمر بالركوع على ركبته (أو ركبتيه) ووجهه إلى الحائط، ورأسه منكس، وذلك فى مكان رشت أرضه بكمية الحصى البازلتى الذى يقترب من الزجاج المكسور فى حدته! وإذا كان الجو باردا، يوضع فى مكان لا تصله الشمس، أرضه مبللة! وإذا كان الجو صيفيا قائظا، يوضع فى مكان مشمس قائظ،مع أمره بتنحية الطاقية!

طابور العمل:

«بعد طابور الرياضة ببضع دقائق، يقتحم كل شاويش عنبره صائحا: العمل!

«فيندفع النزلاء خارج عنابرهم عدوا ـ دائما عدوا، ودائما يرددون : شمال يمين! ودائما تحت ضربات الشوم والزخم! ـ ليتكوموا بعد قليل فى الفناء، وهم فى وضع القرفصاء، مصفوفين فى نظام محكم!

و«كل شاويش يعد النزلاء الذاهبين فى عهدته للعمل فى الجبل ـ أى فى تكسير البازلت وغيره من الأعمال الترابية فى جبل أبو زعبل!

«ولن أستطرد فى وصف برنامج التعذيب فى الجبل، وهو برنامج كان يستمر بين أربع وخمس ساعات، ذلك أن حالتى الجسمانية لم تكن تسمح بتشغيلى فى الجبل، ومن لم تكن حالته تسمح، يسمى فى لغتهم: «الدرجات»! وهذا ما سأعنى بالحديث عنه فى الفقرة التالية!

نظام عمل «الدرجات»

«الدرجات» ـ كما أشرنا ـ هو اسم يطلق على الذين لم تكن حالتهم الجسمانية، أو الصحية، تسمح لهم بالعمل فى تكسير البازلت وغيره من الأعمال الترابية فى جبل أبو زعبل ـ مثل: المصابون بشلل الأطفال،

والمصابون ببتر فى أحد أطرافهم، والمصدورون، والمصابون بحالات بينة من الهزال أو الضعف الشديد، والطاعنون فى السن.

والمفروض أن العمل الذى يكلف به «الدرجات» أى مسجونو نظام «الدرجات» يكون أخف وأقل مشقة، ولكنه كان فى الواقع أشد قسوة، وأكثر مهانة!

«وذلك ـ كما سبق أن ذكرنا ـ أمر مقصود، لكى لا يعمد أحد من النزلاء القادرين إلى تصنع المرض، أو ادعاء الضعف.

«وهذا ما كان يحدث بالفعل، فقد كان النزلاء الذين يعملون فى الأشغال الشاقة، يتحملون الأهوال فى الجبل، ويفضلونه على العمل فى الأوردى مع «الدرجات»!

«وفى الأوردى كان مسجونو «الدرجات» يقومون بأعمال «التنظيف» والغسيل «الترميم»، ولكنها ألفاظ بريئة لا تدل على حقيقة ما كان يجرى!

«لقد كان مسجونو «الدرجات» (وعددهم ١٤ سجينا) يساقون للعمل سوقا بواسطة شاويش خاص، يختار من بين أشدهم قسوة وغلظة، لكى يعتمد عليه فى تطبيق مبدأ معاملة المعطوبين وذوى العاهات، والمسنين، بقسوة أشد من معاملة الأصحاء والقادرين.

«وكم كان مثيرا حقا منظر طابورهم الصغير ـ وبعضهم يزحف على ...ض زحف العاجزين عن المشى ـ يكنسون ويمسحون، ويحملون القمامة ...ل المال والنفايات البشرية. ووراءهم ذلك الشاويش بشومته المهولة، ... بها على أكتافهم وظهورهم ورقابهم، أو ينهال صفعا على وجه أى ...حد منهم متى شاء، أو يدوس عليه بقدمه، أو يركله بحذائه.

«كان مسجونو «الدرجات» إمعانا فى التنكيل والبهدلة، يكلفون بكنس فناء السجن، والممرات التى تفصل بين العنابر ـ ومجموع مساحتها لا يقل عن

فدان! ـ مستخدمين الأكف العارية! وفى أول عهدهم بالعمل، طلب أحدهم «مكنسة» ، فما كان من شاويش «الدرجات» إلا أن لعن أباه وأمه، وقذفه بأقذع السباب، وانهال عليه ضربا ولطما ولكما حتى تكوم! فعرف مسجونو الدرجات أنه لا مكانس، وإنما الكنس بالأكف العارية!

«وكان من تقاليد منفذى برنامج التعذيب فى الأوردى ـ إذ لم تكن ثمة تعليمات واضحة معلنة سلفا ـ أن النزلاء إذا طلبوا شيئا، أو سلكوا سلوكا معينا، كانوا يضربون ضربا مروعا فوق العادة! فيعرفوا أن هذا أو ذاك غير مسموح به ـ أو «مش مصروف لك يا مسجون» ـ فى لغة الأوردى!

«ومن ثم كان النزلاء يهتدون إلى قواعد الحياة «الأوردوية» من خلال التجربة أى الوقوع تحت جرعات مضاعفة من الضرب، ثم التجربة مرة أخرى، فالضرب المضاعف مرة أخرى.. وهكذا. وصولا إلى المطلوب!».

«ومن بين عمليات النظافة، كان تنظيف الاسبتالية (أى مستشفى الأوردى) أكثر ما تكون مشقة! كانت الاسبتالية مكانا كئيبا جدا: حجرة كبيرة نوعا (حوالى ٥×٨ متر) بلاطها من الحجر البازلتى الأسود الشديد القساوة والوعورة، عالية الجدران (أكثر من أربعة أمتار)، وشبابيكها المسيّجة بقضبان غليظة سوداء، تقترب من السقف، ولا تبدد من الظلمة المتكاثفة، الاقليلا.

«ولكن هذه أمور يمكن أن تكون محتملة!

«إنما الأمر غير المحتمل حقا، كان هو حال المرضى ـ أى حال الزملاء الذين يرميهم سوء الطالع فى هذا المكان!

«فطبيب الأوردى، وهو لا يختلف عن شاويش «الدرجات» الا فى الملبس وفى أنه لا يحمل فى يده شومة ـ هذا الطبيب لم يكن يكتب كلمة

«ملاحظة» (أى وضع النزيل تحت الملاحظة الطبية فى المستشفى) ، إلا بعد أن يكون النزيل قد قارب على الموت!

«وغالبا ما كان المأمور يأمر العساكر باجراء «اختبارات تصنع»! لكى يتأكد - على حد قوله - من أن الولد ده ما بيدلعش، وما بيدعيش المرض!

«وغنى عن الذكر أن «اختبارات التصنع» هذه، لم تكن الا : كميات مهولة من الضرب بالشوم والزخم، والركل بالأحذية، والدوس بالأقدام ولاينجح النزيل فى هذه الاختبارات الا إذا كان عاجزا عن أن تبدر منه أية ردود فعل، أى أن يكون - باختصار - بينه وبين الموت شعره!

«وكان المرضى يوضعون، وهم فى حالة لا توصف من المرض والوهن والضعف، تحت رعاية شاويش الاسبتالية، وهو أشد الجميع ضراوة وقسوة وبذاءة لسان!

«ولنا بعد ذلك أن نتصور حال الاسبتالية من كآبة وقذارة! وكان مسح أرضية الاسبتالية، وحمل جرادل البول والنفايات البشرية ذات الروائح المريعة - كان ذلك من المهمات الفظيعة التى تصيب مسجونى «الدرجات» بجرعات إضافية من الغثيان!

«بعد ذلك ينتقل «الدرجات» (أى مسجونو نظام الدرجات) لتنظيف الحمام، وإعداده لاستقبال نزلاء العنبر الذى عليه الدور فى الحمام فى اليوم السابق: لكل نزيل سروال، وجاكتة، ولباس وقميص داخلى وطاقية (المجموع أكثر من ثلاثمائة قطعة! أى بمتوسط أكثر من عشرين قطعة غسيل للشخص الواحد من «الدرجات»!

«وكان الغسيل يتم فى أحواض مرتفعة نسبيا، وهو ما يتطلب الوقوف أكثر من ساعتين متتاليتين!

«ولنا أن نتصور العبء الجسدى الذى يتحمله البعض، خاصة المصابين بشلل أطفال، أوبتر الساق!

«وكانت تفاصيل عملية الغسيل الأخرى مصممة - شأنها شأن كل ما يحدث فى «الأوردى»!- لكى تتضمن جرعات مستمرة من العذاب والتعذيب!

«ومن بينها - على سبيل المثال - أن الماء الذى ينصب من الحنفيات فى أحواض الغسيل، يأتى فى حالة تقرب من الغليان! ولم يكن شاويش «الدرجات» يقتنع بالانتظار قليلا حتى تهبط درجة حرارة الماء قليلا وتصبح فى حدود الاحتمال. فوفقا لتعليمات المأمور المشددة،كان «ممنوع الدلع»! والمقصود بالدلع أن يتوقف أى واحد من «العيال ولاد الـ.. دول» عن العمل لحظة واحدة، وعندئذ كانت «الشومة» لا تتوقف عن أن تنهال على الأكتاف والظهور والرقاب! مع كل السباب المتصور، لاقناع ولاد الـ.. أن استخدام الأيدى العارية للغسيل بالماء القريب من درجة الغليان، أمر ممكن!

فن إهدار آدمية المعوقين!

الوفد في ٢٣/٦/١٩٩٧

في مقالنا السابق عن تعذيب المعوقين في ليمان أوردي أبو زعبل، رأينا أن هذا التعذيب لم يكن عشوائيا، وإنما كانت وراءه فلسفة جهنمية تستهدف منع تصنع المرض من جانب سجناء الرأي للهرب من التعذيب، وذلك عن طريق مضاعفة تعذيب المعوقين، الذين لا تسمح حالتهم الجسمانية أو الصحية بالعمل في الجبل، مثل: المصابون بشلل الأطفال، أو ببتر أحد أطرافهم، أو الضعفاء والطاعنون في السن.

فنظام عبدالناصر في شراسته ضد مخالفيه في الرأي - حتى ولو لم يرفعوا السلاح ضده - لم يكن يفرق بين صاحب رأي سليم الجسد وصاحب رأي مبتور القدم أو مصاب بشلل أطفال، أو مصدور- فالكل يقذف بهم في الجحيم، والكل يدفعون ثمن مخالفتهم عبدالناصر في الرأي، والضعفاء يدفعون قبل الأقوياء!

وكل ذلك يتم وفقا لنظام تعذيب محكم، وفى إطار فلسفة شيطانية لا تدع صغيرة ولا كبيرة الا وقد حسبت حسابها بما يضاعف الألم والعذاب على سجناء الرأى، وهو ما عرفنا بعضه فى مقالنا السابق فيما يختص بتعذيب المعوقين، ونواصل عرضه فى هذا المقال من واقع مذكرات سعد زهران.

لقد عرض لنا صاحب المذكرات كيف اتخذ زبانية الأوردى من عملية غسيل ملابس سجناء الرأى وسيلة لمضاعفة العذاب، فكان الغسيل يتم فى أحواض غسيل ينصب فيها الماء من الحنفيات فى حالة تقرب من الغليان! فإذا توقف أحد المعوقين عن العمل لحظة واحدة، انهالت الشومة على كتفه وظهره ورقبته، مع السباب اللازم، لاقناع السجين بأن الغسيل فى درجة الغليان أمن ممكن!

.ومن التفاصيل الأخرى فى عملية الغسيل - كما يقول سعد زهران - أن الصابون كان سائلا، وذلك - على حد تعبير المأمور - لكى لا يسرقه «العيال ولاد ال.. دول»!.

«ولا مجال لوصف الصابون السائل هنا، ولكن المؤكد أن الغسيل، كعملية مقصود بها تنظيف ملابس النزلاء، كان آخر ما يعنى بالتفكير فيه مخططو برامج التعذيب!

وباختصار، كانت عملية الغسيل فى جملتها عملية «ظروطة»! ولكن لما كانت كمية القذارة فى الملابس مهولة، بسبب غبار العمل فى الجبل الممزوج والمعجون بالعرق، والدماء المتجمدة على الملابس نتيجة الجروح الناتجة عن إصابات العمل أو الضرب بالشوم، وإفرازات الدسنتاريا، والبواسير، والطفيليات المعوية وغيرها من الأمراض الوبائية المتوطنة فى مثل هذه الظروف - فمن هنا فإن نتيجة عملية الغسيل كانت لا تسر، هذا فضلاً عن أنها كانت تثير الغثيان، ليس فقط أثناء الغسيل ونشر الغسيل، وإنما أيضاً أثناء العمل فى «الترميم»! - كما سيرد وصفه بعد قليل.

وبعد هذا الغسيل يحمل كل واحد من «الدرجات» ـ وهو الاسم الذى يطلق على المعوقين ـ نصيبه من الملابس المبلولة على ذراعيه وكتفيه، ويتوجه الجميع إلى المنشر، حيث يقومون بجمع غسيل اليوم السابق، الذى لا يكون غالباً قد تم جفافه بعد، لضيق المكان، ثم ينشرون غسيل يومهم.

«ثم يتوجه طابورهم البائس، يسوقهم شاويش «الدرجات» ـ دائماً بضربات الشومة! ـ إلى غرفة «الترميم»، حيث يجرى تخزين الملابس النظيفة، وترميم ما عساه أن يكون قد تمزق أو تهرأ منها.

«وغرفة الترميم» هذه هى بنفس حجم غرفة «الاسبتالية»، وتضاهيها إظلاماً وكآبة، وربما تتفوق عليها إثارة للقرف والغثيان!

«فالملابس المكدسة فى الغرفة، وإن يكن قد تم غسلها ونشرها فى أيام سابقة، الا أنها ليست نظيفة بأى مقياس، كما أنها ليست جافة. وإنما هى رطبة رثة معجونة بمزيج من الطين والافرازات البشرية، وغالبيتها لزج تفوح منه روائح مثيرة للغثيان!

«وإذا أخذنا فى الاعتبار أن شهور التعذيب كان غالبيتها فى فصل الخريف والشتاء، فان الملابس التى يتكدس بعضها فوق بعض وهى نصف مبتلة، توضح مقدار العطن والعفن الذى كان يملأ المكان!

«وقد كان» الدرجات مكلفون بفرز هذه الملابس» فى العنبر الذى عليه الدور فى الحمام، «وترميمها»! وبالله، كيف يمكن ترميم ملابس على هذه الحال؟ ولكن الشومة كانت تتكفل بإقناع «الدرجات» بأن هذا ممكن! حقا، إن للكائن البشرى قدرة عجيبة على التأقلم والتحمل!

«بعد ذلك يحمل «الدرجات» الملابس «النظيفة» التى تم ترميمها، ويتوجهون بها إلى الحمام، حيث يصرفونها لنزلاء العنبر الذى عليه الدور فى الحمام، ويتسلمون منهم الملابس القذرة لغسلها فى اليوم التالى.

«الحمام:

«دخول الحمام مكتوب على نزلاء كل عنبر مرة واحدة فى الأسبوع، حيث يدور على كل واحد من العنابر الستة فى أيام الأسبوع الستة (الجمعة عطلة). وموعده بعد عودة العمل من الجبل، أى حوالى الواحدة والنصف بعد الظهر.

«ويكون النزلاء فى حالة بينة من الإرهاق: يلمع العرق على جباههم ورقابهم، ويبلل معظم ملابسهم، ويتصبب ممزوجا بالأتربة، وأحيانا بدماء تسببت فيها إصابات العمل أوضربات طائشة من العساكر والضباط، الذين يسوقونهم أثناء كسر الزلط وحمل التراب فى الجبل.

«وقد استخدمنا كلمة «طائشة» لأن التعليمات كانت واضحة: أكبر كمية من الضرب، ولكن على نحو لايتسبب فى قتل مباشر، أو إحداث جروح أو اصابات تترك أثرا.

«وربما يتصور غير المجرب أن الحمام، والحالة هذه، يعتبر نعمة لهؤلاء النزلاء المرهقين الموسخين، ولكن أبدا! فالحمام، مثل كل شىء فى الأوردى، لم يكن إلابندا فى برنامج التعذيب!

«يخلع النزلاء ملابسهم، تحت الضرب المكثف بالشوم والزخم - كالعادة - ويصطفون فى طابور خارج الحمام، فى الهواء الطلق! ويضبطون الحذاء، وهم يصرخون كالعادة: شمال يمين، شمال يمين، شمال يمين!

«وفضلا عما فى هذا المنظر من همجية ومهزأة، وإهدار لآدمية البشر، وحيائهم، فان هذا الخلع فى العراء - وغالبية أيام التعذيب كانت فى الخريف والشتاء - كانت له نتائج وخيمة على صحة النزلاء.

«وبعد أن يشبع شاويش العنبر الذى عليه الدور، وشاويش «الدرجات»، والضابط النوبتجى، والمأمور، ويستمتعوا بهذا المنظر الهمجى، ويشبعوا

النزلاء ضربا وإهانة، ويقذ فونهم بجرعة مضاعفة من البذاءات ـ المستلهمة من المنظر البذيء! ـ يساق النزلاء بعدها إلى داخل الحمام. وعند المدخل يصب أحد «الدرجات» فى راحة كل منهم بضع قطرات من «الصابون السائل»، وفى أعقابه يدخل اثنان من العساكر على الأقل.

«ولما لم يكن فى الحمام الاعدد قليل من الادشاش، فان النزلاء كانوا يتزاحمون تحت هذا الدش أو ذاك، فيكون تحت كل دش ثلاثة، وربما أكثر لأن بعضها معطل. كل ذلك والشاويشية تصرخ وتسب وتضرب مطالبين النزلاء المستحمين بالنظام!!

«ثم يفتح محبس الماء، فتتدفق من الأدشاش دفقات من ماء ساخن إلى درجة الغليان فى لحظة! ويعقبها فى اللحظة التالية دفقات من ماء بارد كالثلج! وويل لمن يصدر عنه صوت أو أية ردود فعل تعبر عن دهشة أو ألم. فكل رد فعل يعتبر فى نظر منفذى برنامج التعذيب يعتبر نوعا من «الدلع»!

«وكانت تعليمات المأمور، الذى لم يكن من النادر أن يأتى ليتسلى، ويتفكه بالمنظر الهمجى، تعليمات مشددة بأخذ كل شكل من أشكال «الدلع» بما يستحقه من قسوة متناهية، «علشان نعلم العيال دول ازاى يبقوا رجاله!» ـ على حد تعبيره!

«ويعد حوالى عشر دقائق، يخرج «المستحمون» عرايا إلى العراء! وأجسادهم تقطر ماء، وتتصاعد الأبخرة من أجسام البعض! حيث يتولى نزلاء «الدرجات» تسليم كل واحد ملابسه، فتجرى عملية لبس تلك الملابس الرطبة العفنة!

«ثم ينتظمون فى طابور العودة إلى العنبر، تحت ضربات الشوم والزخم ـ كالعادة! ـ وبالخطوة السريعة، والصراخ: شمال يمين، شمال يمين!

طابور الغداء:

بعد هذا الحمام، يعود «الدرجات» إلى عنابرهم. ثم لاتمضى بضع دقائق حتى يقتحم الشاويش العنبر صائحا: الغدا ! فيندفع النزلاء خارجين فى طابورهم الأولى: واحدا بعد واحد، ودائما بالخطوة السريعة، ودائما تحت وقع الشوم والزخم، ودائما وهم يصرخون بأعلى صوت: شمال يمين، شمال يمين، شمال يمين!

«ويظلون كذلك إلى أن يصلوا إلى مكان قرب بوابة السجن، حيث يقف واحد من عساكر قوة الأوردى، فيعطى كل واحد من العدائين فى إحدى اليدين ثلاثة من أرغفة السجن ساخنة (أحيانا تكون ساخنة جدا جدا!) «ويواصل النزيل عدوه وصياحه: شمال يمين، إلى المكان المرصوصه فيه قراوانات الغداء، فينحنى بسرعة خاطفة، ليلتقط واحدة منها، ويستمر يجرى ويصيح: شمال يمين، شمال يمين!

«وكل ذلك دائما تحت ضربات الشوم والزخم، والأرغفة الملتهبة فى يد، والقروانة فى اليد الأخرى، إلى أن يعود كل إلى عنبره.

«ويلاحظ أن قوة السجن كلها تكون موجودة وقت طابور الغداء، ويكون العساكر والضباط هم أيضا فى حالة لاتخفى من الإرهاق والضيق. لذلك كان الضرب الذى ينهال على النزلاء أثناء طابور الغداء، يتميز بقدر أوفى من الجفاف والشدة والغزارة، وإن كان السباب والنكات البذيئة أقل!».

برنامج غذاء الأوردى !

الوفد فى ٣٠/٦/١٩٩٧

مذكرات سعد زهران التى ننشرها لأول مرة على صفحات «الوفد»، عن وقائع تعذيب سجناء الرأى فى أوردى ليمان أبو زعبل، والتى كتبها بخط اليد تحت عنوان: «ماذا حدث فى أوردى ليمان أبو زعبل بدءا من ٧ نوفمبر ١٩٥٩ حتى أواخر يونيو ١٩٦٠» - سببت كوابيس» لكثيرين من القراء! الذين لم يكونوا يتصورون أن تبلغ وحشية نظام عبد الناصر هذا الحد الذى لم يسمعوا بمثله حتى فى الأساطير! وقد دهش الكثيرون للدقة البالغة التى وصف بها سعد زهران وقائع التعذيب، والتى شملت كل التفاصيل الصغيرة والكبيرة، فضلا عن الأوصاف التى جسمت مافعله زبانية التعذيب فى سجناء الرأى بشكل يقرب من التصوير السينمائى، حتى لقد تعجب البعض كيف لايخرج أحد المخرجين السينمائيين هذه القصة، التى لاتحتاج إلى سيناريو لفرط ما حفلت به من تفاصيل تناولت كل شىء؟

وقد كان ردى أنه لايوجد فى مصر مخرج أو منتج يجرؤ على إخراج قصة أوردى أبوزعبل، فى وسط التضليل الذى ينشره الناصريون فى صحيفتهم وبأقلام كتابهم، والذى يصور عبد الناصر فى صورة البطل الأسطورى الذى لم تشهد مصرله مثيلا، على الرغم من أن اسرائيل احتلت سيناء فى عهده مرتين، وعلى الرغم من أنه مات وسيناء مازالت تحتلها القوات الاسرائيلية وتذرع كل ذرة من ترابها!

وفى الوقت نفسه فإن نظامنا السياسى، الذى منع عرض فيلم «الكرنك» على شاشة التليفزيون المصرى، على الرغم من أن ممدوح الليثى الذى أخرجه كان يسيطر على قطاع الانتاج! لن يرحب بفيلم يتحدث عن بشاعة حكم عبد الناصر وامتهانه لحقوق الانسان وتنكيله بالمفكرين، خصوصا وهو يزايد على الناصريين، ويتوهم أنه امتداد لهذا الحكم الدموى، على الرغم من بعد الشقة بين العهدين لدرجة التناقض!

أما بخصوص دقة سعد زهران فى وصف وقائع التعذيب فى أوردى أبو زعبل، فالسبب فى ذلك واضح وهو أنه كاتب، ومعوق، واحساسه بالتعذيب - بالتالى - أقوى، فضلا عن ذاكرة قوية واعية تسجل كل شيء، خصوصا ولم يكن هذا التعذيب لمدة يوم واحد، أوبضعة أيام، وانما استمر سبعة أشهر كاملة، وبدون توقف! كما أنه لم يقتصر على سعد زهران،وإنما شمل جميع سجناء الرأى بدون استثناء.!

وعلى كل حال فعلينا الآن أن نتابع مذكرات سعد زهران، لكى نلم إلماما شاملا بنظام التعذيب الذى خضع له سجناء الرأى فى أوردى أبوزعبل، بدون أى ذنب جنوه على الاطلاق إلا خلافهم فى الرأى مع عبد الناصر!

ونبدأ أولا بنظام الغذاء الذى أعده زبانية التعذيب لسجناء الرأى، كما وصفه سعد زهران بدقة:

الغذاء :

«تحتوى قروانة وجبة الغداء فى نحو الثانية بعد الظهر، على العدس فى يوم والفول فى اليوم التالى، وهكذا!

«أما قروانات وجبة العشاء، التى توزع عند الغروب تقريبا، فتحتوى على شىء يسمونه (اليمك»، ويقولون إن أصله خضار مأخوذ من مزرعة الليمان، يغلونه مع أنواع غريبة «زنخة» من الشحوم، «والجلود القاسية» التى يسمونها لحوم!

«هذا باستثناء يوم الجمعة، الذى يسود فيه الفول فى وجبتى الغداء والعشاء معا (الطرفان فول ـ على حد تعبيرهم!) أما الجراية ـ أى الخبز ـ فتوزع أرغفته الثلاثة مع وجبة الغداء!

«ومن الصعب جدا على من لم يجرب ـ إن لم يكن من المستحيل! ـ أن يتصور خبز السجن، وفوله، وعدسه، ويمكه! ولو جربه، لما تمناه لعدو أوحبيب!

«يكفى أن نذكر ـ على سبيل المثال ـ أن النزلاء كانوا ـ خاصة فى أيامهم الأولى فى الأوردى ـ يعافون أكل الفول المسوس، ومن ثم كانوا يحاولون تنقيته، فيستخرج الواحد منهم من الفولة الواحدة نحو خمس أوست سوسات فى المتوسط!

«ولما كانت القروانات ترص فى العراء، حيث يغرف فيها الفول والعدس واليمك الساخن، ولما كان المكان شديد القذارة ـ فان القروانات كانت تجتذب أسرابا مخيفة من ذباب أبوزعبل الصحراوى الثقيل، يتضاعف عدده بصفة خاصة فى المساء، فيتساقط هالكا فى اليمك الساخن ـ عشرات فى كل قروانة!

«أما الصراصير، فكنا نعثر عليها فى الخبز، مطمروة ومسلوقة فى القلب العجينى للأرغفة المخبوزة على عجل! هذه الأصناف من الحشرات، كان مضافا إليها - بداهة - كميات من الحصى والأتربة مما تجود به مطابخ الليمانات فى أسوأ حالاتها!

«وعلى الرغم من كل ذلك، فانه، مع الوقت، وتراكم عوامل الإرهاق والاستنزاف البدنى والمعنوى، ودفعا لمخاطر الهلاك العاجل الذى تقوده الغريزة البدائية، فان النزلاء سرعان مافقدوا نعمة التذوق! واندفعت غالبيتهم الساحقة إلى التهام كل مايلقى اليهم من تلك السموم الضارة والنفايات الغذائية الكريهة (استغفر الله، ولكن ماذا يمكن أن يقال؟).

العمل الإضافى:

«عادة ماينتهى النزلاء من عذاب وجبة الغذاء فى وقت يتراوح بين الثانية والنصف، والثالثة مساء، وتعقب ذلك فترة راحة (فى لغتهم: تقييلة!) تمتد ساعتين أو أكثر حسب طول ساعات النهار، إلى أن تحين مواعيد تنفيذ النقاط التالية فى برنامج التعذيب اليومى! أى: تفتيش المساء، وطابور هتاف المساء، وطابور وجبة العشاء! - وكلها تتكرر على نفس القسوة والغظاظة التى تجرى بها فى مطلع النهار ومنتصفه!

«ولكن هذه الراحة - أو التقييلة» - ليس مقصودا منها أن تكون راحة للنزلاء من سجناء الرأى، وانما هى راحة لأفراد قوة الأوردى من العساكر والضباط! أما النزلاء، فمحظور عليهم، طيلة ساعات النهار، فرش الأبراش، أو استخدام البطاطين! إنما يظلون قابعين هكذا، على مؤخراتهم، مكومين على الأرض الأسمنتية القاسية الشديدة البرودة والرطوبة!

« أكثر من ذلك، غالبا ماكانت تمتلىء تلك الساعات الثلاث بأشكال من العمل الاضافى! كأن يساقوا، بقوة حراسة خارجية، لتفريغ حمولة قطار

محمل بالأحجار الجيرية أو البازلتية، أو تنظيف وتسوية الأرض والطرقات المحيطة بالأوردى! أونزح مياه آسنة! وكل ذلك ـ كالعادة ـ تحت الضرب العنيف المكثف!

الليل:

«وبعد مزيد من الضرب والبهدلة فى البنود المسائية الثابتة من برنامج التعذيب اليومى، وهى: تفتيش المساء، وطابور هتاف المساء، وطابور العشاء ـ يعود النزلاء إلى عنابرهم، يتجرعون «يمكهم»، ويلوكون مابقى من خبزهم، ويفرشون الأبراش، ويفردون البطاطين.

«وفى البداية، كان النزلاء من سجناء الرأى يتصورون أن الفترة الليلية، التى تمتد بين إغلاق العنابر عليهم مع هبوط الظلام حتى اقتحام العنابر عليهم مع طلوع النهار ـ كانوا يتصورون أن هذه الفترة هى للنوم والراحة، وهدنة ـ هم فى أشد الحاجة إليها ـ من البنود العنيفة للعذاب والتعذيب.

«وقد استخدمنا عبارة: البنود العنيفة للعذاب والتعذيب»، لأن النوم فى الأوردى ـ نعم، النوم فى الأوردى ـ كان يعتبر عملية تعذيب قائمة بذاتها!

«فلا يدفع غائلة البرودة والرطوبة التى تنضح بها الأرضية الأسمنتية أو البازلتية، سوى البرش! وكان (أولا) ضئيل الحجم (٥٠×١٧٠سم على الأكثر) يضيق بحركة الجسد وتقلباته أثناء النوم. ثم هو مصنوع من حبال «لوف» النخيل المجدول، مسمارى الملمس، شديد القساوة، لابد للتخفيف من قساوته من فرش شىء عليه، والإخمش الأبدان كأظافر القط أو أسنان الفيران!

«ولكن الليل قارس البرودة، خصوصا فى صحراء أبوزعبل، التى تعوى فيها الريح وتصفر غالبية ليالى الخريف الكئيب، والشتاء المشئوم!

«ففى كل من جدارى العنبر الطويلين، ثمانية شبابيك، عليها قضبان غليظة سوداء، تمنع الهرب،ولكنها تسمح بانصباب الريح الباردة إلى داخل العنبر! ومن ثم، فدرجة الحرارة فى الداخل لاتختلف عن درجة الحرارة الشديدة الانخفاض فى الخارج، وإن كانت الرطوبة فى الداخل تجعل الحال فى الداخل من بعض الوجوه، أسوأ من الخارج!

«لذلك لم تكن البطانيتان الصغيرتان النحيلتان لتدفعا من غائلة البرد فى ليل الشتاء، الا قليلا: ورغم ذلك فقد كان من الضرورى تخصيص جزء منهما للفرش على البرش! وكانت القاعدة أن يفرش النزيل نصف بطانية تحته على البرش، ويتغطى ببطانية ونصف!

«ولم تكن هذه عملية سهلة، بل كانت تحتاج إلى مهارة خاصة، وخبرة ليست قصيرة! كانت تحتاج إلى نوع من الأكروبات التعيس، يمارسه النزيل وهو بين اليقظة والنوم، مرات غير محدودة على امتداد ساعات الليل، وهو فى صراع غريزى يائس ضد البرد وقساوة الفراش!

«أكثر من ذلك، ففى أعلى أسوار الأوردى، وفوق مبنى ادارى صغير إلى جواره، كانت توجد ستة أبراج خشبية صغيرة، يتسع كل منها لحارس ليلى، يتغير كل ساعتين، وتنص التعليمات على أن يصيح كل واحد من هؤلاء صيحة التمام، مرة كل ربع ساعة على الأقل! فيصيح الحارس الأول: «واحد! تمام» (ممطوطة) وبعد أن ينتهى، يعقبه الثانى: «اثنين! تمام»، والثالث:» تلاتة! تمام!، هكذا حتى السادس الذى يصيح: «ستة لتمام»!

«نوبة متصلة مكونة من ست صيحات فى قلب الليل، يتبارى فيها الحراس فى تعلية صراخهم، ومط نداءاتهم! وكثير ماكان المأمور يتزيد ويستزيد من هذا الإزعاج المقصود إلى درجة لايفصل فاصل زمنى بين نوبة نداءات والنوبة التالية!

، ومرة أخرى، فلا يستطيع من لم يجرب، أن يعرف كم كان هذا الصخب الهمجي يفعل فعله فى أعصاب النزلاء، وينال من محاولاتهم المستميتة لنيل شيء من الراحة،.

برنامج
التعذيب الليلى!

الوفد فى ٧/٧/١٩٩٧

تابعنا فى مقالاتنا السابقة، من واقع وثيقة هامة هى مذكرات سعد زهران، برنامج التعذيب الذى طبقه زبانية عبدالناصر على سجناء الرأي فى أوردى أبو زعبل، لمجرد خلافهم فى الرأى مع عبدالناصر، وليس لأنهم تآمروا ضده أو استخدموا القوة لقلب نظامه، وكان الخلاف حول الوحدة المصرية السورية، ففى حين رآها عبدالناصر اندماجية، رآها الشيوعين فدرالية (اتحادية)، وفى حين طبق عليها عبدالناصر النظام الدكتاتورى الذى كان يحكم به مصر، فألغى الأحزاب السورية التى قدمت الوحدة على طبق من ذهب، فإن الشيوعيين رأوا أن الديموقراطية وحدها هى التى تحفظ الوحدة.

ومن أجل هذا الخلاف فى الرأى كانت حملة الاعتقالات الهتلرية الواسعة النطاق فى أول يناير ١٩٥٩، التى شملت كتابا ومفكرين وأساتذة جامعات ومحامين وأطباء ومهندسين وعمال وفلاحين، لعقابهم على ما اعتبره عبدالناصر جريمة شنعاء، وهى الخلاف فى الرأى، فكان قراره

الجمهورى بعملية الاعتقالات، وكان برنامج التعذيب الذى أعد لتأديب المخالفين فى الرأى!.

على هذا النحو كانت الوحدة المصرية السورية كارثة حقيقية على الشيوعيين فى مصر، بل وعلى كل صاحب فكر متعاطف ـ كما سوف نرى ـ فقد كانت بداية تحطيمهم جسديا ومعنويا وروحيا، وسحبهم من الحياة العامة الى ظلمات السجون والمعتقلات لمدة خمس سنوات كاملة وأربعة أشهر!

وفى الوقت نفسه كانت الوحدة المصرية السورية كارثة على فكرة الوحدة العربية التى كانت تداعب أحلام القوميين المصريين والعرب منذ الثلاثينيات من هذا القرن، فإن الطريقة التى عالجتها بها ثورة يوليو كانت كفيلة بالقضاء عليها، فسقطت بعد ثلاث سنوات ونصف فقط، إذ قامت فى فبراير ١٩٥٨ وسقطت فى سبتمبر ١٩٦١، ولكن بعد أن صدع عبدالناصر الجبهة الوطنية فى سوريا، وحول هذه القوى الوطنية التى حمت استقلال سوريا إلى قوى متصارعة ضد بعضها البعض: عبدالناصر والبعثيون ضد الشيوعيين، والشيوعيون ضد عبدالناصر فى المرحلة الأولى، ثم عبدالناصر ضد البعثيين بعد ذلك!ـ الأمر الذى لم يقض فقط على الوحدة المصرية السورية، بل قضى على فكرة الوحدة ذاتها، فلم تقم لها بعد ذلك قائمة!

وهكذا أثبت نظام عبدالناصر أنه كان كارثة على جميع القضايا القومية التى تناولها! فقد تناول قضية وحدة وادى النيل، وانتهت بانفصال السودان عن مصر. وتناول قضية الوحدة المصرية السورية فانتهت بانفصال سوريا عن مصر، وتناول قضية الصراع العربى الإسرائيلى، فانتهت باحتلال اسرائيل سيناء مرتين ! وتناول قضية تأميم شركة قناة السويس، فانتهت باحتلال اسرائيل سيناء وخروجها منها بثمن باهظ هو فتح خليج العقبة للملاحة الإسرائيلية. وتناول قضية تأميم وسائل الإنتاج، وها هى شركات

القطاع العام تتحول تدريجيا إلى الخصخصة! وقد تناول قضية تقوية الجيش المصرى وتسليحه ولكنه دفع به مرتين فى حربين بدون استعداد، وكانت النتيجة هريمته مرتين متتاليتين! وتناول القضية الفلسطينية، عندما كانت اسرائيل تحتل نصف فلسطين، فانتهت باحتلال اسرائيل النصف الآخر من فلسطين، ومعه غزة، والجولان، وجنوب لبنان، وسيناء! ولولا مبادرة السلام التى قام بها الرئيس السادات لكانت سيناء حتى اليوم تحت الاحتلال الإسرائيلى، بفضل بركة ثورة يوليو!!

ولكن بفضل جهاز الدعاية الناصرى تحولت كل هذه الهزائم إلى انتصارات! وقد كانت هذه الانتصارات الموهومة هى التى قام عليها الحزب الناصرى، وتشيد بها أقلامه، حتى بعد أن عرف الشعب المصرى والعربى حقيقتها، وأصبح يدفع ثمنها غاليا!

وقد كانت قضية الديموقراطية على رأس القضايا التى رفعت ثورة يوليو شعارها فى أول بيان لها، وكان الدستور على رأس وعودها. ولكنها بعد أسبوع واحد فقط، كانت تنقض على الحياة النيابية وعلى الديموقراطية، وتضع الشعب المصرى فى سجن كبير! وعندما انتفض الشعب المصرى فى أزمة مارس مطالبا بعودة الجيش الى ثكناته، تمكنت عصابة يوليو بالخديعة والتآمر من ضرب القوى الوطنية والتقدمية، وأعادت الشعب المصرى إلى السجن من جديد!

ومن هنا أصبح الخلاف فى الرأى جريمة كبرى، وعلى المخالف أن يدفع ثمنها غاليا من حريته ومن جسده وروحه! وكان التعذيب فى أوردى أبو زعبل على النحو الذى أوردناه فى مقالاتنا السابقة هو الثمن الباهظ الذى دفعه مفكرو مصر وكتابها لخلافهم مع عبالناصر. وهو ما فصله سعد زهران فى مذكراته التى أوردناها.

وكنا قد وصلنا فى مقالنا السابق إلى نظام التعذيب أثناء الليل لسجناء الرأى! فقد كانوا ينامون على برش ضئيل الحجم، على أرض أسمنتية أو بازلتية، فى زمهرير الشتاء، والريح تنصب عليهم داخل العنبر، وعليهم غطاء رقيق يتكون من بطانيتين صغيرتين يتخذون من نصف إحداهما فرشة على البرش ويتغطون ببطانية ونصف! ولكنهم لا يكادون يغطون فى النوم حتى يستيقظون على أصوات صيحات الحراس الليليين المتوالية بالتمام، كل ربع ساعة، وذلك لتحطيم أعصابهم بهذا الصخب الهمجى، والنيل من محاولاتهم المستميتة لنيل شئ من الراحة!

ومع ذلك، وكما يقول سعد زهران، فإن الليل كان بالنسبة لسجناء الرأى، رحمة، فبين تمام المساء وطلوع النهار كان النزلاء معفون من اقتحام قوة السجن عنابرهم، ومن التفتيش وطوابير الهتاف والغداء والعمل، أى معفون من بنود «التعذيب الساخن».

ولكن يبدو أن طباع مخططى التعذيب كانت ساخنة جدا، فلم يسمحوا بأن يكون النوم والليل مجرد بندين باردين، واليكم ما جرى:

«بعد أسابيع قليلة من افتتاح الأوردى، أخذ النزلاء يتعاملون بشئ من الألفة مع واقعهم المروع، وشرع الكثيرون يستفيدون معنويا من جو الطمأنينة النسبى الذى يحسونه أثناء ساعات الليل، وشرع البعض يتبادل شيئا من حديث مع جار أو زميل، أو يذهب للجلوس مع صديق على بعد أمتار، فقد يكون هذا الصديق بحاجة إلى معونة بسبب اصابة أو إرهاق مضاعف نال منه، أو قد تفيض كسرة خبز عن حاجة نزيل ممن لا يعملون فى الجبل فيهديها لصديق بحاجة إليها، أو لمجرد الونسة. وعلى كل حال فقد كانت هذه الفسحة أو تلك الونسة لا تستمر إلا قليلا، فقد كان الانهاك كفيلا بجعل النزلاء يروحون سريعا فى غيبوبة ذلك النوم «الأوردوى»!

«على أن هذه اللحظات من الفسحة والونسة لم ترق فى عيون مخططى برنامج التعذيب، الذين اعتبروا ذلك نوعا من الدلع يجب أخذه بالقسوة اللازمة.

«وفى البداية كان العسكرى المكلف بحراسة فناء السجن أثناء الليل (خفر الليل) يطل على العنبر من نضارة الباب بين الحين والآخر، يسب النزلاء، ويأمرهم بالكف عن الكلام والنوم فورا، وينذرهم بأشد أنواع التنكيل فى اليوم التالى.

وفى إحدى الليالى (ربما فى شهر ديسمبر)، وعلى نحو مفاجئ ومعد اعدادا محكما، تم تصعيد الموقف. فبعد ساعة من تمام المساء وإغلاق العنبر مع هبوط الظلام، اقتحمت قوة السجن جميع العنابر فى لحظة واحدة، يتقدمهم المأمور وهو فى كامل الحماس والنشوة وتمام اللياقة، ينتقى السباب، ويصدر التعليمات، ويتصيد كل من يشتبه فى أنه غادر مكانه أو تحرك من فوق برشه!

«وكانت حصيلة هذه الحملة المدبرة(٢١) نزيلا، نكل بهم المأمور وضباطه وجنوده تنكيلا مروعا لمدة أسبوع كامل!

«فقد وضع هذا العدد المهول من البشر فى زنزانة واحدة من زنازين التأديب، وهى غرفة صغيرة (٢× ٢,٥ متر) تعتبر مكتظة - حتى بالمعايير الشديدة القسوة لإدارة مصلحة السجون - إذا وضع فيها خمسة أشخاص!

«ولا يدرى أحد كيف كانوا يدبرون أمرهم فى هذا الجحر الضيق؟ قيل: سبعة واقفون، وسبعة جالسون مضمومو الساقين، وسبعة جالسون مفرودو الساقين.. بالتناوب!!

«ثم كان المأمور يأمر بالحاقهم فى كل يوم من أيام ذلك الأسبوع، بطابور التعذيب الرياضى وطابور العمل، حيث يختصون بجرعات مضاعفة من الضرب والإهانة!

،ولا نتصور أن المأمور أمر باعادتهم إلى عنابرهم إلا لأن مظهرهم - قرب نهاية ذلك الأسبوع - بدأ يشير إلى أن غالبيتهم أصبح على شفا الهلاك، أى الموت المحقق. ولو حدث ذلك لكان مخالفا للتعليمات!

،وبعد تلك الليلة المشئومة. زايل النزلاء ما كانوا يشعرون به من طمأنينة نسبية فى سواد ليل أبو زعبل، وامتزجت مخاوف وهواجس التعذيب الساخن بمتاعب ومعاناة التعذيب البارد، فى منامة تلك العنابر التى هى أشد وحشة ورهبة من المقابر!

وهكذا اكتمل برنامج العذاب والتعذيب ليغطى أربعا وعشرين ساعة كل يوم .

حفلات الاستقبال :

«لابد، فى هذه العجالة، من الإجابة على سؤال مهم هو: كيف بدأ هذا الجحيم؟ وكيف حمل النزلاء على تقبل هذا العذاب والتعذيب؟

«تتلخص الإجابة فى أن مصممى برنامج التعذيب فى الأوردى، طبقوا أسلوبا قديما سبق أن عمل وفقه كل من أقدم على ارتكاب عمليات تعذيب جماعية فى السجون، أو المعتقلات من قبل، وهو: إحداث صدمة جسدية ومعنوية وعصبية، تفقد النزلاء كل قدرة على المقاومة منذ اللحظة الأولى التى تطأ فيها أقدامهم أرض معسكرات التعذيب، أو سجونه، وذلك فيما يسمونه - فى لغتهم السادية - حفلات الاستقبال!

«ويمكن الاطلاع على وصف كامل لحفلة نمطية من تلك الحفلات الجهنمية فى وثائق التحقيق فى قضية مصرع المناضل المرحوم شهدى عطية الشافعى، الذى قتل أثناء واحدة من هذه الحفلات الأوردية - وهى آخرها فى ذلك الزمان - فى ١٥ يونيو ١٩٦٠!

وفى سجون عبدالناصر كان للجواسيس الإنجليز الرعاية ولسجناء الرأى التعذيب والإهانة !

الوفد ١٤/٧/١٩٩٧

الوصف الدقيق الذى قدمه سعد زهران لنظام التعذيب فى أوردى أبو زعبل، والذي قدمناه فى مقالاتنا السابقة، يوضح بصورة دامغة أن نظام عبدالناصر كان سبة فى تاريخ الحضارة المصرية وفى تاريخ الشعب المصرى على مدى العصور!

بل لعله كان سبة فى تاريخ النظم السياسية الفاشية والنازية ذاتها! فقد كان لهذه النظم أسبابها فى التنكيل بخصومها السياسيين، وكان لها مبرراتها - التى لا نتفق معها بطبيعة الحال - فى تعذيب الخصوم، ولكن عبدالناصر لم يكن لديه سبب واحد يدفعه الى اعتقال كبار مفكرى وكتاب مصر، واخضاعهم لذلك التعذيب الجهنمى الجماعى على مدى سبعة أشهر متصلة، والذى أدى إلى وفاة العديد منهم تحت عجلة ضربات الشوم والكرابيج والزخم، وأصاب الجميع بأخطر الأمراض!

فلم تكن ثمة مؤامرة لقلب نظام الحكم، ولم تكن ثمة معارضة لنظام الحكم، بل كان الجميع يؤيدون النظام الناصرى، تحت وهم أنه نظام تقدمى! وحتى عندما كشف عن وجهه الفاشى القبيح، واعتقلهم بليل، وقذف بهم فى أسوأ سجون شهدها تاريخ السجون فى مصر، ظلوا يؤيدونه، ويهتفون بحياته على نحو يحسدهم عليه «دون كيشوت».

والغريب أن هذه «الدون كيشوتية» مازالت تقود خطى اليسار المصرى الى اليوم! فما زالوا يتصورون أن نظام عبدالناصر كان نظاما تقدميا واشتراكيا، على الرغم من الهراوات التى نزلت على رؤوسهم، والكرابيج التى ألهبت ظهورهم، والتعذيب الجهنمى الذى لاقوه على يد هذا النظام طوال حياة عبدالناصر تقريبا!

فقد حكم عبدالناصر ثمانية عشر عاما، قضى بعضهم، مثل الدكتور رفعت السعيد، ثلاثة عشر عاما فى السجن، وللدقة فى سجون عبدالناصر المتنوعة! ـ وقضى مصطفى طيبة إثنى عشر عاما لأغرب الأسباب فى التاريخ، وهى تهمة محاولة قلب نظام الحكم الملكى الذى قامت ثورة يوليو نفسها بقلبه! وقضى آخرون مددا مختلفة، لمجرد الخلاف فى الرأى فى بعض القضايا التى لا تتصل بنظام الحكم!

وقد لقوا من التعذيب ما لا يتصوره بشر، أعده وحوش آدميون ساديون اعتبروا التعذيب رسالة ومنهج حياة، ولم يشهدهم عصر من العصور!

وربما كان ما جرى لسعد زهران، أنموذجا بشعا لما قام به أولئك الوحوش من أوردى أبو زعبل مع المعوقين.

فقد كان سعد زهران ممن كان يطلق عليهم إسم «الدرجات»، ويقصد بهم المعوقون الذين فقدوا بعض أطرافهم، أو أصيبوا بشلل الأطفال، والمصدورون وغيرهم. وكان لهم نظام خاص فى التعذيب يستغل هذه

العاهات فى زيادة التعذيب! وكانت عاهة سعد زهران هى فقد إحدى ساقيه. وعلى حد قوله، فإنه كان واحدا من نزلاء عنبر (١) وكان ثمة تعليمات بمضاعفة جرعات التعذيب على نزلاء هذا العنبر، لافتراض أنه عنبر «القيادات».

ولمكانة سعد زهران الخاصة بين نزلاء هذا العنبر، فقد اختص بجرعات إضافية من التعذيب، ومنها هذه الواقعة.

فبعد افتتاح «الأوردى» بحوالى أسبوعين، وفى معرض محاولة مضاعفة التعذيب المعنوى والإهانة الأدبية، وتقليدا لما سبق حدوثه فى السجن الحربى، حاول المأمور أن يجبر النزلاء على أن يقوموا بإنشاد جماعى لأناشيد معينة.

وقد بدأ المأمور بسعد زهران، آمرا إياه بالإنشاد، لكى يقتدى به بقية النزلاء وينشدوا وراءه. ولكن سعد زهران رفض هذا الأمر، فإذا بثلاثة من قوة السجن تنهال عليه ضربا بالشوم، ثم ساقوه إلى زنزانة التأديب الأولى، ليقضى فيها مدة العقوبة بحيث يكون واقفا على ساق واحدة!

فقد تفتقت عبقرية مأمور الأوردى عن خطة جهنمية، هى صب الماء فى الزنزانة لكى يجعل من الجلوس على الأرض عملية مستحيلة. ولما كان سعد زهران مبتورا احدى ساقيه كما ذكرنا، فقد ترتب على عجزه عن الجلوس على الأرض أن ظل واقفا على ساق واحدة، ليس ليوم واحد فقط، وإنما لمدة خمسة أيام وأربع ليال!

ويقول سعد زهران إن المأمور كان يحرص على أن يمر كل مساء على زنزانة التأديب، وهو فى تمام هندامه وتعطره، لكى يملأ ناظريه من سعد زهران، ويعبر عن تجبره وتشفيه!

وبعد خمسة أيام وأربعة ليال من الوقوف على ساق واحدة، عاد سعد زهران الى العنبر رقم (١)، ليصارحه زملاؤه ، بعد ذلك بفترة كافية، بأن شكله ليلة عودته كان عجيبا! كيف؟ كان جسده منتفخا انتفاخا ملحوظا، ولون بشرته أزرق قرمزيا!

والأرجح - كما يقول - أن المأمور لم يأمر باعادته الى العنبر الا بعد أن لاحظ، بعين المعذب المحترف، أن الحالة أصبحت تنذر بهلاك وشيك!

ويختم سعد زهران روايته قائلا: حقا، عندما تغلب إرادة الحياة عوامل القهر والفناء، فإن الاحتياطيات الجسدية والروحية للإنسان، تكون غير محدودة!»

هذه القصة التى رواها سعد زهران عن إحدى وقائع تعذيبه، تصور الطبيعة الفاشية للنظام الناصرى التى كانت غائبة عن الشعب المصرى، الذى كان يعيش تلك الأيام تحت صخب الدعاية الناصرية، التى كانت تصور له الهزائم انتصارات، والدكتاتورية الفاشية ديموقراطية، والمآزق السياسية التى تقودها نزعات الزعامة الناصرية، التى كان الشعب المصرى يدفع ثمنها غالبا من أرضه ومن حياته الاقتصادية - بطولة ونضالا!

ومن الغريب أن عبدالناصر كان يختص أصحاب الرأى المصريين بهذا الاعتقال وذاك التعذيب، ويعفى منه الأجانب! ففى مذكرات الوزير الوفدى عبدالفتاح حسن، وهو الوزير الذى قام بتشغيل ثمانين ألف عامل كانوا فى المعسكرات البريطانية، وقت معركة القناة عام ١٩٥١، وهى المذكرات المنشورة تحت اسم: «ذكريات سياسية»، وقد نشرتها دار الشعب سنة ١٩٧٤، يعقد مقارنة بين معاملة النظام الناصرى للمعتقلين المصريين ومعاملته للمعتقلين من الإسرائيليين والإنجليز.

فيقول إنه عندما اعتقل فى ليمان طرة من يوم ١٩٦٩/٨/٣١ زج به فى زنزانة مفردة ليس بها غير الأسفلت وكوة صغيرة فى السقف، وجرد لان: أحدهما للمياه وآخر لغيرها! وقد وجد عبارة مكتوبة على الجدار بخط كبير بالقلم الكوبيا تقول: أنا فى هذه الزنزانة غريب، زميلى فيها الجوع والموت والتعذيب».

وبعد أن قضى فى الزنزانة نحو عام وأربعة أشهر، كتب التماسا إلى طبيب المعتقل يقول فيه:

«أتشرف بأن أنهى إلى سيادتك أننى رغم مداومتى على تناول الأدوية والتزامى التعليمات الخاصة بالتغذية، فإنه قد جد على زيادة فى نسبة البوليك، وشعور بألم أشد فى ساقى. لهذا أرجو الموافقة على التصريح لى باحضار «كليم» أو «مشاية»، أغطى بها بلاط الزنزانة التى أقيم فيها حاليا فى مستشفى المعتقل. ولا يخفى عليكم أن عرضها أقل من مترين وطولها حوالى مترين نصف، ولا تدخلها الشمس، والجو شديد البرودة فى فصل الشتاء، وخاصة فى هذه الأيام!

كتب عبدالفتاح حسن هذا الطلب المتواضع، وغادر المعتقل دون أن يجاب إليه.

وقد علق على هذه القصة قائلا: ومن أسف أننى كنت أرى الإسرائيليين المعتقلين فى ذات المعتقل، يعاملون بأقصى ضروب الكرم، ويتمتعون بأعظم قسط من العناية بهم، والتهافت على الاستجابة لكل طلباتهم، إلى أن تم اخلاء سبيلهم جميعا، وسافروا إلى مركز تجمعهم فى باريس، ومنها اتجهوا الى تل أبيب وغير تل أبيب.

«وتذكرت أنه كتب على أن أرى فى ليمان طرة الجواسيس الإنجليز يعاملون فى سنة ١٩٥٨ أكرم معاملة.

«كما كتب عليّ مرة أخرى، بمعتقل طرة السياسى فى عامى ١٩٦٩ و ١٩٧٠، (أى فى عهد الرئيس جمال عبدالناصر) أن أرى الإسرائيليين يعاملون أيضا أكرم معاملة!

«فى حين أن المصريين، وأنا من بينهم، نصيبهم فى وطنهم، وبغير ذنب، هو ما أشرت إلى بعض أوضاعهم فى هذه الذكريات»!

وكان عبدالفتاح حسن يقصد بالجواسيس الإنجليز الجاسوسين الإنجليزيين «زارب» و «سوينبرن»، اللذين حكم عليهما مع آخرين فى قضية جاسوسية، فقد ذكر أنهما كانا يتمتعان بمعاملة ممتازة بكافة ألوانها، وأنه ما من زائر كبير وفد من بريطانيا لمصر إلا وكان ينتقل رسميا لزيارتهما بالليمان، للاطمئنان إلى حسن معاملتهما!

«بألم بل كان يحضر اليهما كل يوم أحد قسيس يقيم فى المعادى، أصله ضابط فى الجيش البريطانى، ويحمل اليهما ما يطلبان، مما يعز وصول بعضه إلى غيرهما»!

وواضح أن السجناء الإنجليز والإسرائيليين كانوا خارج نطاق «الدومين» الذى يملكه ويحكمه عبدالناصر وهو مصر! كما أن لهم دولا تحمى مصالحهم، أما السجناء المصريين فكانوا عراة من أى حماية!

ففى كل بلد من بلاد العالم يمثل القانون القوة التى تحمى المواطنين من بطش الحكام، وحين يعطى الحاكم القانون أجازة، فمعنى ذلك أن المواطنين يصبحون عراة تماما من أى حماية، يبطش بهم الحاكم كما يشاء، وينكل بهم زبانيته كما يشاءون!

وهذا العرى ولو أنه رمزى، فإن زبانية النظام يحولونه الى عرى مادى وهم يعذبون سجناء الرأى! والمثال لذلك ماحدث فى واقعة تعذيب شهدى عطية الشافعى، فوفقا لما ورد فى حكم جنوب القاهرة الابتدائية، الدائرة

الرابعة فإنه، عندما دخل شهدى عطية الليمان، استقبله نفر من الضباط والصف، منهم الضابط عبداللطيف رشدى، ومرجان، وحسن منير، والصول مطاوع، وعدد كبير من الحراس، حيث أوسعوه ومن معه، ضربا بالكراسى والعصى والكرابيج والأحذية، ثم انفردا بالمرحوم شهدى عطية، ، وأمروه بالمرور على صفين من الحراس: صف على ظهور الخيول، وصف يقف أرضا، حيث كان يمر عليهم، ويتسلمونه ضربا بالكرابيج! ثم اصطحبوه إلى مكان «العروسة»، وأمروه بخلع ملابسه، وقاموا بالاعتداء عليه بالضرب على ظهره، ثم قلبوه على الوجه الآخر (!) وأوسعوه ضربا، ثم سحلوه أرضا، وكان عارى الجسد».. إلى آخره».

وهذا الكلام الوارد فى حكم المحكمة، يثبت أنه حين يكون المواطن عاريا من حماية القانون، فإن هذا العرى الرمزى يمكن أن يصبح فى أى وقت عريا ماديا، فيعرى سجين الرأى من ملابسه، ويضرب بالكرابيج على ظهره، ثم يقلب عاريا، ويضرب بالكرابيج مرة أخرى على بطنه!

وهذا هو السبب فى ضرورة تمسك الأحرار بحكم القانون، لأنه الحماية الوحيدة لهم من أى بطش أو تعذيب!

من أهم الأعمال العلمية المنشورة للمؤلف

١ - تطور الحركة الوطنية فى مصر (١٩١٨ - ١٩٣٦) الطبعة الأولى.
(القاهرة: دار الكاتب العربى ١٩٦٨) .

- تطور الحركة الوطنية فى مصر (١٩١٨ - ١٩٣٦) . الطبعة الثانية (مكتبة مدبولى ١٩٨٣) .

- تطور الحركة الوطنية فى مصر (١٩١٨ - ١٩٣٦) . الطبعة الثالثة:

الجزء الأول - (١٩١٨ - ١٩٢٤)

الجزء الثانى - (١٩٢٤ - ١٩٣٦)

(الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٩٨) .

٢ - تطور الحركة الوطنية فى مصر (١٩٣٧ - ١٩٤٨) - مجلدان.
الطبعة الأولى (بيروت: دار الوطن العربى ١٩٧٣) .

الطبعة الثانية:

- الجزء الثالث - (١٩٣٧ - ١٩٣٩)

- الجزء الرابع - (١٩٣٩ - ١٩٤٥)

(القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٨)

٣ – الصراع الاجتماعى والسياسى فى مصر من ثورة يوليو إلى أزمة مارس ١٩٥٤ ـ **الطبعة الأولى** . (القاهرة : مكتبة مدبولى ١٩٧٥) .

ـ **الطبعة الثانية** (القاهرة: مكتبة مدبولى ١٩٨٩).

٤ – عبد الناصر وأزمة مارس . (القاهرة : دار روز اليوسف ١٩٧٦) .

٥ – الجيش المصرى فى السياسة (١٨٨٢ – ١٩٣٦) (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧) .

٦ – صراع الطبقات فى مصر (١٨٣٧ – ١٩٥٢) . (بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٧٨ ـ **الطبعة الأولى**) .

ـ **الطبعة الثانية** (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧ (مكتبة الأسرة).

٧ – الصراع بين الوفد والعرش (١٩٣٦ – ١٩٣٩) **الطبعة الأولى**. (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٧٩).

الطبعة الثانية (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣).

٨ – الفكر الثورى فى مصر قبل ثورة ٢٣ يوليو . (القاهرة: مكتبة مدبولى ١٩٨١) .

٩ – المواجهة المصرية الاسرائيلية فى البحر الأحمر (١٩٤٩ – ١٩٧٩) :

الطبعة الأولى (القاهرة : دار روز اليوسف ١٩٨٢) .

الطبعة الثانية (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب «مكتبة الأسرة» ١٩٩٦).

١٠ – الاخوان المسلمون والتنظيم السرى. **الطبعة الأولى** (القاهرة: دار روز اليوسف يناير ١٩٨٣) .

الطبعة الثانية (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣)

١١ – الصراع بين العرب وأوروبا ، من ظهور الاسلام إلى انتهاء الحروب

الصليبية . (القاهرة : دار المعارف ١٩٨٣) .

١٢ – حرب أكتوبر فى محكمة التاريخ . (**الطبعة الأولى**) . (القاهرة: مكتبة مدبولى ١٩٨٤).

الطبعة الثانية (القاهرة: الهيئة المصرية إلعامة للكتاب ،مكتبة الأسرة، ١٩٩٥)

١٣ – مذكرات السياسيين والزعماء فى مصر، ١٨٩١ ـ ١٩٨١ (**الطبعة الأولى**) (القاهرة : دار الوطن العربى ١٩٨٤) .

الطبعة الثانية (القاهرة: مكتبة مدبولى ١٩٨٠)

الطبعة الثالثة مزيدة ومنقحة (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ،مكتبة الأسرة، ١٩٩٨).

١٤ – تحطيم الآلهة ، حرب يونيو ١٩٦٧ . (جزءان) (القاهرة : مكتبة مدبولى ١٩٨٤) .

١٥ – الغزوة الاستعمارية للعالم العربى وحركات المقاومة . (القاهرة : دار المعارف ١٩٨٥) .

١٦ – مصر فى عصر السادات (الجزء الأول) (القاهرة : مكتبة مدبولى ١٩٨٦) .

١٧ – مذكرات سعد زغلول ، تحقيق ، الجزء الأول (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧) .

١٨ – مصطفى كامل فى محكمة التاريخ:

الطبعة الأولى (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين رقم ١ سنة ١٩٨٧) .

الطبعة الثانية (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين سنة ١٩٩٤).

١٩ – أكذوبة الاستعمار المصرى للسودان :

الطبعة الأولى (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين رقم ١٣ سنة ١٩٨٨) .

الطبعة الثانية (القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة ١٩٩٦).

٢٠ – مذكرات سعد زغلول ، تحقيق ، الجزء الثانى . (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٨) .

٢١ – مذكرات سعد زغلول ، تحقيق ، الجزء الثالث . (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٩) .

٢٢ – مصر فى عصر السادات ، الجزء الثانى . (القاهرة : مكتبة مدبولى ١٩٨٩) .

٢٣ – مذكرات سعد زغلول ، تحقيق ، الجزء الرابع . (القاهرة : الهيئة المصرية العامة "كتاب ١٩٩٠) .

٢٤ – الاجتياح العراقى للكويت فى الميزان التاريخى (القاهرة : الزهراء – ١٩٩٠) .

٢٥ – حرب الخليج فى محكمة التاريخ . (القاهرة : الزهراء – ١٩٩٠) .

٢٦ – العلاقات المصرية الاسرائيلية (١٩٤٨ – ١٩٧٩) (القاهرة : سلسلة تاريخ المصريين ٤٩ سنة ١٩٩١) .

٢٧ – مذكرات سعد زغلول ، تحقيق ، الجزء الخامس . (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٢) .

٢٨ – الصراع الاجتماعى والسياسى فى عصر مبارك . (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣) .

٢٩ – تاريخ الاسكندرية فى العصر الحديث . (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣، سلسلة تاريخ المصريين عدد ٦١) .

٣٠ – تاريخ مصر والمزورون . (القاهرة : الزهراء – ١٩٩٣) .

٣١ – أوهام هيكل وحقائق حرب الخليج. (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣) .

٣٢ – قصة بناء المواطنة الخليجية. (القاهرة : مركز المنار للنشر والدراسات الاعلامية ١٩٩٣) .

٣٣ – الصراع الاجتماعى والسياسى فى عصر مبارك، الجزء الثانى (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣) .

٣٤ – مذكرات سعد زغلول، تحقيق، الجزء السادس (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣) .

٣٥ – الصراع الاجتماعى والسياسى فى عصر مبارك، الجزء الثالث (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤)

٣٦ – الصراع الاجتماعى والسياسى فى عصر مبارك، الجزء الرابع، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤) .

٣٧ – الصراع الاجتماعى والسياسى فى عصر مبارك، الجزء الخامس، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٥) .

٣٨ – جماعات التكفير فى مصر (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٥) .

٣٩ – مصر قبل عبدالناصر (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٥) .

٤٠ – أوراق فى تاريخ مصر (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٥) .

٤١ – هيكل والكهف الناصرى (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٥) .

٤٢ – مصر فى عصر مبارك «الجزء السادس» (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٥).

٤٣ – مصر فى عصر مبارك «الجزء السابع» (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٥).

٤٤ – رحلات مؤرخ (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٦).

٤٥ – مذكرات سعد زغلول، تحقيق، الجزء السابع (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٦).

٤٦ – تاريخ أوروبا والعالم فى العصر الحديث، من ظهور البورجوازية الأوروبية إلى الحرب الباردة «الجزء الأول» من ظهور البورجوازية الأوروبية إلى الثورة الفرنسية [القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٦].

٤٧ – تاريخ أوروبا والعالم فى العصر الحديث، من ظهور البورجوازية الأوروبية إلى الحرب الباردة «الجزء الثانى» من تسوية مؤتمر ڤيينا إلى تسوية مؤتمر ڤرساى [القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٦].

٤٨ – تاريخ أوروبا والعالم فى العصر الحديث، من ظهور البورجوازية الأوروبية إلى الحرب الباردة «الجزء الثالث» من من قيام النازية فى ألمانيا إلى الحرب الباردة [القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٦].

٤٩ – مذكرات سعد زغلول، تحقيق، الجزء الثامن (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٦).

٥٠ ـ الوثائق السرية لثورة يوليو الجزء الأول (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٧).

٥١ ـ حرب الاستنزاف (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب) سنة ١٩٩٧.

٥٢ ـ مصر والحرب العالمية الثانية (معركة تجنيب مصر ويلات الحرب) (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب) سنة ١٩٩٧.

٥٣ – مصر فى عصر مبارك «الجزء الثامن» (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧).

٥٤ – مصر فى عصر مبارك «الجزء التاسع» (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧).

٥٥ – الوثائق السرية لثورة يوليو، الجزء الثانى (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٨).

٥٦ ـ مصر فى عصر مبارك «الجزء العاشر» (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٨)

٥٧ ـ عبد الناصر والشيوعيين، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٨)

مع آخرين :

٥٨ – مصر والحرب العالمية الثانية ، مع الدكتور جمال الدين المسدى والدكتور يونان لبيب رزق (القاهرة : مؤسسة الأهرام ١٩٧٨) .

٥٩ – تاريخ أوروبا فى عصر الرأسمالية ، مع الدكتور يونان لبيب رزق ود. رءوف عباس . (القاهرة : دار الثقافة العربية ١٩٨٢) .

٦٠– تاريخ أوروبا فى عصر الامبريالية ، مع الدكتور يونان لبيب رزق ود. رءوف عباس . (القاهرة : دار الثقافة العربية ١٩٨٢).

كتب مترجمة :

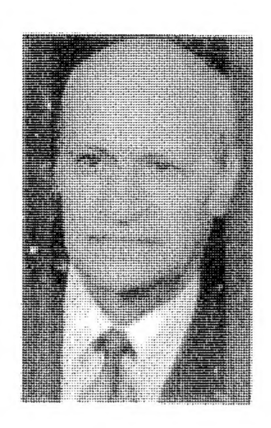
٦٠ – تاريخ النهب الاستعمارى لمصر ، (١٧٩٨ – ١٨٨٢) تأليف جون مارلو. (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦).

الفهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٦٨٥٤/١٩٩٨

I.S.B.N 977 - 01 - 6020 - 2



تعالج هذه الدراسة التاريخية موقف ثورة يوليو من حقوق الإنسان، وتقدم أنموذجا لذلك، ملف التعذيب فى عصر عبدالناصر، وقصته مع المفكرين والمثقفين الشيوعيين، من واقع الوثائق التاريخية واعترافات سجناء الرأى الذين خاضوا تجربة التعذيب فى ليمان أوردى أبوزعبل، ومعتقل العزب بالفيوم، والمحاربين بالواحات الخارجة، والسجن الحربى، وغيره من المعتقلات التى ازدحم بها عهد ثورة يوليو، مع تحليل تاريخى لنظام عبدالناصر فى ضوء تجارب النظم السياسية المقبلة.

٩٠٠ قـــرش

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب